

جماليات تصوير الحركة
في القرآن الكريم



إسهائك

د. حكمت صالح



جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم

الدكتور حكمت صالح

لوحة الغلاف : من إنجاز الفنان مصطفى أجماع

د. حكمت صالح

من مواليد العراق، حاصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الآداب من جامعة الموصل، درس بالقطر الجزائري، ثم عاد إلى العراق. وهو عضو باتحاد الأدباء العراقي واتحاد الأدباء العرب.

له دواوين شعرية كثيرة، منها: «الحب للأرض والإنسان»، و«حي على الفلاح»، و«على عتبات الجنة السمراء» وغيرها. ومن دراساته الفكرية والنقدية: «نحو آفاق شعر إسلامي معاصر»، و«دراسة فنية في شعر الشافعي»، و«مواقف وتأملات في الشعر الجاهلي» وغيرها...



نهر متعدد ... متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة - رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 22487310 (+965) - فاكس: 22445465 (+965)

نقال: 99255322 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

موقع «روافد»: www.islam.gov.kw/rawafed



تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

سبتمبر 2010 م / شوال 1431 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع: 067 / 2010

ردمك: 978-99906-993-3-3

فهرس المحتويات

٥	تصدير
١١	مقدمة
٢٥	الفصل الأول: التشكيل الحركي في القرآن الكريم
٢٧	مدخل
٢٨	المبحث الأول: اتجاهات الحركة التصويرية
٢٨	أولا: الحركة الصاعدة
٤٣	ثانيا: الحركة الهابطة
٤٩	ثالثا: الحركة المقبلة
٦٣	رابعا: الحركة المدبرة
٦٩	خامسا: الحركة الجانبية
٧٥	سادسا: الحركة الانتشارية
٧٩	سابعا: الحركة المركبة
٨٩	المبحث الثاني: أشكال الحركة التصويرية
٨٩	ثامنا: الحركة الدائرية
٩٨	تاسعا: الحركة الموجية
١٠٧	عاشرا: الحركة الاهتزازية
١٣٣	المبحث الثالث: انسيابية الحركة التصويرية
١٣٣	حادي عشر: الحركة المستمرة
١٣٩	ثاني عشر: الحركة المتكررة

١٣٥ المبحث الرابع: تلقّي الحركة التصويريّة
١٣٥ ثالث عشر: التلقّي البصريّ
١٤٦ رابع عشر: التلقّي السمعيّ
١٦١ الفصل الثاني: مجالات الحركة التصويريّة في القرآن الكريم
١٦٤ المبحث الأوّل: المجال العلويّ (السمائيّ)
١٦٤ -الحركة الكونيّة/ الكون، السماء، الشمس
١٨٢ المبحث الثاني المجال السفليّ (الأرضيّ)
١٨٢ الحركة في الطبيعة
١٨٢ (١) مجال حركة الأرض
١٨٩ (٢) مجال حركة الماء
١٩٣ (٣) مجال حركة الريح
٢٠٠ (٤) مجال حركة الجبال
٢٠٥ (٥) مجال حركة البحر
٢١٦ المبحث الثالث الحركة التعبديّة وجماليّتها
٢١٦ ١- جماليّة الحركة التعبديّة
٢٢١ ٢- جماليّات الوُضوء
٢٢٣ ٣- جماليّة الحركة في الصلاة
٢٢٣ ٤- جماليّة الحركة في الحج
٢٣٨ الخاتمة

تصدیق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً.

إن المتأمل في مباحث كتاب «جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم» للدكتور حكمت صالح لا يلبث أن يستحضر وصفين اثنين للقرآن الكريم، رافقا الدراسات القرآنية والبيانية للخطاب القرآني منذ نزوله في مراحل الأولى.

أما الوصف الأول، فقد ورد على لسان الوليد بن المغيرة حين اجتمع إليه أهل قريش يستصدرون منه رأياً محكماً تجاه ما يلقيه الرسول صلى الله عليه وسلم على مسامعهم من آيات الذكر الحكيم، فأجابهم: «إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه لجنابة»^(١)، وأما الوصف الثاني، فقد ورد في الأثر: «إنه لا تقتضي عجائبه»^(٢).

وكلا الوصفين يكشف عن مجموعة من الخصائص التي تميز الخطاب القرآني، وتجعله بمثابة الشجرة المباركة التي تثمر أطيب المعارف، وأكثرها تنوعاً وجدة على مدار تاريخ تعامل الإنسان مع القرآن الكريم إلى يوم الدين.

وإلى جانب الدراسات التفسيرية العامة التي امتدت سلسلتها المباركة وماتزال تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، فقد تنامت الدراسات البيانية

١ - السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق: مصطفى الزرقا وزميله، م: ١، ص: ١٩٨.

٢ - هذا الوصف طرف من حديث رواه الترمذي في جامعه «كتاب ثواب القرآن»، (باب ما جاء في فضل القرآن)، وقال عنه: «لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول، وفي الحارث مقال» (جامع الترمذي، ج: ١١، ص: ٢٠)، وأورده البغوي في «شرح السنة»، حديث رقم: ١١٨١، ج: ٤/٤٢٨، وقال محققا الكتاب (والحارث هو ابن الأعمور الهمداني... تكلم فيه النووي وابن المعين وأبو زرعة والدارقطني وغيرهم، والجمهور على توهينه).

وقال الحافظ ابن كثير في «فضائل القرآن»: «وقصارى هذا أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح». (انظر: فضائل الصحابة»، مكتبة الصحابة، ص: ١٠).

والجمالية للخطاب القرآني منذ الوقفات المنهجية والبلاغية مع الإمام عبد القاهر الجرجاني والزمخشري، وصولاً إلى الدراسات المتميزة التي أنجزها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه «التصوير الفني في القرآن الكريم» و«مشاهد القيامة في القرآن الكريم» وتأملاته التطبيقية في تفسيره «في ظلال القرآن».

ويمكن اعتبار ما أنجزه الباحث حكمت صالح في كتابه «جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم» حلقة في هذا الاتجاه المبارك.

وقد التفت الكاتب، بتأمله الأدبي، إلى موضوع طريف، وهو الحركة، وسعى إلى استجلاء مظاهر حضورها في الخطاب القرآني، وتبين له أنها موضوع لا يتعلق بجانب واحد من جوانب القرآن، بل هي حاضرة في مختلف جوانبه، مثلما أن الحركة، نفسها، حاضرة في مختلف جوانب الكون، ومادامت الحركة، في الكون المنظور الذي يساوي الكتاب المجلو، عامة وشاملة، فإنها، وبالقوة نفسها، عامة وشاملة في الكتاب المتلو أو الكون المقروء.

وبغية التقريب المنهجي، فقد قسم الحركة في القرآن الكريم إلى أقسام عدة، منها: الحركة الصاعدة والحركة النازلة، والحركة المقبلة والحركة المدبرة، والحركة الموجية والتكرارية والانسيابية، والحركة السمعية والبصرية، والحركة التعبديّة وغيرها... وتتبع مختلف الأنواع والأشكال في حديث القرآن الكريم عن الكون بمختلف عناصره من سماء وجبال وأراضي، ونبات وحيوان وماء وزلازل وبحار...

وما يحمد للباحث أن دراسته زاوجت بين التنظير والتطبيق، وبقيت وفيّة للأسس المعرفية والمنهجية للبلاغة العربية، ولم تستعمل في حق الخطاب القرآني إلا ما أجاز العلماء استعماله، فلم يوصف الأسلوب القرآني إلا بما ورد الإذن به، إيماناً من الكاتب بأن مغايرة القرآن الكريم لغيره

من الخطابات الأدبية، مفض إلى مفايرته في التوصيف، إبقاء على تفرده وإعجازه وتنزيه الذات الإلهية المتكلمة به.

وفي هذا السياق، فقد أورد الباحث مصطلح: «تصوير الحركة»، وهو مطمئن إلى أنه مصطلح استعمله العلماء وارتضوه، ولم يضع مكانه مصطلحا آخر، مثل «التخييل»:، استنادا إلى أن المتكلم بالقرآن الكريم لايجوز في حقه وصف «التخييل» .

وهذا يذكر بالدور العلمي والعقائدي للعلماء الأجلاء، الذين أفنوا أعمارهم في خدمة كتاب الله عز وجل، فقد قرروا قيذا خاصا بالاصطلاح في حق الكتاب المبين، يمكن تسميته بـ«المناسبة المقامية»، ويقصد به أن يكون المصطلح الواصف للأسلوب القرآني لائقا بخطاب القرآن في جلاله وعظمته، إذ ليس الاصطلاح عملية اتفاقية تتحدد مضامينها ورؤاها بانتهاج الشروط التقنية التي يتحدث عنها علماء المصطلح، بل لابد من إحكام أصل الأصول، وهو ألا يكون المصطلح متسما بالتعسف أو العبيثية أو التقيص من شأن القرآن أو منزله سبحانه وتعالى .

وإذا كانت الأمثلة كثيرة، فيكفي، في سياق هذا التصدير، التذكير بما قام به الإمام ابن المنير الإسكندري في تعقبه للزمخشري، فقد أطلق هذا الأخير مصطلح «التخييل» على بعض أساليب القرآن، لكن ابن المنير رفض ذلك وانتقده انتقادا، واعتبر أن استعمال التخييل في حق القرآن «سوء أدب في الإطلاق، وبعد في الإضرار، فإن التخييل يستعمل في الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق، فإن يكن معنى ما قاله صحيحا، فقد أخطأ في التعبير عنه بعبارة موهمة لمدخل لها في الأدب الشرعي»⁽¹⁾ .

وقد أحكم الباحث حكمت صالح هذا الضابط، فجاء كتابه مستوعبا

1- ابن المنير الإسكندري: «الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال»، على هامش «الكشاف»

للزمخشري، ج: ١، ص: ٢٨٥.

لمنهج العلماء الأجلء الحريصين على تجلية مكامن الجمال في الخطاب القرآني، باعتماد الآليات التفسيرية والبلاغية المعتبرة، وذلك كله لإبراز عالم «الحركة» في القرآن الكريم، وأثر ذلك على المتلقي، ووجه العلاقة بين طبيعة حركات العوالم والأشياء والأحوال النفسية المصاحبة لها .

ويسر إدارة الثقافة الإسلامية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت أن تقدم هذا الكتاب إلى جمهور القراء الكرام، حلقة في سلسلة الكتابات الكاشفة عن كنوز الكتاب الحكيم الذي لاتنقضي عجائبه.

والله نسأل أن ينفع به ، إنه سميع مجيب.



مقدمة

تمهيد:

لِمَ الحركة؟ الحركة هي: الخروج من القوّة إلى الفعل. إنّ كلّ شيء في هذا الكون في حركة دائبة من عالم الذرّة إلى عالم المجرّة، وهي حركة متنوعة وشاملة... فهناك حركة في عمليّة الخلق والإبداع، ويلاحظ الجانب الحركيّ في ما منه البدء في عمليّة الخلق، ثمّ في النشور، في حين يتجلّى الجانب الجماليّ في التقابل بين البدء بالخلق وإعادة الخلق يوم القيامة..

وهناك حركة النفس الإنسانيّة التي أودع الله تعالى فيها نوازع الخير ونوازع الشرّ؛ لتتحمل المسؤوليّة من خلال الاختيار الذي يُبنى عليه الموقف الفكريّ من عموم القضايا التي تواجه الإنسان في الحياة.

وهناك الحركة في التاريخ؛ حيث إنّ التاريخ يعتمد على عنصر الزمان، و«الزمان» هو عنصر من عناصر الحركة إلى جانب «المكان»، ويقوم التاريخ أيضاً على تعاقب الأجيال. ومدولة الأيام بين الناس ظاهرة حركيّة تتأتّى من خلال التعاقب والتدرّج عبر الزمن؛ فهي مؤشّر على التطوّر الحضاريّ، يستقرّ حيث الصلاح.

والحركة في المجتمع. في المنظور الإسلاميّ. تتّضح من خلال قاعدة: أنّ الأرض يرثها عباد الله الصالحون.

وهناك حركة الكون، والآيات التي تتحدّث عن الحركة الكونيّة كثيرة في القرآن الكريم، سباحة الأجرام السماويّة في أفلاكها كما تبدو للعيان من خلال الكون المنظور. فيها من عناصر الجمال والتنسيق والاتزان ما تتجلّى فيه قدرة الباري جل جلاله.

لقد تبين أنّ الوجود منضبط بحركة فاعلة.. ومتفاعلة.. متطوّرة.. متجدّدة.. متّجهة؛ يمكن أن توصف بشكل عامّ. بالصاعدة أو المتقدّمة، بالرغم من نسبيّة الحيّز وحسيّة المكان أو معنويّته. ولحركة الحياة محرّكها،

وأَسبابها، وغايتها، فهي ليست حركة عابثة ولا عشوائية ولا فوضوية. إنها منضبطة بقوانين؛ سواء على المستوى الحسيّ - المادّي (المنظور والمسموع)؛ أم المعنويّ - الاعتباريّ (العقليّ، النفسيّ، الروحيّ).

تُطلق الحياة - فيما تُطلق - على الحركة النامية: (إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا)..
وعلى الحركة الحسّاسية: (لُحْيِي الْمَوْتَى).

وسنجد أنواعاً من الحركة متعدّدة الاتجاهات؛ فمنها: العموديّة: (الصاعدة والهابطة)، والسطحيّة: (المقبلة والمدبرة)، والأفقية: (الجانبية والانتشارية)، والدائرية والدورانية.

وعن رصد الحركة في التصوير القرآنيّ؛ فإنّ الحركة أصعب من أن تحاط بقيود أو أن تُحدّد بأشكال؛ ذلك أنّ مفاهيم الحركة قد تعدّدت ضمن تفرّعات ثانوية أُخرى تتحصّر في مفهوم شامل لحركة الأشياء. كما تختلف دلالاتها الاصطلاحية والتخصّصية وفقاً للحقول المعرفية المتنوّعة.

وإذا كان بعض الباحثين في مجالات الدراسات القرآنية قد استثمروا معطيات بعض العلوم في تفسير القرآن الكريم أو جانب منه، فإنّ كثيراً منهم لم يجد في آيات الفنون ومعطياتها ما يوظّفونه لاستشفاف جماليّات النصوص القرآنية. ولعلّ (سيد قطب) من أهمّ الذين يمكن استثناؤهم؛ وذلك في محاولته الرائدة المتمثلة في كتابه: «التصوير الفنّي» و«مشاهد يوم القيامة».

الأبعاد اللغوية للحركة التصويرية:

إنّ اللغة قدرة تعبيرية بالصورة والحركة؛ من خلال تصويرية الاسم وحركة الفعل. وعليهما تنعكس جوانب من جماليّات النصّ القرآنيّ. كما أنّ لغة إمكانات إضافية رديفة تسهّل عمليّات الاتّصال بالآخرين؛ فللقراء وللخطباء الجيدين وللممثلين الممتازين دراية متقدّمة في فنّ مخاطبة

الجمهور؛ لا سيّما من حيث التلويّنات الصوتيّة المعبّرة عن المعاني أو المفسّرة أو المصوّرة لها؛ فضلا عن أنّ هناك تعزيزًا للتعبير الصوتي بالحركات والنبرات ودرجات الصوت وإيقاعه. وتعدّ هذه الاعتبارات التعبيريّة عوامل مساعدة، وأحياناً رئيسية، لا سيّما حين تتسم الكلمة أو العبارة بتعدديّة الدلالة؛ وهو ما يَصوّر الأفكار والهواجس النفسيّة بدقّة أوضح.

وللخطاب لغة تعتمد البنية الإفراديّة التي تقوم على إحصاء الأسماء والأفعال بأنواعهما، أو تعتمد البنية التركيبيّة وعناصرها والكلمات وروابطها، والحركات الصرفيّة والنحويّة؛ حيث يتشكّل النصّ من نسيج الخطاب، وطبيعة الأسلوب وخصوصيّته، أو من شبكة العناصر الألسنيّة.

وعلى مستوى المفردات، فإنّ للألفاظ دلالة ذهنيّة؛ فهي تدلّ على المعاني، واختلاف الأسماء عند اختلاف التصورات الذهنيّة يدلّ على أنّ مدلول الألفاظ هو الصورة الذهنيّة لا الأعيان الخارجيّة^(١). من هنا كانت تصويريّة الاسم، وحركيّة الفعل. أمّا المشتقّات، فبعضها يجمع بين التصوير والحركة.

يُذَكّر أنّ الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ/ ٧٩٠م) حاول أن يربط بين اللفظ ومدلوله، فوضع نظريّته التي أطلق عليها: «إمساس الألفاظ بأشباه المعاني»... أو «سوق الحرف على سَمَت المعنى المقصود». ومن الأمثلة التي استشهد بها (الخليل) على وجود العلاقة الطبيعيّة بين اللفظ ومدلوله قولهم: «صَرَ الجُنْدُب، وصرَّصر الأخطب "البازي" صرَّصره، كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدًا، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعًا»^(٢). فالحركة والسكون هما المفتاحان للذات فكّ (الخليل) بهما مغاليق اللغة، لا سيّما في وضعه علم العروض.

١- ينظر الرازي، التفسير الكبير: ٢٣ / ١.

٢- ينظر: ابن جني، الخصائص: ١٥٢، ١٥٥، ١٦٢.

مفهوم الجمال وجماليات الحركة التصويرية:

إذا كانت الحركة تعني الحياة، وأن الحياة تعني الجمال فلا بد أن توطر دراسة موضوع الحركة من الوجهة الأدبية، بما يقدمه الجمال من القيم والسّمات.

لقد نبّه القرآن الكريم في آيات كثيرة على النظر في إبداع الله تبارك وتعالى في الكون والطبيعة وفي النفس الإنسانية، على أنها من آيات الله جلّ جلاله، ودعا إلى الاعتبار بها والتمتع بمظاهرها الجمالية. من جهة أخرى فقد عدّ الطهارة شرطاً في أداء بعض الفروض كالصلاة، كذلك حثّ على النظافة، وكلّ هذا يودّي إلى تقويم عناصر الجمال في الإسلام وتثمينه على ضوء المقياس الأخلاقيّ المنبثق من العقيدة والشريعة في الإسلام.

وردت كلمة «جمال» في القرآن الكريم اسماً ووصفاً، ومرادفاتها «الحُسْن» و«الزينة»، وغلب ورودها على مستوى الجذر. فقد وردت مفردة «جمال» مرّة واحدة في القرآن الكريم. وعلى مستوى الجذر «ج م ل» (١١) مرّة. ووردت مفردة «جميل» ٧ مرّات^(١)..

- قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حَيْثُ تَرِيحُونَ وَحَيْثُ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦).

ووردت كلمة «حُسْن» مفردة (١٣) مرّة^(٢)، وعلى مستوى الجذر «ح س ن» (١٩٤) مرّة.

- ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَغَابِ﴾ (آل عمران: ١٤).

ووردت لفظة «الزينة» في القرآن الكريم مفردة (١٩) مرّة، وعلى مستوى

١- الحجر: ٨٥، المزمّل: ١٠، المعارج: ٥، الأحزاب: ٢٨، ٤٩، يوسف: ١٨، ٨٣.

٢- البقرة: ٨٣، آل عمران: ١٤٨، ١٩٥، الكهف: ٨٦، الرعد: ٢٩، النمل: ١١، العنكبوت: ٨،

الشورى: ٢٣، الأحزاب: ٥٢، ص: ٢٥، ٤٠، ٤٩.

الجذر «زي ن» (٤٣) مرّة^(١).

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف: ٤٦)^(٢).

التزيُّن: «تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة، وقيل: الزينة بهجة العين التي لا تخلص إلى باطن المرين، ذكره (الحرالي). الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله لا في الدنيا ولا في الآخرة»^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «زَيُّنُوا أَسْوَاتِكُمْ بِالْقُرْآنِ»، والمعنى: أشغلوا أصواتكم بالقرآن، والهجوا بقراءته، واتخذوه زينة وشعاراً. ولم يرد تطريب الصوت به والتحزين له... وقوله: «لَيْسَ مِنْهُ مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ»، إنما هو: أن يلهج بتلاوته كما يلهج الناس بالغناء والطرب عليه، وإلى هذا المعنى ذهب (ابن الأعرابي)^(٤).

وعن الجمال الإلهي، يُذكر أن الجمال - في المنظور الإسلامي - يقوم على مقياس أخلاقي، وهو أحد الطرق المُقَرَّبَة إلى الله جل جلاله سواء ما تجلّى من ذلك الجمال في مظاهره المادّية أم الروحية. فقد خلق الله جل جلاله الإنسان مزوداً بعوامل الاستجابة لكل ما هو منسجم ومتناسق. وقد ورد في المأثور عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ»^(٥). و«لَمَّا كَانَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾»^(٦)، فإنَّ جماله (ليس كمثله شيء) أيضاً، فهو المتميّز والمنفرد بجماله لا شريك له فيه ولا نظير.

والجمال الإلهي هو الجمال المطلق الأبدي السامي^(٧) «الذي لا يتغيّر بتغيّر

١- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (جميل) ص ١٧٧، (حسن) ٢٠٢، (زينة) ٢٣٦.

٢- تنظر: الأعراف: ٢٢، الكهف: ٢٨، ٧، يونس: ٨٨، طه: ٨٧.

٣- المناوي، التوقيف على مهمات التعريف: ١/ ٣٩٢.

٤- ينظر: الخطابي، غريب الحديث: ١/ ٣٥٧-٣٥٨.

٥- الخطابي، المصدر نفسه ١/ ٤٦٧.. والزمخشري، الفائق في غريب الحديث ١/ ٢٢٦..

٦- الشورى: ١١.

٧- د. قيس إبراهيم مصطفى العكيلي، السّمات الجماليّة في القرآن الكريم، ص ٥٩.

الظروف والأحوال، والذي لا يختلف باختلاف الزمان والمكان، والذي يكون علة لكل جمال مشاهد على الأرض»^(١).

وقد أكد الإسلام وعي قوانين الجمال المستنبطة من القرآن الكريم في ضوء المنهجية العلمية من أجل تكوين مفهوم إسلامي للجمال، من خلال تحديد مساراته ومسارات الإبداع في ضوءه، وعند إنجاز هذه المهمة (مهمة بناء المفهوم) سنرى أن أرقى درجات الجمال في وحدة الخلق منسجماً منطقيًا مع عظمة قدرة الله جل جلاله، بمقتضى هذا النظام يمكننا أن نتيين وندرك الأشياء في صور مواد أو خصائص أو علاقات أو أحداث.

من سمات الجمال في المنظور القرآني:

١- الوحدة:

تعدُّ الوحدة، بدلالاتها العامة في المنظور الفني، شرطًا مهمًا في توفير عناصر الجمال على مستوى الظواهر ومستوى المنجزات. وفي الإسلام تأكيدات للوحدة في كثير من المجالات.. فالله تبارك وتعالى واحد لا شريك له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ (٢) لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ (٣)﴾ (الإخلاص: ١-٤) والإسلام دين التوحيد.. يدعو إلى الاعتصام بحبل الله جميعًا^(٢)، والأمة واحدة^(٣)، والقبلة في الصلاة واحدة^(٤) والحج إلى كعبة واحدة؛ فالوحدة مظهر مهم من مظاهر الإسلام، وفي تصوّره للكون والحياة. وهي عنصر من عناصر الجمال في الإسلام لأنها تمنح الرؤية أبعادًا شمولية غير مُجزأة فينظر إلى الأمور على أنها متكاملة.

١- أميرة حلمي مطر، فلسفة الجمال، ص ٧٨.

٢- تنظر: آل عمران: ١٠٣.

٣- تنظر: الأنبياء: ٩٢، والمؤمنون: ٥٢.

٤- تنظر: البقرة: ١٤٤، ١٥٠.

٢-التنوع:

إنّ مفهوم «الوحدة» لا يتعارض مع مفهوم «التنوع»، فالتنوع لا يعني التعارض، وإنما يعني التشكيل في المكونات؛ الأمر الذي يمنح الظواهر والمظاهر زوايا نظر متعدّدة، وألواناً وطعوماً ومذاقات متغيرة لكنّها مستساغة:

قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (فاطر: ٢٧).

فهذا التنوع في ألوان الثمار والجبال يُعدّ في التقويم الجماليّ آية من آيات بديع صنع الله تعالى، تسترعي النظر على مستوى المتعة والعبرة.

٣-الإيقاع:

هو انسجام في مفردات التكوين يثير في النفس الإنسانيّة مكامن التدوّق الجماليّ. ولإيقاع فاعليّة لا سيّما في الدائرة الحسيّة، كما أنّها تلقي بظلالها على الجوانب الاعتباريّة والمعنويّة. فالإيقاع في حركة الكون، كما هو في نبض القلب وفي كلّ مرفق جماليّ في الوجود والحياة.

والإيقاع في القرآن الكريم يتأتّى من روافد متعدّدة، منها ما يتعلّق بالتلاوة باعتبارها مظهرًا صوتيًّا، فالتناسق في طول الآيات وقصرها، وفي الوصل والقطع، وفي أماكن الوقف تشكيلات إيقاعيّة بديعة في انسجاماتها بعامة.. غير أنّ الإيقاع الصوتيّ المباشر يتجلّى في فواصل الآيات فضلا عن مفاصلها. وهناك ترابط وثيق بين العناصر الموضوعيّة للجمال وبين قانونيّ الإيقاع والعلاقات.

ويقوم الإيقاع على النظام.. والتغيّر.. والتساوي.. والتوازي.. والتوازن..

والتلازم. . والتكرار^(١).

٤- التكرار:

التكرار ملمح جماليّ، وهو شكلٌ من أشكال الإيقاع، يشاركه في أنّ كلا منهما يقوم على الحركة والسكون، أي: على قطع الحركة ثمّ استئنافها، أما وجه المغايرة بينهما فيتمثّل في أنّ وحدات التكرار تكون متشابهة، ولا يُشترط التشابه في وحدات الإيقاع. ويلاحظ التكرار في كثير من ظواهر الكون والطبيعة والإنسان. فالسنوات، والفصول، والليل والنهار . . . ومواسم الخضرة، وتوالي الإنبات وتوالد الحيوان . . . وتعاقب الأجيال بالنسبة للبشر، ودقات القلب ودورة الدّم . . . كلّ ذلك وغيره كثير يُعدّ من مظاهر التكرار.

وفي القرآن الكريم يرد التكرار في آية معيّنة، كما في سورة «الرحمن» فيضفي على التعبير جماليّة، أحد ملامحها توقّع المتلقّي وانتظاره للوحدة المتكرّرة، ويرد في مفردة واحدة:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾
مِنْ سِرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ (الناس: ١-٤).

فقد تكرّرت كلمة «الناس» خمس مرّات في فاصلة ستّ من الآيات. ولعلّ مبعث مغايرة الفاصلة في الآية الرابعة يعود إلى أسباب وحكم، وقد عوّض عن تجانس الفاصلة بإيقاع داخل الآية «الوسواس/ الخنّاس». ومثل هذا التكرار أكثر من أن يحصى في مثل هذا المبحث. ويذكر أنّ محمود بن حمزة بن نصر الكرمانني له كتاب «أسرار التكرار في القرآن»^(٢).

١- عن الإيقاع ينظر: د. عزّ الدين إسماعيل، الأسس الجماليّة في النقد العربيّ، ص ١٢٠-١٢١.
- وعن الإيقاع في القرآن الكريم ينظر: محمد الحسنّاوي، الفاصلة في القرآن، فصل ٢، ص ٢٣٢-٢٠١.

٢- تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، ط/ ٢، القاهرة، ١٣٩٦هـ.

ه- التوازن:

التوازن يعني تكافؤ عنصرين أو أكثر في إطار وحدة معينة.. وللتوازن دلالة ترتبط بالعدل، غير أن التوازن في القرآن الكريم يأخذ شكلاً آخر أيضاً، يتجلى صوتياً في الفقرات:

قال تعالى: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥). يلاحظ التوازن في الفقرات من حيث تكرار التركيب اللغوي، ومن حيث تساوي أطوالها.

٦- التناسق:

هو التناسب بين أجزاء الشيء الواحد، بشكل يبعث على الارتياح. إنه الانسجام الجزئي في الوحدة الكلية، ومن هنا يُعدُّ التناسق من أهم ملامح الجمال.

وفي القرآن الكريم يأخذ التناسق أشكالاً متنوعة، ونكتفي بالإشارة إلى صورة الإنسان كما رسمتها الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَكَ رِيكَ الْكَرِيمِ﴾ (٦) ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَّلَكَ﴾ (٧) في أي صورةٍ ما شاءَ رَبُّكَ ﴿ (الانفطار: ٧-٨).

هذا التعاقب المتسلسل: الخلق، التسوية، التعديل.. ثم هذا التركيب التصويري الذي أبدعته القدرة الإلهية، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ (١) .. إنه التناسق في الأعضاء والمكونات، ممّا قد منح قوام الإنسان جمالاً متميّزاً بين الكائنات من مخلوقات الله تبارك وتعالى.

٧- التباين:

التباين هو المغايرة بين الأشياء.. والتباين قد يقوم على التقابل أو على

١- الملوك: ٢.

التضادّ وقد يقوم على النقلة المباشرة، فيكون مبعثاً للحركيّة فضلاً عن الجماليّة. وقد يؤدّي التباين إلى ضرب من الصراع الداخليّ، فتبدو قيمة الشيء مقايسةً بصدّه داخل الوحدة أو التكوين. فأثر النور يبدو بمقارنته مع أثر الظلمة مثلاً:

قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١). فالنور هنا رمز الهداية والصلاح، وبهما تكون الاستقامة (استعارة تصريحية)، ويتهيأ القضاء على ظلمات الشرك والانحراف.

٨- الإلتقان:

هو تمام الصنع وكماله. وإتقان صنع الله تبارك وتعالى لا يقتصر على الخلق المادّيّ فحسب، وإنما هو كائن في كلّ الكائنات بما فيها الروح وما شاكلها من عوالم الغيب التي أخبرنا القرآن الكريم عنها. ذلك أنّ الله أتقن كلّ شيء:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النمل: ٨٨) فالإلتقان مظهر جماليّ، وإن لم يبدُ للعيان..

إنّ وظيفة الجمال تتّضح من خلال تأمل الأحياء، متنوّعة الأشكال والأحجام، والأصول والأنواع، والخواصّ والألوان، مع أنّها خارجة من أصل واحد؛ وهو ما يوحي بالتدبير والتقدير، وينفي فكرة المصادفة العمياء. فالقرآن الكريم يؤكّد حقيقة أنّ الله جل جلاله هو الصانع الحكيم: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: ٥٠).

والجمال في الكون وراءه قصد وتصميم، فمن عناصر الجمال: التناسق، والتناظر، والتناغم في الأشكال والألوان والأصوات، وهي تتكوّن من نسب

مُقَدَّرَةٌ خاضعة لناموس ثابت أحكمته لتكوين الجميل ... وعليه كان من كمال هذا الجمال أن الأشياء تُؤدِّي وظيفتها عن طريق جمالها، فهذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصّة التي تفوح.. ووظيفة توجه النحل والفراش إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح، لتنشأ الثمار. وهكذا تُؤدِّي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها... والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه، لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان. وهكذا تتمّ الوظيفة عن طريق الجمال^(١).

«وهناك المعطيات الجماليّة التي تعلّم الإنسان، حسّاً وحدساً وعياناً وروحاً ووجداناً، قدرة الله وأمداءها التي ما لها من نفاذ ... وينبثق عن هذه المعطيات وتلك القوانين، طبيعيّة وجماليّة: الصوت والضوء، ومواد خام من طين وحجارة.. إلخ، تلك التي أتاحت للإنسان أن يصنع فنّه على مدى الأجيال مستغلاً خامات الطبيعة وقوانينها لبعث الصور والألحان والقصائد والحركات التعبيريّة والعمارات. فالطبيعة هي المعلّم وهي الخادم.. تعلّمه بآياتها الجماليّة...»^(٢).

وقد سعينا في هذا الكتاب إلى أن نبرز مظاهر الحركة في العديد من العوالم وأنواعها وتجلياتها، مع عقد مباحث للحديث عن الحركة التعبديّة وأبعادها الجمالية. وهو بحث طريف يخدم المنهج البياني والفني في إدراك جماليات الخطاب القرآني، مع الاستناد إلى جهود المفسرين في الموضوع؛ وهو ما يجعله لبنة في ذلك البناء المتكامل.

والله من وراء القصد.

١- ينظر: سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٦/ ٦٩٨.

٢- د. عماد الدّين خليل: الطبيعة في الفنّ الغربي والإسلامي، ص ٤٩.



الفصل الأول
التكليف المحرري في القراءات الكريم



مدخل:

في هذا الفصل المَعنُون «بالتشكيل الحركي في القرآن الكريم» سنتحدث عن طبيعة الحركة وصورها وجماليّاتها الفنيّة في أربعة محاور تتعلّق بالحركة من حيث: اتّجاهاتها، أشكالها، انسيابيّتها، وسائل تلقّيها.

في المبحث الأوّل سنتناول الحركات: الصاعدة والهابطة.. المقبلة والمدبرة.. الجانبية والانتشارية.. والمركّبة، ويذكر أنّ ما يوحد محاور المبحث الأوّل كون الحركات فيه تغلب عليها صفة الاستقامة.. وفي المبحث الثاني سنتناول الحركات: الدائرية.. والموجية.. والاهتزازية، ويذكر أنّ ما يوحد محاور المبحث الثاني كون الحركة خارجة عن الخط المستقيم..

وفي المبحث الثالث سنتناول انسيابية الحركة: بشكليها: المستمرة.. والمتكرّرة. وفي المبحث الرابع سنتناول الحركتين: البصريّة والسمعيّة باعتبار أنّ العين والأذن من أهمّ وسائل التلقّي والاتّصال بالبيئة والمحيط.

المبحث الأول

اتجاهات الحركة التصويرية

أولاً- الحركة الصاعدة:

بما أن الحركة هي انتقال أو تغيير بالمكان؛ فإن هناك ترابطاً بين المسافة التي يقطعها الجسم وبين الزمان الذي يستغرقه؛ وهو ما يحفزنا إلى اتخاذ الزمان مُتغيّراً يتمتع باستقلالية خاصة. وبناءً على ذلك؛ فإن الحركة الصاعدة والحركة الهابطة من خلال ما يَصور الفعل اللغوي ترتبطان بالزمان أيضاً.

تؤكد جدلية الصعود والهبوط أنه ما لم يكن ما هو تحت لم يكن ما هو فوق.. وما لم يكن ما هو فوق لم يكن ما هو تحت. وفي النقلة «من» و«إلى» تتشكل المسافة، فإن كان بُعدها: «الأرض/ فالسما»؛ كان المسار صعوداً.. وإن كان بُعدها: «السماء/ فالأرض» كان المسار هبوطاً.. ومن كلا المسارين تتألف جدلية: «الصعود» و«الهبوط»؛ أو «الفوقية» و«التحتية». وعليه فإن الحركة وبضمنها هذان المساران، إنما هي سُنّة من سنن الوجود، تخضع لمنظومة من القوانين الصارمة والمُحكّمة والمطرّدة، وإلا كانت الحركة عشوائية تتصادم في فوضى.. وتتبدّد مع الطاقة.. وتنتهي بالفساد والدمار.

إنّ للحركة الصاعدة نحو الأعلى بشكل عامّ دلالة توحى بالروحانية.. أو بالسلطة.. والقوّة.. أو بالعزّة.. والأنفة.. والشموخ.. والطموح. من جهة أخرى قد توحى بالتكبر والتجبر. فالمعاني الأولى ترتبط بالسمو أو التسامي.. والمعاني الأخر تعكس التعالي والعنجهية. سواء أكانت الحركة معبرة عن أفكار ذهنية تخيلية أم مادية حسية، على اعتبار أن الحركة هي بمثابة حقيقة نفسية داخل الشعور، أو هي حقيقة فيزيائية تحدث في العالم الخارجي.

وبما أنّ الحركة المادّية تحدث في «الحيز/ المكان» فهي إذن نسبيّة؛ وعليه فلا بدّ من مرتكز يُعتمد في ملاحظة الحركة أو قياسها أو فاعليتها. وقد يُعتمد مجموع العناصر التي يتضمّنُها مشهد ما في رصد الحركة وتقويمها. وقد يكون للمشهد إطار يؤثر في دلالة الحركة؛ لا سيّما إذا كانت الحركة صاعدة؛ حيث إنّها قد تبدو شاهقة؛ وهو ما يُريح الرائي أو الراصد في النزوع نحو الأعلى، أو يحقّق له الرغبة في التسامي أو العظمة، أو على الأقلّ يحقّق له جزءا من ذلك. وعلى هذا؛ فإنّ تحرّك الجزء الداخلي يُصعد نوعيّة التكوين الفنّي؛ باعتباره كُلا يعكس عليه التغيير بشكل عامّ.

وتتضمّن العظمة معاني الجلال أكثر ممّا تعكسه من القيم الجماليّة؛ لأنّ الحركة بالاتّجاه العموديّ تتطلّب جهداً أقوى وأقسى وأعنف من الجهد المبذول في الانحدار أو الهبوط. وعلى العموم؛ فإنّ الحياة لا سيّما إذا تمثّلت بعنفوانها تختار الحركة الصاعدة لمقاومة الجذب إلى الأسفل؛ حيث الخلود إلى السكون الذي يتشكّل قطباً مضاداً للحركة، ويوحى بالموت في مقابل الحياة.

«أسماء الله الحسنى»^(١) كما وردت في المأثور تسع وتسعون، وهي، في المنظور اللغويّ، أسماء أو صفات. منها ما يدلّ على العلوّ: «الأعلى»^(٢).. «العليّ»^(٣).. «المتعال»^(٤). ومن الآداب المرعيّة أن نقرن لفظ الجلالة بالوصف: «تعالى» أو ما من شأنه أن يدلّ على السموّ والتعظيم^(٥). ويمكن أن نُلقح بهذه المجموعة: «الرافع»^(٦)، و«القيوم»^(٧). إنّ صفة «العلوّ» بالنسبة

١- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ١، ١٠٧، ١٧٣.

٢- تنظر: الأعلى: ١، والليل: ٢٠.

٣- تنظر: لقمان: ٣٠، البقرة: ٢٥٥، الحجّ: ٦٢، سبأ: ٢٣.

٤- تنظر: الرعد: ٩.

٥- تنظر: الإسراء: ٤٣، طه: ١١٤، النمل: ٦٣، الزمر: ٦٧.

٦- تنظر: آل عمران: ٥٥.

٧- تنظر: البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢، طه: ١١.

لله تبارك وتعالى يجب ألاّ تفهم بمعنى العلويّ في الجهة أو بها.. وإنما هو «علوٌّ» بمعنى كمال القدرة والتقرّد بالتخليق والإبداع.. «وبما لأجله يستحقّ الحمد والثناء والتعظيم»^(١).. وينزّهه تعالى عن كل مظاهر التجسيم.

لقد حثّ القرآن الكريم على التطلّع إلى السماء؛ وعلى التأمّل في ملكوت الملائ الأعلى؛ ففي ذلك «تبصرة وذكرى»: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦).

نلاحظ أنّ النصّ القرآنيّ قد حدّد جهة الحركة البصريّة «السماء»، مؤكّداً على الموقع «فوقهم»، ومشيراً إلى كميّة حركة بناء السماء وتوفير عناصر الجمال بتزيينها. ذلك أنّ من مواصفات الإبداع الإلهي: الإحكام والجمال، ويتشكّلان قطبين، يوثّق التأمّل في محورهما الاطمئنان إلى القدرة التي شيّدت هذا البناء الشامخ في علوه، والمتوسّع بأبعاده في حركة دائمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

ففي هذا النصّ ذكر للفاعل «نا» التي هي للتعظيم والعائدة إلى الله سبحانه وتعالى؛ والأداة «أيدٍ» بدلالاتها المجازيّة، والمدى السماويّ المستقبليّ الكون الذي تؤوّل إليه حركة التوسيع.

(والطير في جوّ السماء) يقدّم لنا بيانات إشاريّة توثّق العالم الحقيقيّ الكامن وراءه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَيَقِضْنَ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ (الملك: ١٩)^(٢).

الطرف «فوق» هنا يشير إلى الفضاء، والتطلّع إلى الأعلى يوقفنا أمام معاني العظمة.. والقوّة.. والجلال. وبذلك يتوازى جمال بناء السماء وجلال إحكامه.. أمّا المكوّنات (الشمس والقمر والنجوم...) فلها دور كبير

١- الرازي، التفسير الكبير ٨: ٦٨-٦٩، ٣١: ١٣٨، ١: ١٤٤-١٤٥.

٢- تظفر: النحل: ٧٩، النور: ٤١.

في تحديد الحركة الكونية ومساراتها الصاعدة، وهي المحضّر لتنظيم الفكر الإنساني؛ وصولاً إلى الاقتناعات الإيمانية بعظمة الإبداع الإلهي من خلال ثقافة متواضعة لكنها واعية.. ودليل العناية يُبنى على النظر العقلي، ليقف العقل على مدى الدقة في النظام الكوني لترسيخ عقيدة المسلم.

وتطالعنا (لوحات عالية) وأخرى (متعالية)؛ إذ قد ترد الحركة الصاعدة في القرآن الكريم إما على أنها ظاهرة إيجابية محمودة، مثل صعود الملائكة إلى الملأ الأعلى.. ومثل معجزة «الإسراء والمعراج».. و«رفع (عيسى عليه السلام)».. و«صعود الكلم الطيب ورفع العمل الصالح». وإما على أنها ظاهرة سلبية مردودة مثل تعالي (فرعون) ومحاولته المزعومة الاطلاع إلى إله (موسى عليه السلام).. ومثل تعالي الآلهة بعضهم على بعض كما فنّدها القرآن الكريم.. وسنحاول فيما يأتي أن نقف مع صور ولوحات لكلا النوعين، في مجاميع صورية تتنظمها مواد لغوية لها قيمها النصّية والدلالية والسياقية؛ وقد وقع اختيارنا على الأفعال: «علا»، و«صعد»، و«رَفَع»، و«عَرَج».

من خلال الفعل «علا»؛ تطالعنا (لوحة تسابق الآلهة)، في سياق تأكيد نفي تعددها: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩١).

فلو كان هذا «التعالي» الذي فنّده الآيه الكريمة واقفاً لنَجَمَ عنه تصادم يحصل في تصرّفات الآلهة المتعارضة وسلوكياتها المتقاطعة. ونستشف السخرية في هذه الصورة المنفصلة بالفوضى؛ إذا تخيلنا إلهين: الأول الذي هو «تحت» يصعد فوق الثاني الذي هو «فوق»؛ فيصبح «الفوق» «تحتاً».. ثم تتكرر الحركة: «التحت» يصير «فوقاً».. ثم «الفوق» «تحتاً»... وهكذا دواليك!.. هذا على افتراض الصراع بين إلهين، فكيف إذا كانت الآلهة أعداداً كبيرة؟ إذن ما بعد هذه الفوضى من فوضى!

ومن أساليب القرآن الكريم الاستدلال بالجدل والمناظرة والمُحاجّة،

ومن هذا الاستدلال: التسليم. والتسليم هو أن يُفرض المحال، إمّا منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع؛ لكون المذكور ممتنع الوقوع لامتناع وقوع الشرط. ثمّ يسلم وقوع ذلك تسليماً جدلياً، ويدلّ على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه، و«فرض الهين محال بما يلزم منه المحال»^(١).. وكذلك وجدنا القرآن الكريم يسفّه معتقدات المشركين؛ ليشعرهم داخلياً بالهبوط والانحدار ومن ثمّ بالهزيمة النفسية. وبداهة فإنّ محصّلة ذلك هي الإقناع بعقيدة التوحيد ورجاحة كفتها.

ولمّا كان الجمال انبثاقاً عن الانتظام والتناسق، فإنّ اضطراب الحركة المتخيّلة؛ في عشوائية المسابقة بين الآلهة المزعومة، وفوضويّتها يجسّدان القبح الحركيّ، وقبح العقيدة عقيدة الشرك. ومن ثمّ نفور المشركين منها وإبطالها.

وتطالعنا صورة (التعالى الفرعونى) حيث جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤)، إذ يرسم صورة تسلط الفرد القائم على تفرقة المجموع. فإذا تخيلنا فرقة الناس أو بعثرتهم على سطح الأرض، فإنّ حركة الانتشار السطحية تجسّد الضعف التشتتي.. وفي المقابل يصوّر القرآن الكريم تعالي فرعون. وهذا التعالي يتمثّل في حركة عموديّة صاعدة مفتعلة أو متصنعة؛ تهدف إلى التسلط والهيمنة على الرعية وإذلالها من جهة^(٢)، ومن جهة أخرى فإنّ التعالي ببناء الصرح لبلوغ أسباب السموات يمثل التطاول والاستكبار: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُنْ أَبْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) ﴿أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧)^(٣).

١- السيوطي، الإقناع: ٢ / ١٧٤.

٢- تنظر: النازعات: ١٧، طه: ٢٤، ٤٣.

٣- تنظر أيضاً: القصص: ٢٨.

وتستوقفنا عبارة ﴿زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فالفعل المبني للمجهول «زَيْنَ» يدل على جمالية مغرية. وبنأوه للمجهول يفسح المجال لخيال المتلقي ليخرجه حسب اجتهاده؛ فمجهولية فاعل فعل الزينة مَنَحَتِ الفعلَ صفةً تعددية التخريج.. واقتران الفعل «زَيْنَ» بـ«سوء عمله»، يحيل الجمالية المتوهمة بالمقياس الفرعوني إلى فُبْحٍ واقعي بالمقياس القرآني.. ومثل هذا الجمال يضاف إلى ما يُصطَلَحُ عليه بـ(جمال القبح) !. وهذا يعني أنّ الجمال والقبح نسيبان.

والفرق بين (تعالى الآلهة) في اللوحة السابقة؛ وبين تعالي (فرعون) ، يظهر في أن الأول مُفْتَرَضٌ في مواقع غيبية متصورة أو متخيلة أي: غير منظورة. أما الثاني فواقع أو حادث في العالم المحسوس والمرئي. فقد كان وهْمُ (فرعون) متمثلاً بالتصوّر المادي للألوهية؛ لذا وجدناه يطلب من وزيره (هامان) أن يبني له صرحاً.. ومع ذلك فلم يكن مقتنعاً كلياً من صنعته، وذلك واضح من الصيغة الاحتمالية في قوله: «لَعَلِّي». وتتجلى الحركة الصاعدة في محاولة بلوغ الأسباب؛ أسباب السماوات حيث النزوع الحركي نحو الأعلى.. من هنا كان (فرعون) حريصاً على أن يري الناس رأيه، في محاولة تمييع لشخصياتهم وغسل أدمغتهم: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ (غافر: ٢٩).

وخداغ (فرعون) للمستضعفين إنما كان طمعاً في إقناعهم بتأليهه؛ ذلك أن كل ترفع متصنع على الله، وكل استكبار على الناس لا بد أن يكون حصاده السقوط والدمار.. وثنائية «الصعود / والهبوط» في تشاكلها الحركي المتضاد على هذه الشاكلة ترسم خطأ بيانياً منحنيًا ينتهي بالانهيار والاندحار والاندثار^(١).

١- كذلك كان مصير أقوام تجبروا وتكبروا على الله تبارك وتعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُورٍ ﴾ (هود: ٨٢) ، ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ ﴿ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴾ (الحجر: ٧٢-٧٤).

ونمضي مع الحركة الصاعدة في مادة (صعد)، حيث تطالعنا لوحة (صعود الكلم ورفع العمل الصالح)، في قوله تعالى^(١): ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: ١٠).

تشكل الآية معادلة توافقية بين: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ و﴿الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، وفي كلا الطرفين نزوع نحو الأعلى، وهو صعود مرغوب فيه في المنظور الشرعي.

ويتمثل الجمال في التناسق الإيقاعي بين الجملتين اللتين تمثلان طرفي المعادلة.. والملاحظ أن الجملة الأولى تبدأ بفعل مضارع (يصعد) وتنتهي الثانية بفعل مضارع أيضاً (يرفع). مع ملاحظة سبق الأول بضمير المفرد المذكر الغائب (هاء في «إليه»)، وإلحاق ضمير المفرد المذكر الغائب بالآخر (هاء في «يرفعه»). ويتجاوز الاسم مع وصفه في كلا الطرفين (في آخر الجملة الأولى، وأول الجملة الثانية).

يلاحظ أن الضمير المتصل في (إليه)؛ والضمير المستتر في (يرفع) عائدان إلى الله جل جلاله. هذا التوازن الإيقاعي بين طرفي المعادلة يمنح الصورة الحركية صفة التناسق في ازدواجية متناغمة. في حين تمنح فيه استمرارية الفعل المضارع مزيداً من الديمومة للحركة، فضلاً عن احتضان الضمير العائد إلى الله جل جلاله برعايته تصعيد الكلم الطيب، ورفع العمل الصالح إليه.

ولنا أن نعرض بعضاً من أقوال المفسرين في هذا الموضوع:

«معنى قوله «إليه»: إلى محلّ القبول والرضا، وكلّ ما اتّصف بالقبول

١- حول مادة (صعد) تنظر الآيات التالية أيضاً: (آل عمران: ١٥٢، الجن: ١٧، المدثر: ١٧،

النساء: ٤٣، المائدة: ٦، الكهف: ٨، ٤٠).

وُصِفَ بالرفعة والصعود، أو إلى حيث لا ينفذ فيه إلا حُكْمُهُ... والعمل الصالح يرفعه الكَلْمُ الطَّيِّبُ، فالرافع «الكلم» والمرفوع «العمل»... وقيل: الرافع «الله» جل جلاله والمرفوع «العمل»، أي: العمل الصالح يرفعه الله جل جلاله، وفيه إشارة إلى أَنَّ العمل يتوقَّف على الرفع، والكلم الطَّيِّب يصعد بنفسه^(١).

«والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضًا. ولا يُتَصَوَّر ذلك في الكلام لأنه عَرَضٌ. ولكنَّ صعوده ضُرِبَ مثلاً لقبوله؛ لأنَّ موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل»^(٢).

«والرفع: حقيقته نقل الجسم من مقرِّه إلى أعلى منه، وهو هنا كناية للقبول عند عظيم، فيكون كلُّ من (يُصعد) و(يرفع).. قرينتي مكنيةً بأنَّ شُبُه جانب القبول عند الله تعالى بمكان مرتفع لا يصله إلا ما يصعد إليه»^(٣).

ومع لوحة (تصعد الضالُّ في السماء) تطالعنا صورة نفسية تجسد القلق والاحتضار الذي يعاني منه الضالُّون: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُغَيِّرْ صَدْرَهُ، ضَيِّقًا حَرَجًا، كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥) أي: «كأنه كلف أن يصعد إلى السماء إذا دُعِيَ إلى الإسلام من ضيق صدره عنه إذا ضاقت عليه الأرض؛ فطلب مَصْعَدًا في السماء»^(٤).

﴿صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ (مكان مغلق)، والإحساس بالضيق ناجم عن احتباس النفس أو عن تقلُّصات في مجرى التنفُّس؛ وهو ما يهدد بالموت ومفارقة الحياة.. وهذه الكناية تتضمَّن من المعاني ما يوحي باستعارة

١- النسفي، تفسيره ٢/ ٢٣٥.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٤ / ٢٢٩.

٣- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٢٢ / ٢٧٣.

٤- النسفي، المصدر السابق: ٢ / ٢٢.

خَفِيَّةٌ؛ حيث يُفْهَم من السياق أَنَّ هِدَايَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْإِنْسَانَ إِلَى الْإِسْلَامِ
تَعْنِي «الْحَيَاةَ». وَأَنَّ ضَلَالَ الْإِنْسَانَ يَعْنِي «الموت». و«إِذَا حَلَّ نَوْرُ التَّوْفِيقِ فِي
الْقَلْبِ كَانَ الْقَلْبُ كَالْمَتَّسِعِ؛ لِأَنَّ الْأَنْوَارَ تَوْسَعُ مَنَاطِرَ الْأَشْيَاءِ»^(١).

وَإِذَا عَدْنَا إِلَى تَخْرِيجِ الدَّلَالَاتِ الْمُعْجَمِيَّةِ لِكَلِمَةِ (الْحَرْجِ)؛ لِنَسْتَوْضِحِ
الْجَانِبَ الْفَنِّيَّ مِنْ خِلَالِهَا، فَإِنَّ الْحَرْجَ لُغَةً هُوَ مَوْضِعُ الشَّجَرِ الْكَثِيفِ
الْمَلْتَفِّ أَوَّلًا؛ وَهُوَ مَا يَقِيمُ عِلَاقَةَ دَلَالِيَّةٍ وَتَصْوِيرِيَّةٍ بَيْنَ حَسِّيَّةِ الشَّجَرِ وَتَشَابُكِ
أَغْصَانِهِ، وَبَيْنَ مَعْنَوِيَّةٍ تَزَاحِمُ الْهُوَاجِسَ الْقَلْقَلَةَ فِي صَدْرِ الضَّالِّ.. وَالْحَرْجُ
لُغَةً: النَّاقَةُ الْهَزِيلَةُ ثَانِيًا؛ وَهُوَ مَا يَقِيمُ عِلَاقَةَ دَلَالِيَّةٍ وَتَصْوِيرِيَّةٍ بَيْنَ حَسِّيَّةِ
مَظْهَرِ الْحَيَوَانَ الْهَزِيلِ وَمَعْنَوِيَّةِ وَضْعِ الضَّالِّ النَّفْسِيِّ الْمَرِيضِ.. وَالْحَرْجُ لُغَةً:
النَّعْشُ الَّذِي يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْمَوْتَى ثَالِثًا؛ وَهُوَ مَا يَقِيمُ عِلَاقَةَ دَلَالِيَّةٍ وَتَصْوِيرِيَّةٍ
بَيْنَ حَسِّيَّةِ النَّعْشِ وَمَعْنَوِيَّةِ مَوْتِ الضَّالِّ فِي الْحَيَاةِ مِنَ الْوَجْهِةِ الْعَقْدِيَّةِ^(٢).
«وَإِتْبَاعُ «الضِّيْقِ» بِ«الْحَرْجِ» لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الضِّيْقِ؛ لِأَنَّ فِي الْحَرْجِ مِنْ مَعْنَى
شِدَّةِ الضِّيْقِ مَا لَيْسَ فِي ضِّيْقٍ»^(٣).

وَيَتَمَخَّضُ جَمَالَ التَّعْبِيرِ عَنِ تَوَازِي الْجَمَلَتَيْنِ، حَيْثُ يَتَأَلَّفُ كُلُّ مِنْهُمَا مِنْ
(شَرْطٍ وَجِزَاءٍ)؛ وَبِذَلِكَ تَصْبِحُ الْمَعَادِلَةُ التَّعْبِيرِيَّةُ مُرَكَّبَةً: فَ«يُرْدُ» شَرْطٌ
يَتَكَرَّرُ فِي الْجَمَلَتَيْنِ.. كَذَلِكَ تَكَرَّرَ كَلِمَةُ «صَدْرٍ»؛ وَهُوَ مِمَّا يُوَثِّقُ الْعِلَاقَةَ
التَّرْكِيبِيَّةَ بَيْنَ الْجَمَلَتَيْنِ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ هَذَا التَّرَابُطِ اللُّغَوِيِّ بَيْنَ الطَّرْفَيْنِ فَإِنَّ
الْفُحْوَى صُورَةَ «شَرْحِ الصَّدْرِ» وَ«جَعْلِهِ ضَيْقًا» عَلَى النَّقِيضِ.

وَتَتَوَفَّرُ الْجَمَلَتَانِ الشَّرْطِيَّتَانِ عَلَى تَضَادِّ تَقَابُلِيٍّ (هُوَ بِمَقَامِ اللَّحْمَةِ) بَيْنَ
«يَهْدِيهِ» وَ«يُضِلُّهُ»، وَ«يُشْرِحُ صَدْرَهُ» وَ«يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيْقًا»؛ فَضِلَالٌ عَنِ التَّوَافِقَاتِ
اللُّفْظِيَّةِ الْمُتَأْتِيَةِ مِنَ التَّكَرُّارِ (وَهِيَ بِمَقَامِ السَّدَاةِ)، وَذَلِكَ فِي «مَنْ» وَ«يُرْدُ»
وَ«أَنْ» وَ«صَدْرَهُ».. وَبِهَذَا التَّنَوُّعِ تَكْتَسِبُ الصُّورَةُ حَرَكَةَ نَسِيجِيَّةٍ دَاخِلِيَّةٍ.

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٥٨ / ٨.

٢- حول معاني «الخرج» ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٨١ / ٧.

٣- ابن عاشور، المصدر السابق: ٥٩ / ٨.

إنَّ أحدَ مظاهر إعجاز القرآن الكريم يتجلّى في أسلوبه الذي تتشاكل في نسيجه أسرار كامنة في نظام أسنّي يتّصف بديمومة الجِدّة الخاصّة به؛ وهي تتلبّس تراكيب النّص؛ فتستشفّها الذائقة الأدبيّة المتبصّرة للوهلة الأولى، لا سيّما ما يتعلّق بالبنية الكامنة داخل الشكل، والتي يشكّل التضادّ واحداً من عناصرها المهمّة؛ ذلك أنّ الثنائيات المتضادّة تكشف عن محورين: الأوّل إيجابيّ ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ يعتمد التواصل مع المتلقّي، في حين يهدف المحور الثاني السالب ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ إلى الانقطاع عنه. في الأوّل جَذَبٌ دَعْوِيٌّ يتجلّى في الترغيب (الهداية) وشرح الصدر للإسلام)، وفي الثاني تنفير؛ يتجلّى في الترهيب (الضلال) وجعل الصدر ضيقاً حرجاً). وتتضافر فاعليّة المحورين (الترغيب/ والترهيب) من أجل تحقيق غاية مشتركة يوحدّها هدف سام. يقول القرطبي: «شبهه الله الكافر في نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه، كما أنّ صعود السماء لا يطاق... معناه: يتكلف ما لا يطيق شيئاً بعد شيء. كتولك: يتجرّع ويتفوّق... والمعنى: «أنّ الكافر من ضيق صدره؛ كأنه يريد أن يصعد إلى السماء؛ وهو لا يقدر على ذلك»⁽¹⁾.

إنّ العبارتين اللتين تشكّلان طرفي المعادلة المتقدمة (شرح الصدر X جعله ضيقاً) إنّما هي تمهيد ضديّ لصورة تشبيهيّة ثالثة. وهذه الصورة الثالثة تستوقفنا أيضاً.. حيث تتمحور حول الفعل «يَصْعَدُ» أو يَصَاعَدُ؛ ولتضعيف الصاد فاعليّة حركيّة وتصويريّة بالغة الأهميّة؛ حيث جعلت صيغة الفعل تدلّ على تقطيع الحدث وتعاقبه.

١- وكذلك (يَصَاعَدُ)؛ أصله: يتصاعد، أدغمت التاء في الصاد وهي قراءة أبي بكر والنخعي. وفي صيغة (يتفاعل) معنى فعل الشيء بعد الشيء، وذلك أثقل على فاعله. وقرأ الباقون بالتشديد من غير ألف (يَصْعَدُ) والتضعيف في هذه الصيغة يدلّ على تكرار الحدث وتعاقبه. ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٨٢.

وتصوير حال الكافر على هذه الهيئة تجسّد معاناته، فالفعل «يَصْعَدُ» بدون
تضعيف يعكس حالة مغايرة تماماً، حيث يَصوّر حركة مستمّرة في الصعود
على وتيرة واحدة. قد يكون الصعود إلى السماء أمراً ساراً وبهيجاً، ولطالما
حلم الإنسان بالطيران.. ولطالما رأينا في المنام حالات من هذا القبيل!..

أما تضعيف عين الفعل «يَصْعَدُ».. فإنه يجعل الحركة متقطّعة.. أي: أنّ
الصعود يكون على مراحل متتالية؛ وهنا مكمن العظّمة في التصوير.. فإنّ
قرأنا الآية بتأمل تخيلنا أنّ كلّ عملية شفق تحلّق بالكافر إلى مسافة يحسّ
بها، ثمّ يتوقّف الصعود مع انحباس النفس. ثمّ يحاول أن يشفق ثانية؛
فيتواصل التحليق في مرحلته الثانية، وهكذا دواليك.. ولعلّ في الآية إشارة
غير مباشرة إلى أنّه كلّما زاد الارتفاع في السماء قلّ الضغط الجويّ وكميّة
الأوكسجين؛ ممّا يؤدي إلى ضيق أكثر في التنفس.

ويمكن اعتبار أحد أهمّ العناصر الجماليّة في هذا التشبيه التمثيليّ
أو في هذه الصورة التشبيهيّة ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أنّها تُعزّي إلى
المعطى الصرّي؛ متمثلاً بتضعيف صوتي: الصاد والعين. بعكس ما يَصوِّره
الفعل «يَصْعَدُ» في حالة التخفيف تماماً. أي: أنّ هذا الفعل بالتخفيف يوحي
بالسرور والبهجة، وبالتضعيف يدلّ على الخوف والرعب^(١).

ونمضي مع الحركة الصاعدة في مادّة (رفع)؛ حيث نقرأ قوله تعالى:
﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ﴾ (الرعد: ٢).

ورد ذكّر (رفع السماوات) في أربع آيات.. وبما أنّ المفهوم المادّي للرفع
يعني: النقلة المكانيّة من مستوى إلى آخر أعلى منه؛ فإنّ تساؤلاً يخامر
مخيلتنا، مفاده: هل كانت السماء منخفضة عن مستواها الحاليّ؟ وبالنسبة

١- تظنر أيضاً: آل عمران: ١٥٢، الجن: ١٧، المدثر: ١٧، النساء: ٤٢، المائدة: ٦، الكهف: ٨، ٤٠.

إلى الأرض؛ هل كانت السماء منطبقة عليها في عصر من العصور السحيقة
أول تكوين الأرض؟.. وحين نعود إلى القرآن الكريم نفسه نبحت عن جواب؛
فإننا سنقف عند قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا
وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يَوْمِنُونَ ﴿الأنبياء: ٣٠﴾.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ
وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿الحج: ٦٥﴾.

والذي يعيننا من السماء في هذا المبحث هو جانب (الحركة الصاعدة/
حركة الرفع). وفي معرض حديث القرآن الكريم عن (بني إسرائيل)
يذكّرهم كيف رفع الله فوقهم «الطور»^(١).. ومن الرفع المادّي ما يتمثل في
رفع عيسى عليه السلام إلى السماء^(٢). بينما كان رفع مكان إدريس عليه السلام رفعا
معنويًا^(٣). وكذلك رفع ذكر النبي محمد ﷺ^(٤). ومن الرفع المعنوي: رفع
الناس بعضهم فوق بعض درجات^(٥).

وتفاوت البشر في المستويات (المادّية، والروحيّة، والاعتباريّة) يحدّد طبيعة
العلاقة: بين الإنسان وربّه.. وبين الإنسان والإنسان.. وبين الإنسان ونفسه،
وهذا التفاوت هو أحد سنن الحياة الفطريّة، وليس المقصود منه التمايز
الطبقيّ في العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة.. إذ إنّ الواقع
يثبت أنّ تطابق كليًا بين شخصين مهما توحدت ظروف حياتهما الوراثيّة

١- الطور: جبل رفعه الله فوق (بني إسرائيل) بعد أن عاد (موسى عليه السلام) بالألواح؛ وفي نسختها
التوراة، ثمّ تولّوا من بعد ميثاقهم مدبرين. تنظر: البقرة: ٣، النساء: ٥٤.

٢- تنظر: آل عمران: ٥٥، النساء: ٥٨.

٣- تنظر: مريم: ٥٧.

٤- تنظر: الشرح: ٤.

٥- ورد هذا المعنى في خمس آيات: (الأنعام: ٨٢، ١٦٥، يوسف: ٧٦، الزخرف: ٣٢، البقرة: ٢٥٢).

والبيئية والتربوية والمعاشية. وتبقى مقاييس التفاضل متعددة حسب طبيعة العلاقات ومكوناتها: ﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٢٢). وتبقى (التقوى) على الصعيدين: العَقْدِيّ والتَعْبُدِيّ هي مقياس المفاضلة^(١).

ونمضي مع الحركة الصاعدة في مادة (عرج)؛ حيث تطالعنا سورة «المعارج»، وفي أولها: ﴿ ... مِنْ أَنَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٢﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ (المعارج: ٣ ، ٤)^(٢).

ويؤكد القرآن الكريم في أكثر من موضع أن بعضاً من الكائنات تعرج عبر السماوات بعلمه تعالى إلى حيث يشاء. ومن هذه المخلوقات: الملائكة ومنهم (جبريل عليه السلام)^(٣). ومن المخلوقات الجن^(٤).. ويلاحظ أن ورود «المعارج» بصيغة الجمع تدل على تعدد المسارات والمسالك، أو تعدد مراحل العروج في السماء.. وإذا كانت طبيعة الملائكة تمكنهم من العروج إلى السماء؛ فإن نفوذ البشر عبر أقطار السماوات والأرض في عصر الرسالة كان ضرباً من التعجيز أو الاستحالة بالنسبة للإمكانات البشرية المتاحة آنذاك.. ومع ذلك فقد ترك القرآن الكريم نافذة مفتوحة على التطور البشري في المستقبل^(٥).

وفي سياق تثبيت قلب رسول الله ﷺ وتصبيره على إعراض قومه من المشركين: ﴿ وَإِنْ كَانَ كِبْرُ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَامًا فِي السَّمَاءِ فَتَاتِيهِمْ بِثَاوِيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ (الأنعام: ٣٥).

١- تنظر: الحجرات: ١٣.

٢- تنظر أيضاً: السجدة: ٢٦.

٣- تنظر: سبأ: ٢.

٤- تنظر: الجن: ٨ ، ٩.

٥- تنظر: الرحمن: ٢٣.

ومعنى (سُلِّمًا): أي: سببًا إلى السماء، وهذا تمثيل؛ لأنَّ السَّلْمَ الذي يُرْتَمَى عليه هو سببٌ إلى الموضع.. وقال قتادة: السَّلْم: من السلامة؛ وهو الدرج.

وكما أنَّ الرسول ﷺ لم يكن بمقدوره هديُّ المشركين من قومه، فقد أمره الله جل جلاله بالألَّا يشدَّ حزْنُه عليهم إذا كانوا لا يؤمنون^(١).

وفي إطار ما نصلح عليه بـ(الفوقية والاستعلائية) في القرآن الكريم؛ يطالعا الاستعلاء بظرف المكان «فوق»؛ حيث إنه ورد مفردًا أو متصلاً بضمير أو مضافًا إلى اسم ظاهر. ومعنى (فوق): الدلالة على أنَّ شيئًا أعلى من الآخر حسًّا أو معنىً، فهو ظرف ملازم للإضافة في أكثر الحالات^(٢).

واختلاف دلالة كلِّ منوط بسياقه (ماديًّا) أو اعتباريًّا (معنويًّا).. وقد يوحى بالإلفة وقد يوحى بالعدوانية. وللمكان منظومة من الأوصاف المتقابلة أو المتضادة؛ كالسعة/ الضيق، الانفتاح/ الانغلاق، الداخل/ الخارج، المضاء/ المعتم... إلخ. وهذه الثنائيات وأمثالها تصدق على الحيز المكاني بصفته: الفوقية والتحتية. فكما أنَّ هناك فوقًا ماديًّا؛ هناك فوقٌ معنويٌّ. وكما أنَّ هناك «فوقًا» أليفاً؛ هناك «فوقٌ» معاد.. وهكذا دواليك. وما قيل عن الـ«فوق» يصدق على الـ«تحت» أيضًا. إذ لا بدُّ لكلِّ «فوق» من «تحت» يقابله. وعلى هذا لا بدُّ لنا أن نتعرَّض إلى ظاهرة «التحتية» بالحدود التي يتطلبها استيضاح «الفوقية».

وقد يمثل الطرف الأول منهما فردًا أو جماعة، وقد تكون بين الأعلام أو الذوات أو الأشياء، وقد تكون بين المعاني أو القيم أو الأمور المختلفة وما شابه ذلك. وللـفوقية مدلولات تتعدَّد بحسب السياقات التي ترد فيها: منها ما يتصل بالسلطان والسلطة والتسلط، في مادة (س ل ط)، فقد وردت

١- ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤١٧-٤١٨.

٢- يستعمل كثيرًا مضافًا وغير مضاف، مجرورًا بـ«من» وغير مجرور بها.

كلمة «سلطان» في القرآن الكريم في سبع وثلاثين آية؛ وبأكثر من معنى^(١). وتطالعنا نماذج من الحركة الصاعدة ممّا يَصوِّر السلطة الفوقية أو التسلُّط؛ سواءً سلطة الحاكم أم سلطة فئة.

والتعريف البسيط للسلطة: هي القدرة على فرض إرادة ما على إرادة أُخرى؛ سواءً فُرضت بالقوّة والعنف والقهر؛ أم بالإقناع والتراضي. والسلطة على أنواع؛ منها: الدينية، والسياسية، والعامّة، والتشريعية، والتنفيذية، والاقتصادية، والتفويضية، والشخصية، والأبوية^(٢).

ممّا ورد في الآيات القرآنية في طرف المقايسة الأوّل / الـ«فوق»: اللّهُ جل جلاله، الربّ جل جلاله، القاهر جل جلاله، العرش، السماوات... وممّا ورد في طرف المقايسة الثاني / الـ«تحت»: الكفّار، الأعناق، الأرض، العذاب، الموج، الظلمات، البعوضة.

يلاحظ أنّ بعض مفردات الطرف الأوّل الـ«فوق» يتكرّر ذكرها في الطرف الثاني «التحت»، واختلاف دلالة كلّ منوط بسياقه، فليس كلّ ما ذُكر في «الطرف الثاني / تحت» هو في مرتبة أدنى، إذ قد يغيّر السياق مثل هذه المفارقة، كأن يرد الخطاب أو الإخبار على لسان الأدنى من الناحية الاعتبارية، كما ورد على لسان (فرعون) قوله بصدد (موسى التليلا) ومن اتّبعه: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾^(٣).

١- من معاني «السلطان»: الحاكم، والحُكْم أو الشرع: يوسف: ٤٠، النجم: ٢٣، الأعراف: ٧١.. والقوّة: الإسراء: ٢٣، ٨٠، القصص: ٣٥.. والكتاب: الصافات: ١٥٦. والحجة أو البرهان: النمل: ٢١، غافر: ٣٥. والعلم: الرحمن: ٢٣.
٢- ينظر: محمود أمين العالم وآخرون: موسوعة الهلال الاشتراكية، ص ٢٨٢، ٢٨٣.
٣- الأعراف: ١٢٧.

ثانيا- الحركة الهابطة :

تشارك الحركة الهابطة في التصوير القرآني بالتعبير عن أحداث مهمة وخطيرة في حياة البشرية، من مثل: هبوط آدم عليه السلام من الجنة لإعمار الأرض.. ومثل تنزل الوحي على أنبياء الله.. ومثل نزول الغيث وتوزيعه على سطح الكرة الأرضية.

والحركة الهابطة على مستوى الدلالة قد توحى أو تخبر عن معاني: الضعف.. الضالة.. الضعة.. الخطر.. الخوف.. الكآبة.. المرض.. الشيخوخة.. الموت... وقد تعبّر عن التردّي في الكفر أو الشرك.. ومع هذا، فمن جانب آخر قد تعبّر الحركة الهابطة عن أخلاقيّة الفطرة السليمة، وقد تشي بمعنى التواضع، أو تصوّر مشاعر الدعة والتعاطف والتسامح والإيثار.. وقد تولّد الحركة الهابطة في المتلقّي شعوراً بالضغط والتكور، أو بالتوتر والمقاومة، علماً بأنّ الإنسان بصورة عامّة يرتاح نفسياً إلى الحركة الصاعدة لدلالاتها الرئيسية على الحياة.

وبما أنّ الحركة نسبيّة، (أي: حركة جزء أو عنصر من مكونات الصورة بالنسبة إلى جزء آخر أو للكل) فإنّ أي حركة جزئية نازلة، لأيّ من الأجزاء، تُحدث تغييراً نوعياً في تشكيل الكلّ الذي يضم ذلك الجزء المتحرّك.

وتتجلّى الحركة الهابطة في مجموعة من الأفعال، منها: سجد.. ركع.. هبط.. نزل.. هوى.. خرّ.. سقط.. انقض.. ألقى.. خفض.. وضع.. خضع.. خشع.. خسف.. نكس.. أركس.. انهار.. غاظ... إلخ. وسنحاول أن نقف مع عدد من الأفعال المتقدّمة، سواء ما ورد منها في إطار القصص القرآني؛ أم في إطار الصورة الأدبيّة عموماً؛ لنستوضح دور الحركة الهابطة ومدى أثرها في الحركة العامّة للكون والطبيعة.. والحياة والإنسان.

فأمّا في إطار مادّة (ه ب ط) فمما يستوقفنا من القصص القرآنيّ الذي يبيح في إطار الحركة الهابطة (قصة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض)

وبعض من أحداثها الجزئية مثل سجود الملائكة لآدم عليه السلام أبو البشر، وأول الأنبياء الذين قصَّ الله جل جلاله علينا قصصهم في القرآن الكريم، وقد تكررت قصته (أو جوانب منها) في عدد من السور: (البقرة، آل عمران، الأعراف، الإسراء، الكهف، مريم، طه، يس، الحجر، ص). وتكرار القصة الواحدة في أكثر من سورة مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني؛ إذ يتكرر المعنى بصياغات مختلفة تتطلبها مغايرة السياقات.

في مسألة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس، يحسن الوقوف أولاً عند مادة «س ج د». وحين نتابع مادة (سجد) في القرآن الكريم؛ يطالعنا قوله تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤-٧١﴾. (ص: ٧١-٧٤).

ف(ساجدين) جمع ساجد، وهو اسم فاعل من الفعل «سجد». واسم الفاعل يجمع بين «الصورة/ الهيئة» وبين «الحدث/ الحركة». و«الساجد» لغة: الخاضع. وينتمي السجود عمومًا إلى الحركة الهابطة.

إنَّ (إبليس) أبى أن يسجد (لآدم عليه السلام)؛ ليس لأنه لم يشأ السجود لغير الله جل جلاله، وإنما كان عصيانه لله جل جلاله استكبارًا وتعالياً على (آدم عليه السلام)، فتنفيذ أمر الله جل جلاله بالسجود واجب على الملائكة عامة؛ بضمنهم (إبليس)، فكانت طاعة الملائكة، وكانت معصية (إبليس). وبذلك تشكلت ثنائية ضدية (الطاعة - العصيان)، بينهما مغايرة أقصت (إبليس) عن رحمة الله جل جلاله.. ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾. (ص: ٧٥-٧٦).

السجود = حركة هابطة.

آدم = مخلوق من طين (وهو مادةٌ تحتيةٌ تتسم بالثقل، وحركتها هابطة).

إبليس = مخلوق من نار (وهي مادةٌ فوقيةٌ تتسم بالخفة، وحركتها صاعدة).

الاختلاف في المادة الأولية كانت حجة (إبليس) في عصيانه وامتناعه عن السجود (لآدم عليه السلام).

فتضادّ عناصر الطرفين كان سبباً في جعل العلاقة بينهما «إغوائية/عدائية» بشكل أو بآخر بمبادرة من (إبليس)، والعداء يجرّ إلى تحركٍ سلبيّ تجاه الآخر. والتضادّ في الاتجاه يؤدي إلى احتدام وصراع؛ يتزايد فيه العنف الحركي، مادياً كان العنف أم معنوياً: ﴿ قَالَ فِيمَا أَعْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا يَجِدُوا أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ (الأعراف: ١٦-١٧).

﴿ وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿١٦﴾ (الإسراء: ٦٤).

ولعلّ ذلك التناقض أدّى من ثمّ إلى انسجام دلاليّ في عموم الصورة الحركية!. من حيث أنّ القصد تحقّق؛ وذلك بالهبوط إلى الأرض.

وتمكّن (إبليس) من إغواء (آدم) وزوجته بأن أكلا من الشجرة التي نهاهما عنها الله جل جلاله..

من مظاهر حياة (آدم عليه السلام) في الجنة عدم الشعور بالجوع أو العطش^(١)، فهما يتوافقان مع مظاهر حركية مناسبة للعيش على سطح الأرض: النمو، ثمّ الهرم، ثمّ الموت.. بعد أن أكلا من «شجرة الخلد» ﴿ فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءَ نُهْمًا

١- تنظر: طه: ١١٩.

وَطَفِقًا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴿١١﴾. ثُمَّ تَابَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَلَيْهِمَا، وكان لا بدّ من الهبوط على الأرض؛ لأنّ الإرادة الإلهية سبقت بأن يخلق (آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ) ليكون خليفة في الأرض من أجل إعمارها. ف(آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ) وزوجته أصبحا مؤهلين للهبوط.. وهنا ينفرد الإسلام في تجاوز موضوع (الخطيئة).. الهبوط لم يعد عقاباً، بل كان تحقيقاً لإنجاز وظيفة الخلافة والتعمير.. أمّا (إبليس) فكان طرده عقاباً لإصراره على المعصية.. ولعلّ صراع البشر مع الشيطان في الأرض ضرورة للإعمار، وتكون التبعية لـ(إبليس) سبباً منطقيّاً لوجود جهنّم. وعلى ما تقدّم تترتب على البشر مسؤوليّة الاختيار، وفي ذلك يتحقّق العدل الإلهي في الجزاء بالجنة، والعقاب في النار.

ونمضي مع الحركة الهابطة؛ إذ تطالعنا مادّة (ن ز ل)، حيث تكرّر ورودها في القرآن الكريم (٢٩٣) مرّة.. في الغالب يكون فاعل فعل النزول هو الله جلّ جلاله. ونجد من المنزّل عليه (أو من هو في حكمة): محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. وأنبياء الله. ونجد من المنزّل منه (أو من هو في حكمه): السماء.. المعصرات.. المُنزّل. ونجد من المنزّل فيه (أو من هو في حكمه): الجنّات.. جهنّم.

ومن خلال استعراضنا لقائمة (المنزّل) يمكن أن نميّز مجموعتين متباينتين: المنزّل الروحيّ أو المعنويّ/ غير المرثي، أو غير الملموس. والمنزّل الحسيّ أو الماديّ/ المرثي، أو الملموس. وهناك منزل مشترك (روحيّ و حسيّ).

فأمّا المنزّل الروحيّ: فيتمثّل أولاً في «الوحي»، ومن دلالات لفظة «الوحي»: (جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ).. و(القرآن الكريم) (وكذلك يقال عن التوراة والإنجيل والصحف أثناء تلقي أنبياء الله لها) ^(٢).

١- طه: ١٢١.

٢- تنظر: النساء: ١٦٢.

والذي يعيننا في هذا السياق ما ورد عن الوحي أو التنزيل من وصف الثقل.. ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْكَ وَأَاقُومٌ قِيلًا﴾ (المزمل: ٥٦).

وفي الحديث الشريف: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس؛ وهو أشد عليّ، فيفصم عني، وقد وعيتُ ما قال»^(١).

وعن أم المؤمنين (عائشة) رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً»^(٢).

ومعلوم أن القرآن الكريم نزل منجماً بحسب الحاجة^(٣): ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلاً﴾ (الإسراء: ١٠٦).

إن صيغتي: «فعل» و«تفعل» تدلان على أن الحدث يتم على مراحل متعاقبة؛ فضلاً عن إفادتهما: التكرير.. والمبالغة.. والمطاوعة.. وقد يؤكد الفعل بالمصدر الصريح (تنزيلاً)^(٤).

وقد اعترض الكفار على تنجيم القرآن، متخذين من ذلك ذريعة للشكك فيه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِيْنَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأنعام: ٧-٨). تتجسد الحركة الهابطة في تنزيل كتاب (ورقي) ملموس. واللمس وسيلة تحقق التجسيم المادي.

وفي آية من سورة «الحشر»، اقترن تجسيد حركة التنزيل بمعطيات المرثي.. وهنا (في سورة الأنعام) تتجسد بمعطيات الملموس.. ويؤكد ذكر

١- البخاري: الصحيح، بدء الوحي: ٦/١.

٢- البخاري، السابق: ٧/١.

٣- نزل القرآن في الغالب خمساً خمساً من الآيات، على مدى ثلاثة وعشرين عاماً على الأرجح، ينظر: البخاري: الصحيح ٤/ ٥٧. وقدّر بعضهم مدة نزول القرآن الكريم بعشرين عاماً.. وقدّره آخرون بخمسة وعشرين... قارن بين: الزركشي، البرهان: ١/ ٢٢٢.. والسيوطي، الإتيان: ١/ ٦٨.

٤- تنظر: الإنسان: ٢٣.

الأيدي على صفة اللمس. واللمس يقتضي المباشرة والتماساً دونما فاصل، وبذلك يلغى دور المسافة والبعد. لهذا قال تعالى فيهم: ﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ (الشعراء: ٤). أي: لو شاء الله لأنزل عليهم معجزة عيانية ظاهرة. وفي «خضوع الأعناق» كناية عن المذلة.

ثالثا- الحركة المقبلة

لكي نستوضح كون الحركة مقبلة يتطلّب الأمر تحديد موقع الرائي، ونعيّن اتجاه حركة المتقدّم صوبَ الرائي. قد يكون الراصد هو المتكلّم، وقد يكون الغائب أو المخاطب.

تنطلق الحركة «المقبلة» من الموقع الأبعد (أي من عمق المشهد) إلى الموقع الأدنى؛ حيث يتحرّك العنصر الأوّل الأبعد باتجاه العنصر الثاني الأقرب. وتنطلق الحركة «المُدبِرة» بالاتجاه المعاكس.. قد يُحدّد منطلق التحرك والموقع المتوجّه إليه لاستبيان نوع الحركة أو لتبيينها. وقد لا يُحدّد موقع الطرفين، وفي هذه الحالة يكون النصّ مفتوحاً ويفسح مجال التصرّو أو التخيل للمتلقّي.. وقد يتحرّك الطرفان باتجاه بعضهما في أن.. فنتمثّل في المشهد الواحد كلّ من الحركتين: «المقبلة» و«المدبرة» معاً؛ وهو ما يوفّر في المشهد عنصر «التضادّ» الذي يمنح الحركة مزيداً من الحيويّة، قد تصل بالأحداث إلى نوع من الصراع؛ ممّا يشدّ المتابع إلى المواصلة، ويحدو به التشويق إلى الانفعال بالحدث والاندماج معه.

والتحرّك من العمق باتجاه الرائي. والتحرّك المعاكس نحو العمق (أي: الحركة المقبلة، والحركة المدبرة) يمطّان الزمن؛ حيث يُلاحظ المتلقّي كأنهما يستغرقان وقتاً أطول بكثير ممّا يتطلّبه قطع المسافة ذاتها في حركة جانبية؛ لذا فإنّ الاستمراريّة في حركة الإقبال أو حركة الإدبار تولّد إحساساً بالملل وربّما بالضجر.. عليه فإنّ في مثل هذا الحال ينبغي تكثيف الزمن، بتقليص المسافة، عن طريق تقطيع الحركات.

الحركة المقبلة في القرآن الكريم:

تتجه الحركة المقبلة نحو الرائي من بعيد (من عمق الصورة)، وتوحي عادة بمعانٍ معاكسة لما توحي به الحركة المدبرة؛ في حالة بقاء المتحرّك نفسه. إنّ الحركة المقبلة في الغالب تكون طبيعيّة، ولعلّها تكون بمثابة الأصل؛

في حين تكون المدبرة هي التالية، أو هكذا تبدو. ويمكن أن نتابع صور الحركة المقبلة في القرآن الكريم من خلال الآيات التي وردت فيها المواد اللغوية الآتية:

(ق ب ل: أَقْبَلَ).. (ج ي ء: جَاء).. (ع ل و: تَعَالَى)... الخ، ومنها:

- أَقْبَلَ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرْفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (الذاريات: ٢٩).

﴿وَسَأَلَ الْقُرَيْةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْغَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ (يوسف: ٨٢).

﴿فَأَقْبِلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ﴾ (الصفات: ٩٤).

﴿يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ﴾ (القصص: ٣١).

- جَاء: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ (يوسف: ١٦).

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ (يوسف: ٩٦).

﴿جَاءَتْهَا رَيْحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ (يونس: ٢٢).

﴿كَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (النور: ٣٩).

﴿وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الكهف: ٤٨).

- تعال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَ رُءُوسَهُمْ﴾ (المنافقين: ٥).

- قد تصوّر الحركة المقبلة في القرآن الكريم مشهدًا اعتياديًا سرعان ما يكشف عن مفاجأة غير متوقّعة:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ﴾

(يوسف: ١٩). فمجيء القافلة حدث مألوف بالنسبة للمسافرين في البوادي، غير أن المفاجأة تكمن في وجود غلام في البئر؛ وهو أمر غير متوقع؛ لذا جاء التعبير مصوراً للحالة بدقة: ﴿يَبْشُرِي هَذَا عَلْمٌ﴾. فكلمة «يا بشراي»: تفيد الندبة؛ وهو ما يستدعي رفع الصوت بالنداء من قعر البئر، وقد ساعدت الألف في آخر «بشراي» على تحقيق هذا الغرض. وكلمة «هذا»: إشارة لا تخلو دلالتها من إزاحة، إذ يفترض استعمالها لإخبار من يرى الغلام، وواقع الحال خلاف ذلك. وعليه فالإشارة هنا تفيد تأكيد الوجود. وهذه الالتفاتة تُعدُّ نكتة بلاغية من لطائف التعبير القرآني.

«ونداء البشري مجاز؛ لأن البشري لا تنادى، ولكنها شُبِّهت بالعاقل الغائب الذي احتج إليه، فينادى.. فهي (استعارة) مكنية، وحرف النداء تخييل أو تبعية»^(١).

- وقد تتسم الحركة المقبلة بالهدوء واللين، سرعان ما تتحول إلى حركة تتصف بالقوة؛ لتخرج إلى فعل يتصف بالشدة والعنف:

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ...﴾ (يونس: ٢٢).

- وقد يوهم البعد الرائي؛ فيبدو المرئي على غير الهيئة المتوقعة. في القصص القرآني لقطة بعيدة تصوّر مشهد إقبال الريح والسحب في السماء باتجاه القوم:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا أَسَانِدُكِهِمْ ﴿٢٥﴾﴾ (الأحقاف: ٢٤-٢٥).

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١٢: ٢٤١. وينظر ممّا قيل في «يا بشراي»: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٥٣-١٥٤.

-وقد تكون الحركة المقبلة «وُدِّيَّةٌ مثيرة»:

﴿ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرَ ﴾ (النمل: ٤٤).

عند دخول (بليقيس) على (سليمان) عليه السلام ، كان للانجذاب أكثر من مظهر: من ذلك جماليَّة المكان؛ حيث الصرح الزجاجيَّ المبلط بالمرايا. لقد كان «الصرح» من قوارير خلفه ماء حسبته لجة؛ أي: ماء. وقيل: الصرح: القصر.. وقيل: الصرح: الصحن؛ كما يقال: هذه صرحة الدار وقاعتها، والصرح: كلُّ بناء عالٍ مرتفع من الأرض.. والممرَّد: المحكوك المملس^(١).

-وقد تكون الحركة المقبلة «وُدِّيَّةٌ.. مستقبلية.. مشروطة»:

﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٢٨).

في هذا الخطاب الإلهيَّ توجيه لرسول الله عز وجل لأن يحقق لأزواجه مطالب الحياة الدنيا في حال رغبتهنّ. ففي الفعل «تعالين» دعوة للإقبال عليه.. والإقبال، إن يحصل، ففي زمان بعد زمان التكلّم. وهو مشروط بإرادتهنّ ورغبتهنّ.. ثمّ تتعاقب المفردات الدالّة على الجمال: «زينتها»، «جميلاً»، فضلاً عن المتع والتسريح وكلّها من متاع الحياة الدنيا. وواضح أنّ للنصّ تنمّة تتضمّن وعدًا بأجر عظيم من الله سبحانه وتعالى في حالة الإعراض عن الملاذّ الدنيويّة.

- إنّ مشهد جيشين محتدمين في ميدان القتال يتطلّب لقطة بعيدة؛ لتصوّر مساحة واسعة من أرض المعركة؛ ولتستوعب الأحداث القتاليّة المنتشرة. ولاستيضاح الحركة المقبلة في المشاهد الحربيّة أو مراقبتها يُستحسن أن يكون موقع الراصد بعيداً؛ لتسجيل لقطات بعيدة يستوعبها الإطار المفترَض

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ٢٠٩.

بعضها التكوينية المرتبة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيَهُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿الأنفال: ١٥-١٦﴾.

- «الزحف: الدنو قليلا قليلا (تحركُّ على التدرج) وأصله الاندفاع على الإلية، ثم سُمِّي كلُّ ماشٍ في الحرب إلى آخر زاحفاً. والتزاحف: التداني والتقارب؛ يقال زحف إلى العدو زحفاً، وازدحف القوم أي: مشى بعضهم إلى بعض.. يقول: إذا تدانيتم وتعاينتم فلا تفرّوا عنهم، ولا تعطوهم أدباركم. حرّم الله جل جلاله ذلك على المؤمنين حين فرض عليهم الجهاد وقتال الكفّار»^(١).

وتتداخل مفاهيم الحركتين (المقبلة: والمدبرة)، وقد تتبادل دلالات «المقبلة» مع «القريبة»، و«المدبرة» مع «البعيدة»؛ ولهذا فإنّ السياق هو المعول عليه. وفي هذا المشهد القتاليّ الذي يصف جانباً من معركة «بدر الكبرى» يتقابل الجيشان (المؤمنون والكفّار) ويلتقي المقاتلون فيلتحمون ببعض؛ وفي هذا اللقاء من البأس الشيء الكثير، حيث القوة والعنف والقتل والفتك. وفي الأخير لا بدّ لأحد الطرفين من الفرار وللآخر من المطاردة. وفي النصّ المتقدّم تحذير للمسلمين من الفرار إلاّ في الحدود المسموح بها كالتحرّف لقتال أو التحيّر إلى فتنة.

ويستوقفنا من جماليّات هذا النصّ كلمة «زحفاً» و«يولّوهم.. دبره». فأما الملاقاة زحفاً فتصوّر مسبقاً المعاناة التي سيواجهها المقاتلون بالتحركّ على التدرج والتداني شيئاً فشيئاً.. والدبر كلمة متمكّنة من فصاحتها معبرة عن المطلوب بدقة؛ تصمّ الفارّ بالتخلي عن كرامته بشكل بشع. وبذلك يُعقد التضادّ بين الزحف للمواجهة برباطة جأش، وبين تولّي الدبر جبناً وخيانة.

١- القرطبي، المصدر السابق: ٧ / ٢٨٠.

ومن هنا استحققت الشهادة في سبيل الله تعالى كل تكريم^(١).

- وقوله تعالى ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾.

التحرّف: الزوال عن جهة الاستواء؛ فالمتحرّف من جانب إلى جانب لمكاييد الحرب غير منهزم، وكذلك المتحيّز إذا نوى التحيّز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضًا^(٢).

وقد يركّز على تحديد المواقع والأماكن؛ لتوضيح استراتيجية المعركة حسب تكتيك كل من الجيشين: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ﴿ (الأنفال: ٤١-٤٢).

الْعُدْوَةُ: جانب الوادي، والدنيا ممّا يلي المدينة، والقصوى ممّا يلي مكة. أي: إذ أنتم نزول بشفير الوادي بالجانب الأدنى إلى المدينة، والعدوّ بالجانب الأقصى من الوادي. والركب: أي: قافلة التجارة التي يقودها (أبو سفيان) ممّا يلي جهة البحر^(٣). وفي هذا النصّ تصوير دقيق لمخطّط ميدان المعركة.

وقد لا تخلو الصورة من العناية بالتفاصيل والجزئيات، كما ورد عن جانب من معركة الأحزاب (الخندق): ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (الأحزاب: ١٠).

من فوقكم أي: من أعلى الوادي من جهة المشرق، ومن أسفل منكم أي: من بطن الوادي من جهة المغرب.. وفي «زَاغَتِ الْأَبْصَارُ» وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ

١- ينظر: د. أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم، ص ٢٠٦-٢٠٧.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧ / ٢٨٣.

٣- ينظر: القرطبي، المصدر السابق: ٨ / ٢١.

الْحَنَاجِرَ» كنايةان معبرتان عن الأزمة النفسية التي كانت تعصف بالمؤمنين داخل المدينة وحالة الفرع التي اجتاحتهم على مدى ما يقرب من شهر من الحصار: ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب: ١١). وفي ﴿ زُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ صورة كنائية ترفد النص مع سابقتها بجماليات التعبير عن عمق المعاناة النفسية.

وأما اللقطات التصويرية الكبيرة والمتوسطة؛ فيبدو الإحكام في عناصر التكوين فيها بشكل أوضح حين يُستهدف من التركيز الكشف عن مغزى الحدث.

ونقف على بعض اللقطات الكبيرة عند تصوير الأوضاع النفسية، لا سيما في سياق الحديث عن الجوانب والأبعاد العقديّة؛ من: إيمان.. أو كفر.. أو نفاق: فمما يوحي بالإقبال؛ صور الفضيحة في تحرك عناصرها: متزنة.. رزينة.. مطمئنة، وهي أوصاف تضاف إلى رصيد الجماليات الأخلاقية والسلوكية.. ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالتَّيِّبَاتِ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٦٩).

وبعكس ما تقدم؛ فإن صور الرذيلة في تحرك عناصرها تبدو متذبذبة.. متخبطة.. قلقة، وهي أوصاف أقرب إلى القبح منها إلى الجمال، وإلى الإدبار منها إلى الإقبال!.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهَمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَرِقْقٌ يُجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءِ آذَانِهِمْ مِّنَ الصُّورِ عِقٌّ حَذِرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الرِّقْقُ يَحْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيُّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٧-٢٠).

وفي إطار اللقطات الكبيرة، تطالعنا الوجوه البشرية ولامحها حركية

بادية؛ ذلك أنّ الحركة أكثر وضوحاً وأقوى فاعليّة في اللقطات الكبيرة، فتطلب جماليّات الصورة الإقلال من الحركة في مثل هذه اللقطات. على العكس ممّا تتطلبه فنيّاً اللقطات البعيدة؛ حيث تزداد أهميّة الحركة طرديّاً كلّما ابتعدت عناصر الصورة في عمق الإطار^(١).

فمثلاً في صورة الوجه تكسب حركة أيّ: عضلة منه قدرًا من الدلالة التعبيريّة؛ التي تستجيب لها ردود أفعال المتلقّي، في حين أنّ اللقطة متوسّطة البعد تحتاج إلى مديات للتحرك أوسع وأقوى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْبَابُ (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْفَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس: ١-١٠).

ومن المتوقع تكبير الأجزاء المرئيّة أو ما يدلّ عليها في حالة استمرار الإقبال. فالفعل: «عَبَسَ» لوحده، وبتصدّره للوحة، يعطي للوجه البشريّ دورًا رئيسًا في تسلسل الأحداث اللاحقة!

وتتقابل حركة تولّي رسول الله ﷺ عن الأعمى مع حركة إقبال الأعمى عليه؛ ممّا يشكّل ثنائيّة متعاكسة في حركة المشهد، في حين يصرّو الفعل «يسعى» حال حركة الأعمى وسرعتها. وجملة «وهو يخشى» تصوّر حالته النفسيّة. من جانب آخر، وعلى مستوى الثنائيّات المتقابلة، في إطار المفردة وإطار التركيب، نجد في النصّ شبكة من العلاقات الضديّة؛ تلاحظ من قريب أو من بعيد؛ وهو ما يمنح النصّ حركة نسيجيّة داخلية تضيف إلى جماليّة النصّ أبعادًا إضافيّة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى X فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ .. ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى X فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ ..
 ﴿تَوَلَّى X جَاءَ﴾ .. ﴿الْأَعْمَى X مِنْ اسْتَعْنَى﴾ .. ﴿مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي﴾

١- ينظر: دولوز: الصورة الحركة، ١٢٢، ١٢٩. جانيّتي: فهم السينما، ص ٢٧-٢٨.

× مَا عَلَيْكَ إِلَّا يَزْكَى ۞ .. ﴿أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى X وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى﴾.

وقد تنحصر عناصر التكوين أو يحاول بعضها الخروج عن إطار المرثي في حالة الإدبار (على عكس حالة الإقبال السابقة)، كما تصوّر الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ (النحل: ٥٨).

يلاحظ أنّ الفعل «ظلّ» عبّر عن ديمومة اسوداد الوجه، وديمومة الوضع النفسي المشحون بكبت المشاعر الحزينة. وعملية التوارى من القوم بحركة مدبرة لها أكثر من بُعد: بُعد نفسي، وبُعد اجتماعي.

وللفعل (يتوارى) إيقاع يعزّز الدلالة السياقية بتصويرها صوتياً؛ فالفعل ورد بصيغة المضارع أي: إنّ حدوثه يوحي بالتدرّج والاستمرار، أمّا الجانب الصوتي فينبثق من الألفين اللتين تساعدان على مدّ الصوت عند النطق بهما، وما بينهما صوت الراء الذي يتّصف بالتكرير؛ كلّ ذلك يعمل في منظومة توفر للدلالة السياقية إطاراً صوتياً معبراً، وكلتاها تضيف على العبارة جمالية التناسق بين الدالّ والمدلول، فضلاً عن الاستعمال المجازي المنقول من الحقيقة على سبيل التمثيل.

وقد يُستشفُّ بعضٌ من ملامح السكونية (الستاتيكية) الناجمة عن ديمومة الوضع الحركي (الدينامي) المستمرّ في لقطة ما؛ ممّا قد يصحّ أن نطلق عليه (السكون المتحرّك). ولعلّ ذلك يصدق على ملامح نضرة النعيم المقروءة في وجوه المؤمنين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يُنظَرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ (المطففين: ٢٢-٢٤).

في «نضرة النعيم» كناية تفصح عن البهجة والسرور، عن الوضأة والإشراق، يحسّ المتلقّي عند سماعها بانسراح الصدر من خلال ما ترسمه العبارة في مخيلته من جمالية هذه الوجوه المؤمنة وهي ترفل في نعيم الفراديس:

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ (الانفطار: ٢٤).

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمُ فَتْرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٦).

من زاوية أخرى، فقد كانت هذه الوجوه في الحياة الدنيا تسفر عن هويتها بالغرة التي يبصمها السجود على الجبين.. ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ (الفتح: ٢٩).

ولعل ما أسميناه بـ«السكون المتحرك» يصدق أيضاً على ملامح المنكر المقروءة في وجه الكافرين: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ (الحج: ٧٢).

﴿ يُعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِيمِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن: ٤٠). في كلمة «بسيماهم» كناية عن اللون الأسود؛ جنبت عموم الصورة عن المباشرة، ووضعتها في إطار البيان الذي منحها مسحة مغبرة قاتمة ومعبرة عن واقع الوجوه المجرمة. ومن هنا كان الأخذ بالنواصي فضلاً عن الأقدام؛ حيث تصلى نار الجحيم مذمومة مدحورة.. ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوَّهُهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٧).

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَيَّ آدْبَارَهَا ﴾ (النساء: ٤٧).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوَّهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الأنفال: ٥٠).

وبما أن الوجوه البشرية واجهات تعكس المواقف الإنسانية التي تتمخض عنها حالات نفسية تناسبها؛ فقد تعددت أوصاف الوجوه في القرآن الكريم، ويمكن أن نميز فيها مجموعتين متضادتين: مجموع وجوه المؤمنين، ومجموع

وجوه الكافرين. ولكل نماذج عديدة في القرآن الكريم لا سيّما في مشاهد يوم القيامة^(١).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ (آل عمران: ٦).

إنّ التباين سمة من سمات الجمال؛ ذلك أنّ الأشياء والأمر تُعرف بأضدادها، وبالتفويض تقوّم، لا سيّما فيما يتّصل بالنسب والدرجات. فالجميل يشرق جماله حين يقارن بالقبيح، كذلك يقال عن الخير والشرّ، والأبيض والأسود، والطويل والقصير... وفي الآية الكريمة مقارنة بين المؤمنين والكافرين.. بين أهل الجنّة وأهل النار.. بين الوجوه البيض والوجوه السود. والبياض والسواد مُعادِلان موضوعيّان للجمال والقبح.

تتأطر الآيات القرآنية المتقدّمة بأكثر من إطار تصويريّ (فنيّ وجماليّ).. ففيها مقابلة تقوم على التضادّ اللونيّ (أو ما اصطلح عليه القدماء بـ«طباق الإيجاب») بين «تبيّض» و«تسودّ»، وبين «الذين اسودّت وجوههم» و«الذين ابيضّت وجوههم» في إطار بدعيّ جميل يمنح النصّ إيقاعاً متناغماً ومُموّسّقاً.. أمّا في الإطار البيانيّ فـ«كلُّ من اللون الأبيض واللون الأسود إشارة كنايةيّة مكثّفة؛ وذلك لقلّة الوسائط بين اللون وما يشير إليه مع وضوح الدلالة^(٢)»..

أمّا الإطار الفنيّ ففي الصورة تباين؛ والتباين هو انتقال مفاجئ سريع

١- ورد ذكر الوجوه في القرآن الكريم بصيغة الجمع ٨ مرّات.. ووجه بصيغة المفرد ١٠ مرّات. تكون وجوه المؤمنين يوم القيامة: بيضاء (آل عمران: ١٠٧).. ناضرة (القيامة: ٢٢).. مسفرة، ضاحكة، مستبشرة (عبس: ٢٨-٢٩).. خاشعة، ناعمة، راضية (الفاشية: ٢-٨).. إلخ. وتكون وجوه الكافرين: مسودة (الزمر: ٦٠).. باسرة (القيامة: ٢٤).. عليها غبرة، ترهقها قترّة (عبس: ٤٠).. مطموسة، مردودة على أدبارها (النساء: ٤٧)..

٢- د. أحمد فتحى رمضان، الكناية في القرآن الكريم: ص ١٠٤.

من حالة إلى ضدّها. فتوفّر داخل الصورة حركة إيقاعيّة ولونيّة تضافرت مع المعنى الذي حكته الوجوه. والذي وحد بين هذه الأطر الثلاثة بشكل متناسق هو الجمال. ويذكر أنّ التباين سمّة من سمات الجمال، فبافتران البياض مع السواد تبرز القيمة اللونيّة لكل من الضدّين، وتبرز دلالتهما، بذلك تُرَجِّح جماليّة دلالة البياض على دلالة قُبْح السواد.

وتتّضح الحركة المقبلة على مستوى الشخصوص، فالشخصيّات الفاعلة في أحداث المشاهد إمّا أن تكون إيجابيّة؛ من النوع المرغوب فيه لدى المتلقّي. وإمّا أن تكون سلبية؛ من النوع غير المرغوب فيه لدى المتلقّي.. أمّا الشخصيّات الحياديّة فغالبًا ما تكون أوارها ثانويّة، أو غير فاعلة، فلا تلقى من العناية ما تلقاه الشخصيّات الرئيسيّة الفاعلة.

إذا كانت الشخصيّة المقبلة إيجابيّة خَيْرَة تتسم بالمودّة والإلفة، فإنّ حركتها تبدو: قويّة.. واثقة.. ودّية.. مغيرة. وغالبًا ما توحى بالاعتداد بالذات والثقة بالنفس. وتثير في دواخل شخصيّات المشاهد ذوات العلاقة كما تثير فينا نحن المتلقّين شعورًا بالاطمئنان والامتنان.. وعن هذا الشعور يتمخّض: السرور والارتياح، والسعادة والانسراح. ففي قصّة يوسف يطالعنا هذان المشهدان:

- ﴿ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ، فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ..

- ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَعِيَ مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ (يوسف: ٩٦، ٩٩، ١٠٠)

(وسجد الشخصيّة الإيجابيّة في حالة إقبالها، على العكس ممّا تقدّم، في حالة إدبارها).

وإذا كانت الشخصيّة المقبلة سلبية، وتتسم بالتهديد والعدوانيّة الشرسة

فإنَّها تثير في دواخل شخصيات المشهد ذوات العلاقة كما تثير فينا نحن المتلقين شعوراً بالامتعاض وبعدم الارتياح، وتُحرِّك في تلك الشخصيات وفينا حوافز التصدي، والدفاع عن الذات، وربما فجرت أيضاً مكامن الغضب والتحدّي ردّاً لفعل وقائي.

(إبليس) نموذج للشخصية السلبية التي يَحْتَاط من مزالقتها المؤمنون. فقد جاء في القرآن الكريم على لسانه، وهو مقبل على إغواء بني البشر:

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدَهُمْ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٦-١٧).

يُلاحظ تعدّد الجهات التي يُقبل منها (إبليس) على بني آدم لأجل النزغ والإغواء.. غير أنّ رعاية الله عز وجل تكفلت بحصانة عباده المخلصين:

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (الحجر: ٤٢).

إنّ ردود الأفعال الصادرة عن المتلقي إزاء الشخصيات في القصص القرآني تكشف عن الفاعلية العالية للتوصيل الفني؛ بأنمّ وأحسن ما تتطلبه هذه الوظيفة. سواء كانت ردود الأفعال تلك إيجابية أم سلبية.. محمودة أم مردولة؛ حسب نوعية الشخصية ذات العلاقة.

رابعاً- الحركة المدبرة:

تتجه الحركة المدبرة نحو العمق، مبتعدة عن موقع الراصد أو عن الرائي، مثل قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (مريم: ٢٢).

ويمكن متابعة الحركة المدبرة في القرآن الكريم من خلال المواد اللغوية الآتية: أَدْبَرَ، عَادَ، رَجَعَ، أَبَ، هَرَبَ، فَرَّ، أَعْرَضَ، صَدَّ، رَدَّ، وَلَّى تَوَلَّى، انْقَلَبَ.. وممكن أن نضيف إلى هذه المجموعة الأسماء المكانية: خَلْفَ.. دُبُرٌ.. ظَهْرٌ.. قَفَا.

- يلاحظ أن الأجزاء الخلفية من الجسم المتحرك هي البداية عادة لعين المشاهد أو لمكان الرصد.

- ﴿ سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴾ (القمر: ٤٥).

«والأدبار جمع دُبُرٍ والعبارة بالدبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأنها بشعة على الفارّ ذامّة له»^(١).

- وقد ترد الحركة المدبرة لإضاءة أبعاد الشخصية؛ أو سرد الأحداث من خلال وصفها للمكان أو الزمان. فالإدبار المكاني كقوله تعالى:

- ﴿ وَكَيْسَ الْبِرِّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ﴾ (البقرة: ١٨٩).

واقتران الإدبار الزماني بالمكاني كقوله تعالى:

- ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص: ٨٥)^(٢).

يفسر بعضهم المقصود من «المعاد» أنه اسم للمكان؛ أي: إن الله عز وجل وعد نبيه (محمداً) عليه السلام، في أثناء هجرته إلى «يثرب»، بإعادته إلى مسقط رأسه «مكة المكرمة». ويفسر آخرون المقصود من «المعاد» على أنه

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧ / ٢٨٠.

٢- هذه الآية هي الوحيدة في القرآن الكريم ليست بمكية ولا مدنية، إذ إنَّها نزلت في الطريق بينهما.

اسم للزمان؛ في إشارة إلى دورة الزمان، أي: إلى يوم القيامة^(١).. والأسماء الميمية مثل (معاد) تتعدد تخريجاتها بين اسمي الزمان والمكان.. والمصدر الميمي.. واسم المفعول.

« قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ يعني إلى مكة عدة للنبي أن يفتحها له .. إلى معاد حيث ولدت .. إلى وطنك وبلدك. وذكروا أن (جبريل) قال: يا (محمد) اشتقت إلى مولدك ووطنك؟ قال: نعم، فقال له: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾.. قال: معاد الآخرة.. يحييه يوم البعث.. وفي الحديث: «وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي» أي: ما يعود إليه يوم القيامة وهو إما مصدر وإما ظرف»^(٢).

ومثل (معاد) (مأب) ففي المعجم: « أب الغائب يؤوب مأباً إذا رجع .. وفي التنزيل العزيز: ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾.. أي: حسن المرجع الذي يصير إليه في الآخرة»^(٣).

- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (الرعد: ٢٩)^(٤).

- وحركة الشخصية المدبرة -كسابقتها المقبلة- إذا كانت في أقصى عمق المشهد قد لا تستحوذ على اهتمام الرائي، لا سيما وأن الحركة المدبرة (باتجاه المشاهد) إذا كانت بعيدة فإن متابعة سردها قد يستغرق وقتاً طويلاً؛ مما قد يسبب نوعاً من الملل في مراقبة حركة الأحداث الثانوية أو غير المهمة، حتى تتلاشى الشخصية في العمق. وهنا يتدخل التقطيع الفني في اختيار لقطات قافزة بين مواقع تصويرية متباعدة بوساطة ما يمكن أن نصلح عليه بـ(النقلة). قد تكون هذه النقلة مكانية، وقد تكون زمانية. فالأولى تختصر المسافة، والثانية تختصر الزمان. وعلى الرغم من الخصوصية

١- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٣/٤٠٢، ٤٠٣.

٢- ابن منظور، لسان العرب: ٢/٣١٧.

٣- ابن منظور، المصدر السابق: ١/٢١٨.

٤- حول (مأب) ينظر: آل عمران ١٤، الرعد ٣٦، النبأ: ٣٩.

المكانية والخصوصية الزمانية فهناك من الوشائج ما يجعل إحداها تتأثر بالأخرى، فإذا كانت النقلة المكانية هي المستحوذة على الحدث، فإن النقلة الزمانية تكون تابعة للمكانية، والعكس بالعكس..

والسبب في التجاوز المكاني أو الزماني إنما هو استجابة لضرورة فنية تتطلبها قصيدة الفكرة. وتنعكس ظاهرة الحركة المدبرة في العمق على سرعة المشهد إذ أنها تبدو أقل سرعة من الحركة الجانبية: المستعرضة. وبالتالي فهي تعكس - في كثير من الأحيان - ضعفاً في العزيمة.

والحركة المدبرة توحى، في الغالب، بمعانٍ معاكسة لما توحى به الحركة المقبلة.. فالحركة المدبرة توحى: بالضعف، والخوف، والريبة، والخيبة، والتدهور... وقد تسم أحياناً أخرى بالحنان وبالرقة وبالشفافية.

= التعبير عن الضعف والخوف:

﴿ وَأَنَّ أَلَيْعَ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا نُتْزِعُهَا جَانٌّ وَلِيَّ مُدِيرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ (القصص: ٣١).

﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ (الكهف: ١٨).

﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ ﴾ (الشعراء: ٢١).

= التعبير عن التدهور:

﴿ كُلُّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا ﴾ (النساء: ٩١).

= التعبير عن الخيبة:

﴿ قَالَتْ طَافِقَةٌ مِنْهُمْ يَتَأَهَّلُ يَتْرَبُ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ (الأحزاب: ١٣).

= التعبير عن الضياع:

﴿ أَشْتَرَوْا بِكَايِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ (التوبة: ٩).

= التعبير عن الشفافية الجمالية:

﴿ وَإِذَا حُيِّمُ بِنَحْيِهِ فَحَيُّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا ﴾ (النساء: ٨٦).

= التعبير عن الرقة:

﴿ فَمَتَّعُوْهُنَّ وَسَرَحُوْهُنَّ سَرَاحًا جَمِيْلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٩).

= التعبير عن التعاطف والحنان:

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ نَقْرَ عَيْنَهَا وَلَا نَحْزَنَ ﴾ (القصص: ١٣).

﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَىٰ نَقْرَ عَيْنَهَا وَلَا نَحْزَنَ ﴾ (طه: ٤٠).

= التعبير عن الأمل:

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ (القصص: ٨٥).

النقلة الإيجازية الزمكانية:

النقلات الزمانية والمكانية في القرآن الكريم تدخل في إطار الإيجاز البلاغي الذي يشكّل ملمحاً من ملامح الإعجاز القرآني. ومثل هذه النقلات جديرة بدراسة خاصة ومستفيضة؛ في جوانبها التقنية والفنية - لاسيما في القصص القرآني - وهي أكثر من أن تحصيها أو تغطّيها عجلة كهذه. ومنها في إطار الحركة المدبرة:

= في قصة (ذي النون) عليه السلام:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

إنّ الفترة التي ذهب فيها (ذو النون) عليه السلام مغاضباً غير محدّدة، لكنها ليست بالقصيرة؛ حيث التّقمّه الحوت ولبث في بطنه ما شاء الله جل

جلاله، هذه الفترة تجاوز القصص أحداثها؛ لأنها لا تضيف إلى القصة ما يخدم مغزاها.

= وفي قصة يوسف عليه السلام:

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ (٤٥)
يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا ... ﴿ (يوسف: ٤٥-٤٦).

إن عملية الأذكار حدثت بعد مدة طويلة؛ حيث إن (يوسف) عليه السلام ﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعِّ سِنِينَ﴾، وقد تجاوز النص القرآني أحداث هذه الفترة؛ لما فيها من رتبة خالية من الأحداث التي تخدم الهدف من القصة. وعليه فإن هذا القطع في الزمان هو ضرب من المجاز بالحذف بتعبير البلاغيين، أو هو نقلة إيجازية في زمن القصة وحدثها.

= في قصة (موسى) عليه السلام: مع «الرجل الصالح» يتكرر ذكر الفعل: (انطلقاً) ثلاثاً، (ويمكن أن نلحق «الصورة الكلية» بـ«الحركة المتكررة»)، وتختصر المسافة والزمن ما بين المنطلق والحدث التالي المراد ذكره:

- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (الكهف: ٧١).

- ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ، قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (الكهف: ٧٤).

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الكهف: ٧٧).

(من الناحية الجمالية يلاحظ دور الإيقاع التركيبي لبدائيات الجمل، وترابط الأحداث المتعاقبة بعدها، ثم الفواصل التي توحد الجمل الثلاث بالضربة الإيقاعية الأخيرة)

١- يُلاحَظُ تنوُّعُ حركاتِ «الحرف: الصوت».. الأول: الكسرة، الضمّة، الفتحة (في الكلمات الثلاث على التوالي).

٢- يُلاحَظُ توحُّدُ «الصوت» الثاني: بالسكون (في الكلمات الثلاث).

٣- يُلاحَظُ توحُّدُ «الصوت» الثالث: الراء المفتوحة.

٤- يلاحظ توحُّد صوت الألف البديلة عن تنوين الفتح عند الوقوف عليها.

الحرف (حتّى) يفيد انتهاء الغاية، وهو بمنزلة «إلى» في المعنى والعمل. ف(حتّى إذا) تعني «إلى أنّ». وبهذا يتجاوز النصّ تباطؤ الزمن أو تطاوله. أي: إنّها تتضمّن معنى قولنا: «ويستمرّ ذلك الحدث حتّى يكون كذا». فعلى الرغم من أنّ الأفعال الثلاثة: «رَكِبًا.. لَقِيًا.. أُتِيًا» وردت في صيغة الماضي فإنّ أزمنتها تسحب إلى المستقبل بالنسبة إلى وقت الانطلاق، لا بالنظر إلى زمن قصّ الأحداث.

وإذا تطلّب المشهد، لا سيّما النفسي، إحداث إحساس بعدم الجدوى، أو الكُرّه، فإنّ الحركة في العمق هي الأنسب، وقد يُختتم بها المشهد.. وفي مثل هذه المشاهد تكون المسافة مؤشّرًا على الزمن.

خامسا- الحركة الجانبيّة :

نقصد بالحركة الجانبيّة: التحركّ أمام الرائي من الجهة اليمنى إلى الجهة اليسرى أو بالعكس.. وقد تكون مساراتها مستقيمة أو منحنية أو متكسّرة. وللاتّجاهات الجانبيّة معطى حركيّ؛ إذ يفترض فيها أنّها - في بعض الحقول الفنيّة - تؤكّد الحزم.. والسّرعَة.. والإثارة.

وعموماً فإنّ الشّخصيّة تبدو ذات إرادة وعزيمة إذا كانت حركتها جانبيّة. وغالباً ما تمارس الحركة الجانبيّة بشكل موجز؛ إذ إنّ زمنها مكثّف ومضغوط. وتسعى إلى تعميق السّرعَة؛ لأنّها تعبّر عن كثافة الأحداث، فضلاً عن إثراء جوانب المشهد: بالأشخاص.. وبالأفعال.. وبالحركة؛ الأمر الذي يوفّر للمشهد استمراريّة حركيّة. ومثل هذه التوضيحات - المتعلّقة بجانب من دلالة الحركة - تجعلنا نتمكّن في فهم العلاقة الماديّة بين الأشخاص والأشياء المتحرّكة^(١).

هناك فرق بين الوضع الأفقيّ وبين الحركة الجانبيّة. فقد يتمثّل الوضع الأفقيّ بهيئة جسم ساكن: (وضع النائم.. الميّت.. جذوع الأشجار الخاوية.. البرك الساكنة.. السهول الممتدّة)؛ وبذلك تتحدّد قدرة الوضع الأفقيّ على إحداث التأثير في نفس الرائي أو الراصد. فهذا الوضع يقدّم لنا معاني الهدوء، وأحياناً السقوط والدمار، ولا يتطلّب إجهاداً عند تملّيه واستيعابه كما يتطلّب الوضع الشاقوليّ، الذي يتمثّل في هيئة: الجبال الشاهقة.. والأشجار الباسقة.. والمباني الشامخة التي تقاوم الجاذبيّة لإقرار هويّتها وفرض ممارستها للحياة متّصّفة بالجلال.

وفي معرض الحديث عن الخطّ الأفقيّ، يطالعنا الحديث عن تركيب المشاهد، إذ إنّ له تأثيراً في مشاعر المتلقّين، ويشتمل التركيب على ثلاثة عناصر: الخطّ.. الكتلة.. التكوين (الشكل).. ينشأ الخطّ عادةً في المشهد

١- ينظر: جانيني: فهم السينما، ص ١٢٨، ١٤٠-١٤١.

من هيئة الأجسام ووضعها. ويتشكل الخط الأفقي من أوضاع الاستلقاء وربما الجلوس. وهذا الخط - بصورة عامة - يوفر الشعور بالاستقرار.. والهدوء.. والراحة.. والسكينة. وأحياناً يعبر عن الضعف. قد يكون الخط الأفقي مستقيماً أو منكسراً. فالمستقيم - في الأصل - يعبر عن: الصرامة والمباشرة في التصديّة.

ومن اندماج الصفتين: المستعرضة والمستقيمة (في خط الحركة) يمكن استخلاص دلالات مزيجة. أما الخط الأفقي المتكسر فيرمز إلى التسيّب. وفي حالة اجتماع صفتي: الاستقامة والانكسار في الخط الأفقي، فإن هذا التضادّ يتمخض عنه شعور بالانقباض والترهل^(١).

وكنموذج للخط الأفقي من صور القرآن الكريم نذكر صفّ المقاتلين في مشهد الحروب الجهادية^(٢).. وصفّ الملائكة في مشهد يوم القيامة^(٣).. إنّ مَشاهد يوم القيامة تمدّنا بمزيد من النماذج، ليس للخط الأفقي فحسب؛ بل وللوضع الأفقي والحركتين: الجانبية والانتشارية أيضاً.. وكذلك يقال عن القصص القرآني؛ حيث الرسوم التي تحكي مصائر الأمم الغابرة.. وكذلك في جوانب من صور الطبيعة الصامتة.. وفي المشاهد التي تتحدّث عن الحروب أو تصوّر المعارك الجهادية... الخ.

- الحركة الجانبية في مشهد أهل الكهف:

إنّ لقطة اضطجاع الفتية تعتمد الوهم في تبادل أقطاب التضادّ المتمثلة في هيئتي: «الأيقاظ: الرقود»، والوهم مفهوم من الفعل «تحسبهم»:

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ فَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ

١- ينظر: ألكسندر دين ، العناصر الأساسية لإخراج المسرحية: ص ١٩٧-١٩٨.

٢- تنظر: الصف: ٤.

٣- تنظر: الكهف: ٤٨، النبأ: ٢٨.

أَيْكَازًا وَهُمْ رُفُودٌ وَنَقَلَبَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَبَهُمْ بَسِطٌ
ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوْ أَطْلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَيْتُ مِنْهُمْ
رُغْبًا ﴿ (الكهف: ١٧-١٨).

واكتشاف الرائي المفاجئ لحقيقة الفتية يتمخض عنه رد فعل سريع. إن
سكونية الرقود - التي تمثل اللقطة الأساس - كانت الحافز لتوليد حركة
الفرار المدبرة: « لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا، وَلَمَلَيْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا». وهي حركة جزئية،
وبالرغم من كونها عارضة فهي تشكّل مركز ثقل في عموم المشهد الذي
وردت فيه.. ويجدر بالذكر أن الخطاب الموجّه إلى الرائي في صيغة ضمير
المفرد يؤكد حالة الانفراد، وهذه الحقيقة نفسية تضخم رد الفعل السريع
والعنيف «وَلَمَلَيْتُ.. مَلَيْتُ».

ولو كان الخطاب موجّهًا إلى جماعة من المشاهدين لتضاءل رد الفعل
النفسي من خلال الشعور الجمعي المطمئن. وهذه التفاتة وظفت الأبعاد
السيكولوجية لخدمة الملامح الفنية في المشهد المتمخضة عن مجاورة لقطتين
متضادتين كليًا بين الوضع السكوني للرقاد، والوضع الحركي للفرار.. بين
فقد الوعي الكلي (للفتية) ونشاط الذهن العنيف (لرائي).

ومن خلال التناقضات الضدية تتجلى الفاعلية الفنية في فيض من جماليات
التصوير التعبيري. (ولنا وقفة أخرى أكثر تفصيلاً مع مشهد «أهل الكهف»
في مبحث «الحركة المركبة» لاحقاً).. وتتضح الحركة الجانبية في مفاصل
أخرى؛ منها:

- مشهد المتجهدين ليلاً:

﴿ نَجَّافٍ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾
(السجدة: ١٦).

تلاحظ الاستمرارية في الحركة الجانبية؛ (تجذب الفراش أو السرير)

. هذا التجايف أو التنحي يعبر عن مسألتين.. الأولى: وعي الحركة، والثانية: مقاصد الحركة المتمثلة بالانفعالات النفسية الحادة المعبرة عن جدلية التقابل: «الخوف: الطمع» في أثناء التهجد؛ أي: «أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة؛ يعني صلاة الليل .. وقيل: هم الذين يصلون صلاة العتمة لا ينامون عنها»^(١).

ويلاحظ الزمن هنا من خلال شفاف الصورة، ويدرك المتلقي بسهولة زمن هذا الحدث؛ إذ إن التهجد يكون ليلاً بقرينة ذكر «المضاجع (الفرش)». وعلى هذا فالزمن والمكان يتضافران في عكس الدلالة الثنائية (المخفي (الزمن): والمعلن (المكان)).. لقد جاء التعبير بد (تجايف الجنوب عن المضاجع) على سبيل الكناية والمعنى أنهم يقومون الليل في الصلاة والتعبد.. وكما تخفوا عن الناس بستار الظلمة في الدنيا، فإن الله أخفى لهم جائزتهم في الآخرة:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧).

وفي الحديث النبوي الشريف: « يقول الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت؛ ولا أذن سمعت؛ ولا خطر على قلب بشر»^(٢).

- حركة الوضع الأفقي في الحرب:

فقد يتمثل بهيئة أجسام متحركة كحركة المجاهدين:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُم بُنِينَ مَرْصُورًا ﴾ (الصف: ٤).

«التشبيه في الآية جامع للأوصاف في تعبئة المصاف مع حسن الاختصار،

١- النسفي، تفسيره: ٢/ ٢٨٩.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن الكريم: ١٤/ ١٠٥.

ولطافة القول، وقرب المأخذ^(١). فالحركة بادية بعنفوانها من خلال تصوير عزم المجاهدين وحزمهم، معززة بقوة التآزر التضامنية بينهم؛ الأمر الذي يصور مدى قدراتهم القتالية العالية، ومدى معنوياتهم الجهادية السامية. فوجه الشبه المقصود هو قوة التضافر والتآزر القتالية في صف المجاهدين، وهي تقابل متانة البنيان المرصوص، وكلاهما يعكس مظهر الجلال .. في حين أن تناسق الصفّ والبنيان يعكس قيماً جمالية، وهي مطلوبة في التكتيك العسكري؛ لأنها تنبثق عن النظام والضبط.

- مشهد التقلب في الساجدين:

التقلب: مظهر للحركة الجانبية أصلاً.. وقد يُصَرَّف مجازياً إلى معاني أخرى. ففي قوله تعالى مخاطباً رسوله الكريم ﷺ في معرض الحديث عن الكافرين: ﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (آل عمران: ١٩٦). «التقلب: تصرّف على حسب المشيئة في الحروب والتجارات والغرس ونحو ذلك»^(٢).

والتقلب بمعنى السفر أو التصرف في البلاد؛ تعبيراً عن الغنى، وكناية عن الترف. والسفر يعني التنقل، والنقلة ضرب من ضروب الحركة.

. ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿ (النحل: ٤٥-٤٦).. وهذا التقلب المترف في الحياة الدنيا يقابله تقلب في النار يوم القيامة:

. ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (الأحزاب: ٦٦).

١- ابن نايقا البغدادي، الجمان في تشبيهات القرآن، ص ١٣٥.

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٤/ ٢٠٦.

ومعنى التقلب هنا: «تغيّر ألوانهم بلّح النار»^(١). والتغيّر ظاهرة حركيّة. وقد يكون بمعنى السحب؛ أي: يُسحبون على وجوههم في نار جهنّم، وهذا يعني أنّ التغيّر المكانيّ يزيد في تماس مسافة أطول من نار جهنّم؛ وهي صورة كنايةيّة تعبّر عن هول فاعليّة الحرق في الإيلام.

ويلاحظ أنّ فعل «التقلب» ورد في الآية مبنياً للمجهول. فقد استعيض عن الفاعل الذي هو «الله» تبارك وتعالى بنائب الفاعل الذي هو «وجوه» لتأكيد عدالة العقاب وأحقّيّته. كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢٤) يَوْمَذِ يُوفِّهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهُ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿ (النور: ٢٥-٢٤).. في هاتين الآيتين يتملّ الإيجاز والإشباع.. التفصيل والإجمال.. والتأكيد والتكرير.. وما ذلك إلاّ لأمر^(٢).

إنّ التوافق اللفظي لـ«التقلب» في المشهدين المتقدّمين، يقابله تضادّ دلاليّ مبنيّ على مغايرة المجال الذي يجري فيه التقلب (الأول في نعيم الدنيا والثاني في جحيم الآخرة). وبالرغم من التباعد الموقعي والترتيبيّ للمشهدين -حيث إنّ كلّ مشهد ورد في سورة- فإنّ الذاكرة المستوعبة عند تلقي أحد النّصين تستحضر الآخر في الوقت نفسه بفعل التداعي؛ فتحصل العبرة المنشودة لدى المتلقّي.. وعلى أيّ من التخریجات المتقدّمة يتّضح دور الحركة في ترهيب هذا الضرب من العقاب، وهذا الصنف من العذاب. وهو جانب من جوانب الإعجاز القرآنيّ في تعدّد دلالات اللفظة الواحدة في أكثر من سياق.

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٩/١٤.

٢- ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٢٢٢/٢.

سادسا- الحركة الانتشارية :

نقصد بالحركة الانتشارية أو العشوائية: التحرك من مكان معين إلى أماكن أخرى باتجاهات مختلفة وغير محددة. وغالبا ما تكون الانتشارية سطحية ذات بُعدين، والعشوائية تكون اتجاهاتها حرة في الحيز ذي الأبعاد الثلاثة، قد تكون مساراتها مستقيمة أو منحنية أو متكسرة، وتوحي عادة بالتجزئة والضعف.. بالتبعثر والتشتت.. بالخراب والدمار^(١).

- أعجاز النخل الخاوية:

ومثال صورة الوضع «الأقبي: الانتشاري» في القرآن الكريم مشهد «أعجاز النخل الخاوية» التي شَبَّه بها « قوم عاد » إثر هلاكهم: ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرَعى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ (الحاقة: ٧)

وعلى الرغم من امتداد شؤون الناس ومصالحهم في الأرض، فقد اقتلعتهم الأعاصير العاتية وانتزعتهم منها كما تنتزع أشجار النخيل الباسقة، وقذفت بهم صرعى في كل منأى من الأرض. « وصرعى: جمع صريع؛ وهو الملقى على الأرض ميتاً^(٢)، ولكلمة «صرعى» أيضاً دالتان: فالصريع هو المجنون. والصريع أيضاً هو القتيل^(٣). وكان التعبير يوحي بتعاقب الحالتين بالنسبة لقوم عاد؛ إذ كانوا يتخبطون خبط عشواء عند إقبال الريح عليهم، وما لبثوا إلا وقد اغتالتهم العواصف والأعاصير، ونشرتهم في أطراف الأرض:

﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .. أي: جذوعاً منحورة؛ فهي ضخمة: خفيفة، وهم ضخام الجسوم ولكن عقولهم قد نخرها الضلال.. والصورة قائمة على علاقة تشبيهية تتكوّن من طَرَفَيْ التشبيه. المشبّه: (نالقوم الصرعى)، والمشبّه به: «أعجاز النخل الخاوية». ووصف «النخل» بأنها «خاوية» باعتبار

١- تنظر: الروم: ٢٠، الأحزاب: ٥٢، المرسلات: ٢، ٤، الطور: ١-٢، الإسراء: ١٢، الفرقان: ٤٨.

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ١١٨/٢٩.

٣- يلاحظ أن كلتا الدالتين تطبق، مع الفوارق، على لقب الشاعر العباسي مسلم بن الوليد (صرعى الغواني).

إطلاق اسم «النخل» على مكانه بتأويل الجنّة أو الحديقة، ففيه استخدام، والمعنى: خالية من الناس. وهذا الوصف لتشويه المشبّه به بتشويه مكانه، ولا أثر له في المشابهة؛ وأحسنه ما كان فيه مناسبة للغرض من التشبيه كما في الآية؛ فإنّ لهذا الوصف وقعاً في التفسير من حالتهم ليناسب الموعظة والتحذير من الوقوع في مثل أسبابها^(١).

- الحُمْرُ الْمُسْتَنْفَرَةُ:

صورة تشبيهية تتمثل في لقطة من لقطات الحركة الانتشارية السريعة العنيفة، فقد شبّه القرآن الكريم الكفّارَ في إعراضهم (بحركة صدود مُدْبِرَة) عن التذكرة، بوجوب الإيمان، شبّههم بالحُمْرِ الوحشيّة الفزعة المدعورة من الأسد الذي ما انفك يُطاردها لينال منها ويفترسها. ووجه الشبه شدّة الذعر والهلع الذي يعاني منه طرفاً التشبيه (المشبّه: الكفّار، والمشبّه به: الحُمْر)؛ فضلا عن الضعف الذي يعتريهما أمام قوّة قاهرة: ﴿فَمَا هُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ (المدثر: ٤٩-٥١).

وتتجلّى سرعة الحركة الحسيّة المنظورة واضطرابها في الطرف الثاني من التشبيه (حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)؛ ف «الاستنفار» أبلغ من «الفرار» وأكثر دقّة في التعبير في مثل هذه اللقطة التصويرية عن معاني المفاجأة والسرعة الخاطفة المذهلة. في حين تتّضح الحركة النفسية غير المرئية واضطرابها في الطرف الأوّل من التشبيه.

- الحركة الانتشارية في مشهد النشور:

في سورة «القمر» تصوير لمشهد النشور يوم القيامة؛ حيث يخرج الناس من القبور للحساب.. وهذا الحدث العظيم الذي يخصّ البشريّة جميعاً منذ نشأتها، ويحدّد مصير كلّ فرد تحديداً أبدياً، هذا الحدث العظيم أجمل

١- ابن عاشور، المرجع السابق ٢٩ / ١١٩.

تصويره.. وأوجز في آيتين لا تعدو مفرداتهما ست عشرة مفردة، وبتأطير فنيٍّ معجزٍ.. فالإيجاز من أساليب الإعجاز؛ إذ إنه يبهر الدارسين والمتلقين:

﴿قَوْلَ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ
يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاْفِرُونَ
هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿﴾ (القمر: ٦-٨).

«خشوع الأبصار: كناية عن الذلّة والانخزال؛ لأنّ ذلّة الدليل وعزّة العزيز تظهران في عيونهما»^(١). إنّ ذكر (الأبصار) يوحي باستحالة الحدث مشهداً مرثياً، غير أنّ وظيفة الرؤية البصريّة تتقلص فاعليّتها لهول المشهد، وذلك مفهوم من لفظ «خُشَعًا»، وقد وردت بصيغة المبالغة: (فُعَلًا) لتأكيد عمليّة غضّ الطرف، وكأنّ الناس لفزعهم يحاولون أن يتغافلوا عن هذا الحدث الجلل.. لقد شبّه القرآن الكريم الناس يوم القيامة في حال انتشارهم بعد بعثتهم من القبور بالجراد ممّا يوحي بكثرتهم وتزاحمهم وتدافعهم وتصادمهم، وبحيرتهم بالوجهة التي يتحرّكون نحوها (حركات عشوائيّة).

إنّ وجود منظر الجراد في الواقع، وإلّفة الناس له، يقرب إلى المخيلة صورة مشهد النشور الغائب في المستقبل، أي: إنّ «مشهد الجراد المعهود يساعد على تصوّر المنظر المعروف»^(٢).. والناس -في الوقت نفسه- يمدّون أعناقهم ويصوّبون رؤوسهم إلى الداعي بشكل تلقائيّ وذلك مفهوم من وصفهم (مُهْطِعِينَ). ثمّ يؤكّد الهيئة بإقناع الرؤوس، «أي: برفعها بحركة صاعدة.. وهنا تبدأ عمليّة الخروج من الأجداث وبحركة صاعدة أيضاً.. غير أنّ عمليّة غضّ النظر (خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ) توحى بتصوير الأجنان في حركتها الهابطة»^(٣).

١- الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٤٢٢.

٢- سيّد قطب، في ظلال القرآن: ٢٧ / ٨٦.

٣- ينظر: الرازي، مختار الصحاح، مادة (خ ش ع): ص ١٧٦.

وفي المقابل يتمّ الخروج من الأجداث بحركة صاعدة، تتوافق مع حركة إهطاع الرووس. ويتمخضّ التعاكس الحركيّ بين (الصاعد: والهابط) عن حركة انتشاريّة من خلال تشبيه فنّي، تثبث جمالياته من ذكر جميع عناصر التشبيه: (المشبه: هم)، (المشبه به: الجراد)، (الأداة: (كأن))، وجه الشبه: (الانتشار)...). وذكر المشبه (هم) في هذا السياق له أهميّة كبيرة مما يجعل كل قارئ أو سامع يتواصل مع المشهد، ويضعف هذا الجانب من فاعليّة الصورة؛ لو افترضنا استبعاد المشبه (هم) عن دائرة التشبيه؛ كأن نقول: (يوم يخرجون من الأجداث مثل الجراد المنتشر)؛ « فالجراد مثل في الكثرة والتموج»^(١) ..

وتردّد حركة الخروج من الأجداث بحركتين صاعدتين أيضاً، تتمثلان في الوصفين: (مُهْطَعِين) و(مُقْنَعِي رُووسِهِم). يقال: «أهطع الرجل: إذا مدّ عنقه وصوّب رأسه؛ وأقنع رأسه: إذا رفعه»^(٢) ..

«هَطَعَ كَمَنَعَ هَطْعًا وَهُطُوعًا أَسْرَعَ مُقْبِلًا خَائِفًا، أَوْ أَقْبَلَ بِيَصْرِهِ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُقْلِعُ عَنْهُ.. وَأَهْطَعَ: مَدَّ عُنُقَهُ وَصَوَّبَ رَأْسَهُ.. مَنْ يَنْظُرُ فِي ذَلِّ وَخُضُوعٍ لَا يَقْلِعُ بَصَرَهُ..» و«القنوع بالضم السؤال والتذلل والرضا بالقسم.. الفعل كَمَنَعَ. (وقنّع) رأسه نصبه، أو لا يلتفت يميناً وشمالاً وجعل طرفه موازياً»^(٣) .. هذه المتواليّة من الحركات الصاعدة الثلاث تتشكّل موازنةً مع الحركة الهابطة الأولى، ويرتكز طرفاً الموازنة الضديّة (الهبوط: الصعود) على حركة الانتشار الوسطى.. وفي هذا التناسق تكمن قيم وملامح جماليّة تضيف على المشهد قدرة على التوصيل والتأثير في المتلقّي بشكل متميّز؛ ليستجيب للأمر الذي يبدو -قبل وقوعه- واقعاً، ويعدّ له عدته قبل فوات الأوان.

١- الزمخشريّ، الكشاف ٤ / ٤٢٢.

٢- الرازي، المصدر السابق، مادّة (هطع) ص ٦٩٦، ومادّة (ق ن ع): ص ٥٥٣.

٣- الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادّة (هطع)، ومادّة (ق ن ع).

سابعاً- الحركة المركّبة : مشهد أهل الكهف.

نقصد بالحركة المُركّبة: حركة كليّة تتشكّل من عدد من الحركات الجزئيّة المختلفة؛ تقوم بينها علاقة تضافريّة؛ لإنجاز أكثر من حدث داخل المشهد الواحد. وفي «سورة الكهف» يطالعنا مشهد الفتية الرقود في الكهف، وهو نموذج جيّد للحركة التركيبية أو المُركّبة؛ حيث يستوقفنا المشهد بحركيّته؛ حيث يكون للحركة الجانبيّة (ذات اليمين وذات الشمال) الدور البارز، يليها الحركتان: «المقبلة والمدبرة»، ثمّ جزء من حركة دائريّة، فضلاً عن الحركة الحسيّة والبصريّة:

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ صَوْبَهُمُ الْمُهْتَدِينَ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ وَايًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَحَسَبَهُمُ الْيَقَاطُا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَبَهُمُ بَشُطٌ دِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا ﴿١٧-١٨﴾. (الكهف: ١٧-١٨).

«وترى الشمس، أي: أنت أيها المخاطب ترى الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم، وليس المراد أن من خوطب بهذا يرى هذا المعنى، ولكن على العادة في المخاطبة أن تكون على هذا النحو. ومعناه: أنك لورأيت له لرأيت على هذه الصورة»^(١).

إنّ عملية شروق الشمس المستحصلة من عبارة: «إِذَا طَلَعَتْ» تصوّر حركة صاعدة بالنسبة لقرص الشمس الذي يظهر تدريجياً من وراء الأفق. والظرف «إِذَا» الذي يستعمل -في الأصل- للدلالة على ما يُستقبل من الزمان؛ يدلّ هنا في هذا السياق على الحال (أي: حال الشروق)، وبذلك تتزامن الرؤية مع طلوع الشمس، ومع حركة تراورها. وفائدة تراور الشمس

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢١ / ٩٩. وفي الطبري: «وترى الشمس يا محمد إذا طلعت...».

عن الكهف «كيلا يقع شعاعها عليهم يؤذيهم لأن الكهف كان جنوبياً»^(١) ..
قرأ (ابن عامر): «تَزَوَّرَ» ساكنة الزاي المعجمة مشددة الراء مثل
تَحْمَرُ.

وقرأ (عاصم) و(حمزة) و(الكسائي): «تَزَاوَرُ» بالالف والتخفيف.

وقرأ الباقر: «تَزَاوَرُ» بالتشديد والألف.. والكل بمعنى واحد.

و«التَزَاوَرُ»: هو الميل والانحراف، ومنه: «زَارَهُ» إذا مال إليه.. و«الزُّورُ»:
الميل عن الصدق.. وأما التشديد فأصله «تَتَزَاوَرُ»: سَكَنَتِ التَاءُ الثَّانِيَةَ
وَأَدْغَمَتِ فِي الزَّايِ، وَأَمَّا التَّخْفِيفُ فَهُوَ «تَفَاعَلُ» مِنْ «الزُّورِ»، وَأَمَّا «تَزَوَّرُ»:
فهو من «الزُّورِ»^(٢).

إن صيغة «تَفَاعَلُ» تدل - في هذا السياق - على التدرج في وقوع الفعل.
وأحد المؤشرات على حركة الشمس هو انسحاب ظل الأشياء على الأرض^(٣).
على أن النص القرآني يجعلنا ننظر إلى هذه المفارقة من زاوية مقابلة،
فيجعل الشمس دليلاً على الظل.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ
عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٤٥-٤٦).

يلاحظ أن النص هنا يفتتح بفعل الرؤية «ألم تر» كالنص المتقدم من
سورة «الكهف» «وترى الشمس». وتجدر الإشارة إلى أن آية الفرقان تلتف
النظر إلى عظمة صنع الله جل جلاله. جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا
غَرَبَتِ تَفَرُّجُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾: «أي: تعدل عن سمت رؤوسهم إلى جهة
الشمال.. وقد ذهب بعضهم إلى « أن باب ذلك الكهف كان مفتوحاً إلى

١- البيضاوي، تفسيره: ٣/ ٤٨٤.

٢- الرازي، التفسير الكبير: ٢١/ ٩٩.

٣- في مسألة «مد الظل» ينظر: د. أيمن توفيق عبد الله، الفاظ الزمان في القرآن الكريم،

ص: ١٢٩-١٣١.

جانِب الشمال، فَإِنَّ طَلَعَتْ كَانَتْ عَلَى يَمِين الكهف، وَإِذَا غَرِبَتْ كَانَتْ عَلَى شِمَالِهِ، فَضَوْءُ الشَّمْسِ مَا كَانَ يَصِلُ إِلَى دَاخِلِ الكَهْفِ»^(١). «يَعْنِي أَنَّ الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ مَالَتْ عَنِ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ، أَي: يَمِينِ الكَهْفِ. وَإِذَا غَرِبَتْ تَمَرَّتْ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، أَي: شِمَالِ الكَهْفِ، فَلَا تُصِيبُهُمْ فِي ابْتِدَاءِ النَّهَارِ وَلَا فِي آخِرِ النَّهَارِ. وَقِيلَ: إِذَا غَرِبَتْ تَقْرُضُهُمْ؛ أَي: تَغْطِيهِمُ الشَّمْسُ بِالْيَسِيرِ مِنْ شِعَاعِهَا. وَقَالُوا كَانَ فِي مَسَّهَا لَهُمْ بِالْعَشِيِّ إِصْلَاحٌ لِأَجْسَادِهِمْ... وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ حِفْظِهِمْ عَنِ تَطَرُّقِ الْبَلَاءِ وَتَغْيِيرِ الْأَبْدَانِ وَالْأَلْوَانِ إِلَيْهِمْ، وَالتَّأْدِي بِحَرِّ أَوْ بَرْدٍ»^(٢).

وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ؛ أَي: وَهُمْ فِي مَتَسِّعٍ مِنَ الكَهْفِ يَعْنِي فِي وَسْطِهِ بِحَيْثُ يَنَالُهُمْ رُوحُ الْهَوَاءِ وَلَا يُؤْذِيهِمْ كَرِبُ الْغَارِ وَلَا حَرُّ الشَّمْسِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ بَابَ الكَهْفِ فِي مَقَابِلَةِ بَنَاتِ نَعَشٍ.. فَيَقَعُ شِعَاعُهَا عَلَى جَانِبِيهِ وَيَحُلُّ عَفْوَنَتَهُ وَيَعْدِلُ هَوَاءَهُ وَلَا يَقَعُ عَلَيْهِمْ فَيُؤْذِي أَجْسَادَهُمْ وَيَبْلِي ثِيَابَهُمْ.

وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاطًا: لِانْفِتَاحِ عَيُونِهِمْ، أَوْ لِكثْرَةِ تَقَلُّبِهِمْ. وَهُمْ رَقُودٌ: نِيَامٌ. وَتَقَلُّبُهُمْ فِي رَقْدَتِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ كَيْلًا تَأْكُلُ الْأَرْضُ مَا يَلِيهَا مِنْ أَسْبَابِهِمْ عَلَى طُولِ الزَّمَانِ.. وَكَلْبُهُمْ بِأَسْطِ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ: بِنِزَاءِ الكَهْفِ، وَقِيلَ الْوَصِيدُ: الْبَابُ، وَقِيلَ الْعَتَبَةُ..

لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا: لَهَرَبْتَ مِنْهُمْ. وَمَلَأْتَ مِنْهُمْ رَعْبًا: خَوْفًا يَمَلَأُ صَدْرَكَ بِمَا أَلْبَسَهُمُ اللَّهُ جَلَالَهِ مِنَ الْهَيْبَةِ، أَوْ لِعِظَمِ

١- الرازي، السابق نفسه: ٢١/ ٩٩-١٠٠.

وقيل: «إذا غربت تقرضهم ذات الشمال أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق؛ فدل على صحة ما قلناه. وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب؛ وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب ولا تزاور الفئ يمينًا ولا شمالًا، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب؛ فتعين ما ذكرناه.» ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٦.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٠ / ٣٦٩. وانظر: ابن كثير، تفسيره: ٧٦/٢.

أجرامهم وانفتاح عيونهم!، وقيل لوحشة مكانهم. وقُرئ: مَلَّتْ بالتشديد، للمبالغة^(١).

«وقال أهل التفسير: كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون فكذلك كان الرائي يحسبهم أيقاظا، وقيل: تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلبهم كالمستيقظ في مضجعه»^(٢).

وتلاحظ أنّ حركة الشمس من اليمين إلى الشمال تشكّل قوسًا أي: جزءًا من دائرة. وبذلك ينتمي مسار الشمس -كما تبدو للعيان- إلى الحركة الدائرية.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ يُقصد به المكان الموصوف بالسعة، وهذا الحيز آمن بالنسبة لأصحاب الكهف، أليف ووديع وهذه المعاني مستخلصة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأُورُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ (الكهف: ١٦).

وهو مخيف ومرعب بالنسبة للآخرين: وهذا مفهوم من قوله تعالى: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا﴾ (الكهف: ١٨).

ولعل سبب رعب المُشاهد من الفتية الرقود أنّهم لا يبدون كالأحياء بسبب غياب وعيهم، ولا يبدون كالأموات بسبب حركة جفونهم. إذ لو بقيت عيونهم مفتحة لعميت بسبب التقرّحات، ولو بقيت مطبقة لعميت كذلك بسبب إهمال وظيفتها. والمتوقع -والله جل جلاله أعلم- أنّ حركة جفونهم كان يصحبها إفراز الدمع عند الحاجة لغسل العيون وترطيبها^(٣). «وإنّما يُحسبون أيقاظًا؛

١- ينظر: البيضاوي، تفسيره: ٢:٤٨٤. وحول معنى «الوصيد» ينظر أيضًا: الطبري، تفسيره: ١٥/٢١٤-٢١٥.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٠/٣٦٩.

٣- ينظر: د. محمد جميل الحبال، أهل الكهف، مجلة «الفتح» العددان: ٢، ٣، الموصل، ٢٠٠٠م.

لأنَّ أعينهم مفتحة وهم نيام»^(١). وكان كهفهم مستقبلاً بنات نعش في أرض الروم.. لا تبلغهم (الشمس لكيلاً) تؤذيهم بحرّها وتغيّر ألوانهم وتبلي ثيابهم، وقد قيل إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب وحاجب من جهة الدبور وهم في زاويته. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله جل جلاله دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك^(٢).

قلنا: ما بين حركة الإقبال وحركة الإدبار تضادٌّ حركيّ عنيف. في الأولى: حركة نفسية: ذهنية (تحسبهم). زمنها النحويّ هو المضارع (ويتمثل بزمن المرويّ عنهم: الفتية).. وزمنها السياقي هو الحاضر (بالنسبة للمرويّ له: المتلقّي). والثانية: حركة «حسية: بصرية» (اطّلت). زمنها النحويّ هو الماضي (ويتمثل أيضاً بزمن المرويّ عنهم: الفتية).. وزمنها السياقيّ هو المستقبل (المتوقّع بالنسبة للمرويّ له: المتلقّي): لاقرانه بحرف الشرط: «لو». وإنما ورد الفعل «اطّلت» بصيغة الماضي لتقوية الدلالة التي أضعفها حرف الامتناع المذكور. وجاء الفعل (ولّيت) بصيغة الماضي، ولكنّه يمتلك ثلاثة من عناصر التقوية:

١. لأنّ الفعل مسبوق باللام الواقعة في جواب الشرط، وتفيد التوكيد.

٢. لأنّ الفعل جاء بصيغة الماضي (وفي المعنى: «تولّي»).

٣. التأكيد باسم المصدر (فراراً)؛ لأنّ «ولّيت» معناه «فَرَرْتُ».

فحركة «الفرار» التالية أقوى من حركة «الاطلاع» من حيث التركيب اللغويّ؛ فضلاً عن المعنى الدلاليّ.

- التركيب الحركيّ لمشهد الكهف:

يشترك في تصوير مشهد أهل الكهف عدد من الأشكال الحركية، يمكن أن ندرج كلّ نوع في إطار حركة جزئية؛ وبذلك يشكّل مجموع الحركات

١- الرازي، المصدر السابق: ١٠١/٢١.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٣٦٩/١٠. وانظر: الطبري، تفسيره: ٢١١/١٥.

(حركة كَلِيَّة: مُرَكَّبَةٌ). وعليه فإنَّ هذا المشهد يمكن اعتباره واحداً من المشاهد الحركية المتميزة في القرآن الكريم. حيث تحيل تقنيات التصوير هذا المشهد إلى لوحة فنيّة متكاملة ورائعة، تشكّل الحركات فيها مساقط جماليّة باهرة..

ولكي نستوضح الحركة الكليّة علينا أن نستعرض الحركات الجزئيّة التي في داخلها.. إنّ تزاور الشمس وانتقالها من المشرق إلى المغرب يمثل حركة جانبية من الخارج استناداً إلى موقع الكهف. ويمثّل تقلّب الفتية حركة جانبية داخل الكهف استناداً إلى موقع الكلب (بالوصيد: الباب)، هذا الانسجام المتناغم في الحركة الجانبية بين الداخل والخارج يضيف على المشهد لمسات جماليّة غاية في الروعة، فضلاً عن تكرار الحركة الدوريّ بالنسبة للشمس ما بين الشروق والغروب، وبين تقلب الفتية ذات اليمين وذات الشمال. ويُذكر أنّ الاتّساع النسبيّ للحيز المكانيّ داخل الكهف ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ سمح لتقلّب الفتية. ويبقى الموضع (السكونيّ) للكلب (بالوصيد) مؤشّراً على نسبيّة حركة الفتية من الداخل.. في حين يبقى الكهف مؤشّراً على نسبيّة حركة الشمس من الخارج.

إنّ الحركة الجانبية لتقلّب الفتية داخل الكهف تتوافق مع الحركة الجانبية لتزاور الشمس وميلها خارج الكهف؛ وهو ما يوفر انسجاماً حركياً يضيف على اللوحة جماليّة الاتزان والتناسق.. كما أنّ توجّه المخاطب للاطلاع على الفتية ﴿لَوْ أُطْلِعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ﴾ يُعدُّ حركة مقبلة على الكهف. ويقابلها صدود المخاطب عن الكهف ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ ويُعدُّ حركة مدبرة.. إنّ حركة الشمس في أثناء الشروق ﴿لَوْ أُطْلِعْتَ﴾ تبدأ من أفق الأرض الذي هو بمستوى موقع الرائي كما يبدو له، وتتحرك الشمس نحو السّمّت بحركة صاعدة حتى منتصف النهار.. غير أنّ مسار ﴿الشَّمْسِ إِذَا طَلَعَتْ.. وَإِذَا غَرَبَتْ﴾ يبدو للراصد من موقع الكهف، وكأنّه جزء من حركة دائرية مركزها الأرض أو الكهف نفسه.. وبعد الزوال ينحدر قرص الشمس بحركة

هابطة ﴿وَأِذَا غَرَبَتْ﴾ نحو الأفق الغربي حيث يختفي وراءه.

إنَّ حركة الشمس من الأفق الشرقي إلى السَّمْت تبدو للناظر مركّبة من الحركتين: المقبلة والصاعدة. وعلى العكس منها؛ فإنَّ حركة الشمس من السَّمْت إلى الأفق الغربي تبدو للناظر حركة مركّبة من الحركتين: المدبرة والهابطة. ومحصّلة كلِّ من هاتين الحركتين المركبتين يمكن اعتبارها بمثابة حركة مائلة؛ وهي ما عبّر عنها بـ ﴿تَزَاوُرٌ﴾. ففي اللّغة يقال: مالت الشمس ميولا إذا زالت عن كبد السماء أو قاربت الغياب.. الفعل «تري» في قوله تعالى: ﴿وترى الشمس إذا طلعت..﴾ يُوَدِّي إلى تحفيز الذهن لاستقبال ما سيظهر في المشهد التالي الذي سَيَتَصَوَّرُ في المخيلة من خلال ما يمليه النصّ المقروء أو المسموع، وكأنّه حدثٌ مرثيٌّ عياناً، وذلك تشويقاً لمتابعة المشهد وما يجري فيه من أحداثٍ ماضية (في زمن القصّة: أو الزمن المرويّ عنه)؛ إذ يستحيل ذلك الزمن إلى حاضر مستمرّ (وزمن التلقّي أو القراءة: أو هو زمن المرويّ له).

وفي قوله تعالى: ﴿وَتَحَسَّبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ ثنائيّة ضدّيّة وتقابل (طباقي إيجاب) بين (أيقاظ ورقود).. الفعل «تحسب» يوحي بالتوهم، ويفسح للمخيّلة متّسعاً للتخيّل. في حين يرتبط هذا الفعل -من جهة أخرى- بفعل الرؤية السابق ﴿وترى الشمس﴾ الذي يضعنا قبالة المنظر المرثيّ عن قرب. وما بين التخيّل والرؤية المباشرة يفسح نشاطُ الذهن المجال لتعدّد التصورات لدى المتلقّي الواحد، ثمّ لدى المتلقّين على اختلاف مستوياتهم. غير أنّ فعل الاطلاع: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ﴾ يؤكّد الرؤية المباشرة، فيُحدِث فجوة ما بين التخيّل والواقع؛ ممّا يوُلِّد لدى المتلقّي ما يشبه القلق في التوفيق بين التخيّل والواقع. وفي هذا الوضع يتمخّض الاطلاع المباشر على الفتية -وهمّ في كهفهم- ردّ فعل نفسيّ عنيف؛ يُحدِث صدمة لدى الرائي (المخاطب)، تلجئه إلى الفرار بحركة مدبرة تزيد من شدّة الرعب والهلع: ﴿لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَوَلَمْتُ مِنْهُمْ رَعْبًا﴾.

وما بين الإقبال والإدبار تضادّ يوَقَّر للمشهد عنفًا حركيًّا يَصوِّر الوضع النفسيّ للرأى المفترَض (الذي هو المخاطَب: أو المتلقّي). والتقابل والتضادّ من السّمات الجماليّة، حيث إنّ الضدّ يُقوِّم بصدّه، وهو ما يصدق على الحركة أيضًا شكلًا واتّجاهًا.

وفي (مُلئت) استعارة تمثيليّة تصوِّر حالة الانسحاق النفسيّ وما تفرزه من ردود أفعال وقائيّة. ثمّ إنّ بناء الفعل للمجهول يزيد الرعب رعبًا، فمجهوليّة الفاعل تحول دون التصدّي لفاعليّته.

نُلاحظ في الآيتين هذه المنظومة من الثنائيات المتضادّة أو المتقابلة، وهي تشكّل كثافة تجعل النصّ في عداد النماذج المتميّزة. ويشكّل التوازن على مستوى اللفظ ومستوى المعنى إلى جانب التناسق ملمحًا بديعيًّا ملحوظًا، فضلًا عن التوزيعات الإيقاعيّة القائمة على التساوي والتقابل ممّا يُضف إلى رصيد النصّ الجماليّ.

هكذا تتواصل -نفسياً وجماليّاً- الوشائج الفنيّة في هذه اللوحة القرآنيّة؛ ليتمّ التوصيل المطلوب إلى المتلقّي؛ لأنّه في هذه الحالة كأنّه مُشاهد حقيقيّ قبالة كهف حقيقيّ، بل يعايش الحدث بصفته شخصيّة داخل المشهد، وبهذه المعاشية يختصر الحقبة الطويلة بين زمن الواقع التاريخيّ (الماضي: زمن أهل الكهف) وبين (الحاضر: زمن التلقّي)... أمّا التلقّي النموذجيّ فيعتمد التذوق الرفيع لاستشفاف المزيد من الجماليّات الثرة.

تركيبيّة الحركة المتّجهة: تحرّك إبليس:

للحركة التي هي النقلة مبدأً ومنتهى؛ أي: ما منه الحركة وما إليه. وسواء ما كان منه بالفعل (في الحركة المستقيمة)؛ أم بالفرض (في الحركة المستديرة) فإنّ للحركة اتّجاهاتها التي يمكن تحديدها نسبةً إلى المكان، هذا النوع من الحركات يكون في الأجسام على مستوى الحسّ، لا سيّما في إطار المرئيات.. على أنّ هناك تحرّكًا في اطرّ اللامرئيات (غير المنظورة)،

ولا يمكن للإنسان رصده؛ لأنَّ المتحرِّك لا يقع تحت سيطرة الحواسِّ، بل إنَّ تحرُّكه يُتصوَّر في العقل. وتحرَّك (إبليس) من هذا القبيل. و(إبليس) نموذج للشخصية السلبية التي يَحْتَاط من مزالقها المؤمنون. فقد جاء في القرآن الكريم على لسانه وهو مقبل على إغواء بني البشر:

- ﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَبْتَهُهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿ الأعراف: ١٦-١٧.)

فقوله: ﴿ لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ «أي: لأضللنهم عن طريق الحقِّ وسبيل النجاة... والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك»^(١). إنَّ إقبال (إبليس) من الجهات الأربع، لذلك لم يقل: «من فوقهم» و«من تحت أرجلهم». وقيل لم يقل: «من فوقهم»؛ لأنَّ الرحمة تنزل من عند الله تبارك وتعالى، ولم يقل: «من تحتهم» لأنَّ الإتيان منه يوحش الناس.. وقيل: «من بين أيديهم»؛ من قِبَل الآخرة، و«من خلفهم» من قِبَل الدنيا، و«عن أيماهم» و«عن شمائلهم» من جهة حسناتهم وسيئاتهم. ويحتمل أن يكون: «من بين أيديهم» أي: من حيث يعلمون ويقدرُونَ على التحرُّز عنه، و«من خلفهم» من حيث لا يعلمون ولا يقدرُونَ، و«عن أيماهم» و«عن شمائلهم» أي: من حيث يتيسَّر لهم أن يعلموا ويتحرَّزوا ولكن لم يفعلوا لعدم تيقظهم واحتياطهم. وقيل: إن المراد جميع طرق الخير والشرِّ، فالخير يصدِّم عنه والشرُّ يُحسِّنُه لهم... قال (ابن عباس): «ولا يستطيع (إبليس) أن يأتي من فوقهم لئلاَّ يحول بين العبد ورحمة الله تعالى»^(٢).

وقد وردت في الدعاء الاستعاذة من تسلُّط الشيطان على الإنسان من جهاته كلها.. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: «اللَّهُمَّ.. أَحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي..

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٠٤/٢.

٢- السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين: ١٩٤/١.

وَأَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»^(١).

كما ورد في معرض إرسال رسل الله تعالى ذكرُ جهتين في قوله: ﴿ إِذْ جَاءَهُمُ الرَّسُولُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ (فصلت: ١٤).

إنَّ حركة (إبليس) في السياق المذكور في سورة «الأعراف» هي حركة مُقبلة باتجاه الإنسان دائماً، يدلُّ عليها الفعل (لَاتَيْبُهُمْ)، وهي حركة مُترصِّدة في الوقت نفسه؛ ويدلُّ على الترصُّد الفعل (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ). ويمكن أن ينسحب الحديث عن الحركة هنا إلى الحديث عن المكان فيما يتصل بالظروف «بين، خلف، أيمن شمائل»، فيقال بأنَّ المكان ثابت، والحركة تكون مع الجسم. وهذا يعني أنَّ الحركة تتَّجه نحو المكان باعتباره حاوياً للشيء المتمكن فيه، وأنَّ «المكان.. قابلٌ لتعاقب الأجسام عليه دون ممانعة»^(٢). في حين يرى آخرون «أنَّ المكان ليس بمثابة الوعاء أو الإطار العرَضِيَّ التكميلي؛ بل إنَّ علاقته بالإنسان علاقة جوهرية تلزم ذات الإنسان وكيانه؛ ذلك أنَّ «كلَّ تصوُّر للمكان وليد رؤية خاصة تمثِّل انحيازاً يجب استباطه من خلال أسلوبية الأثر وصيغ الوصف الواردة فيه»^(٣). والفهم الثاني للمكان يُعيننا على استيضاح حركة (إبليس): ﴿ إِنَّهُ يَرْتَدُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧).

١- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٠٤. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٧٦، البيضاوي، تفسيره: ٣/ ١٠، وابن منظور: لسان العرب: ١٣/ ٤٦٢.

٢- ينظر: حسن مجيد العبيدي، نظرية المكان في فلسفة ابن سينا، ص ١١٠، ١١١.

٣- ينظر: سمير المرزوقي وجميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ص ٦١، ٦٠.

المبحث الثاني

أشكال الحركة التصويرية

ثامنا- الحركة الدائرية :

الحركة الدائرية: تكون حركة الجسم دائرية إذا حدثت على مسار دائري ويكون اتجاه السرعة مماشياً لمنحنى الحركة. والحركتان: الدائرية والدورانية.. والحركة الدورية والدائرة.. والدورة -أنماط مهمة في حياة الإنسان، سواء أكانت على المستوى المادي أم على المستوى المعنوي (كما في منظور العلوم الإنسانية والفضول).

الحركة الدائرية والدورانية في القرآن الكريم:

يُعبّر عن الحركتين: الدائرية والدورانية بعدد من المواد اللغوية؛ أهمها: دَوْرٌ، حَوَاطٌ، حَوْلٌ، طَوَّقَ، لَفَّ، رَبَّطَ، صَرَّ، دَحَا، كَوَّرَ، طَوَّفَ... إلخ. وتتفاوت أعداد الآيات التي ورد فيها كلُّ من المواد المذكورة. وسنحاول أن نقف عند بعضها:

فالفعل «طَوَّقَ» يرد في سياق حديث القرآن الكريم عن البخلاء من الأغنياء، إذ يتوعددهم: ﴿ سَيَطُوفُونَ مَا حَجَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ١٨٠).

يطوَّقون: « الأظهر أنه مشتق من الطوق؛ وهو ما يلبس تحت الرقبة فوق الصدر، أي: تجعل أموالهم أطواقاً يوم القيامة فيعذبون بحمله.. والمعنى أنهم يشهرون بهذه المذمة بين أهل المحشر»^(١).

وضرب الطوق على الشخص أو على الشيء يعني محاصرته من جميع الجهات. وقد استعير الطوق المادي لمسألة معنوية، فالتطويق هنا من باب المجاز، وفيه كناية عن شدة العذاب يوم القيامة وعدم الإفلات منه.. ونلاحظ

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٤/١٨٢.

في مثل هذه السياقات؛ في مجال الحديث عن الحركة الدائرية والدورانية،
 أن التعبير القرآني يستثمر الكناية بشكل فني جمالي؛ إذ يجيل المعنى صورة
 شاخصة متحركة غاية في الدقة.. والفعل «لَفَّ» ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَلْفَنَّتْ
 السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٢٩، ٣٠).

«والتفت الساق بالساق»: أي: اتصت الشدة بالشدة؛ شدة آخر الدنيا
 بشدة أول الآخرة.. والمعنى التفت ساقا الإنسان عند الموت من شدة الكرب..
 وهو آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة؛ فتلتقي الشدة بالشدة إلا من
 رحمه الله؛ أي: شدة كرب الموت بشدة هول المطلق»^(١).

«على أن الساق مثل في الشدة»^(٢). فظاهرة اللف^(٣) تنجم عن حركة
 دورانية؛ وقد نقلت من دلالتها المادية إلى دلالة معنوية لتصوير حالة مرعبة
 تصويراً فنياً دقيقاً. فالتفاف الساق بالساق هو الوضع الجسدي المنظور،
 كناية عن تعطيل حركة الإنسان (و«للمساق» في هذا السياق معناه المجازي)،
 فهنا يحاصر الحرج الإنسان في زاوية ضيقة. فإذا عرف الإنسان ما سيؤول
 إليه في هذه الحال؛ فإن عليه أن يتدارك الأمر في الدنيا قبل فوات الأوان.

ويرد في القرآن فعل «الربط» المادي للتعبير المجازي عن التماسك
 الشعوري: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَجًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا
 أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص: ١٠)^(٤). الفعل
 الناقص «أصبح» يدل على الاستحالة؛ وهي ضرب من الحركة. وفارغاً
 «صفرًا من العقل.. (أي): طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش..
 و«ربطنا»: كما يُربط على الشيء المتفلت ليقرَّ ويطمئن»^(٥).. وحركة الربط

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١١٢/١٩.

٢- النسفي، تفسيره: ٢١٥/٤.

٣- ينظر: د. أحمد فتحي، الكناية في القرآن الكريم: ص ١٦٩.

٤- وانظر: الكهف: ١٤، الأنفال: ١١.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٢/٣٩٤.

تعني الشد؛ كناية عن التقوية، ومنه قولهم (رابط الجأش) في صفة من يحافظ على توازنه ويسيطر على تصرفاته ساعة الانفعالات الرهيبة.

والربط حركة دائرية وُظفَتْ هنا لمعنى الأحكام. وهكذا كان العون من الله تعالى لأم موسى في تجاوز محنة التخلّي عن فلذة كبدها (موسى عليه السلام).

ومن الأفعال الدالة على الحركة الدورانية: الفعل «صَرَّ» من الصُرَّة وهي العقدة:

- ﴿يُصِرُّونَ عَلَىٰ لِحْنِ الْأَعْظِمِ﴾ (الواقعة: ٤٦)^(١).

والفعل «دَحَا» من الدَحْيَة وهي البيضة:

- ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠).

ومن الصور القرآنية التي نستشف منها الحركة الدائرية أو الدورانية قوله تعالى: ﴿يَكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥)^(٢).

كوّرت: أي: «من كوّرت العمامة إذا لفضتها. أي: يُلْفُ ضوؤها لُفًا؛ فيذهب انبساطه»^(٣)... «والتكوير حقيقته: اللَّفُّ واللِّي، وهو تمثيل بديع قابل للتجزئة بأن تشبه الأرض بالرأس، ويشبه تعاور الليل والنهار عليها بلف طيات العمامة. ومما يزيده إبداعاً إثارة مادة التكوير الذي هو معجزة علمية من معجزات القرآن.. إن مادة التكوير جائية من اسم الكرة؛ وهي الجسم المستدير من جميع جهاته على التساوي، والأرض كروية الشكل في الواقع، وذلك كان يجهله العرب وجمهور البشر يومئذ فأوماً القرآن إليه بوصف العَرْضَيْنِ اللّذين يعتريان الأرض على التعاقب وهما النور والظلمة

١- وانظر: الجاثية: ٨، نوح: ٧، آل عمران: ١٢٥.

٢- وانظر: التكوير: ١.

٣- النسفي، تفسيره: ٤ / ٢٣٥.

أو الليل والنهار؛ إذ جعل تعاورهما تكويراً؛ لأنَّ عَرَضَ الكرة يكون كروياً تبعاً لذاتها. فلمَّا كان سياق هذه الآية للاستدلال على الإلهية الحقَّ بإنشاء السماوات والأرض اختير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء من خلق العَرَضِينَ العَظِيمِينَ للأرض مادَّة التكوير دون غيرها^(١). ولعلَّ المقصود أنَّ أشعَّة الشمس ساعة القيامة لا تسير باستقامة لاضطراب نظام الكون حينها.

ومن الصور القرآنيَّة للحركة الدائريَّة أو الدورانيَّة قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠-٣٩). أي: لكل واحد من الشمس والقمر سلطان على حاله؛ فلا يدخل أحدهما على الآخر فيذهب سلطانه إلى أن يبطل الله ما دبر من ذلك؛ فتطلع الشمس من مغربها.. وقيل: إذا طلعت الشمس لم يكن للقمر ضوء، وإذا طلع القمر لم يكن للشمس ضوء، ولا يشبه ضوء أحدهما ضوء الآخر^(٢). ولنا وقفة مع مادَّة (طَوَّفَ) ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٩)، في موضع قادم.

وتطالعنا الحركة الدائريَّة والحركة الدورانيَّة حين نستعرض مادَّة «دَوَّرَ» في القرآن الكريم، حيث وردت ست مرَّات في خمس آيات^(٣).

وقد وقفنا وقفة تفصيليَّة مع الآية من سورة الأحزاب المتضمَّنة صورة دوران أعين المناقطين في مبحث الحركة البصريَّة. وكذلك وقفنا في مبحثنا عن الحركة التعبيديَّة في الصلاة، وكلُّ يُعدُّ نموذجاً لحركيَّة الدوران.

وتطالعنا حركيَّة الدوران من خلال مادَّة (حَوَّطَ). فقد ورد في المعجم: «حَوَّطَ تَحْوِيطًا» بنى حوله حائطاً، فهو مُحَوَّطٌ، ومنه قولهم: أنا أَحَوَّطٌ حول

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ٢٢ / ٢٢٨، ٢٢٩.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥ / ٢٢.

٣- تنظر: الأحزاب: ١٩، التوبة: ٩٨، المائدة: ٥٢، الفتح: ٦، البقرة: ٢٨٢. وحول مادَّة «دور» ينظر:

محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

ذلك الأمر؛ أي: أدور. وحاطه: كلاًه ورعاه. وحِيطَة: أيضاً بالكسر، واحتاط بنفسه: أخذ بالثقة، وأحاط به: عَلِمَهُ، وأحاط به علماً^(١).

«ومعنى «يحيطون» يعلمون علماً تاماً، وهو مجاز؛ حقيقته أنّ الإحاطة بالشيء تقتضي الاحتواء على جميع أطرافه بحيث لا يشذ منه شيء من أوله ولا آخره، فالمعنى: لا يعلمون - علم اليقين - شيئاً من معلوماته^(٢).

وفي القرآن الكريم وردت مادة «ح و ط» (٢٨) مرّة^(٣).. في الغالب يكون المحيط بالشيء في القرآن الكريم هو «الله» تبارك وتعالى، وقد تكون الخطيئة، أو جهنم.. والمُحاط به «الكافرون» وعملهم.. ووجه الإحاطة هي قدرة الله تعالى في الهيمنة عليهم وَعِلْمُهُ بأحوالهم.

إحاطة المطلق للمغلق:

إحاطة المطلق للمغلق، أو إحاطة المغلق بالمطلق؛ ونقصد بها إحاطة اللامتناهي الذي لا يحده حد ولا يستوعبه حيز ولا يخضع لقوانين الزمان والمكان وهو الخالق سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وما يعبر عن صفاته؛ نقصد إحاطته للمتناهي الذي يشمل كل ما هو حادث من مخلوقات الله كالوجود والكون والطبيعة والإنسان وكل الكائنات والمادة والقوانين التي تحكمها.

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾ (البروج: ٢٠) .. «أي: لا يعجزه أحد، قدرته مشتملة عليهم»^(٤).

﴿ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩) . «أي: جامعهم يوم القيامة»^(٥)..

١- الرازي، مختار الصحاح، مادة «حوط»: ص ١٦٢.

٢- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٢٢/٣.

٣- حول مادة «ح و ط» ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم: ص ٢٢١، ٢٢٠.

٤- ابن منظور، لسان العرب: ٧/ ٢٨٠.

٥- ابن منظور، المصدر نفسه: ٧/ ٢٨٠.

ف«ما إحاطة الله بالكافرين؟ والجواب: إنه مجاز، والمعنى: أنهم لا يفوتونه؛ كما لا يفوت المحاط به المحيط به حقيقة^(١). وتكون إحاطة الله تعالى بالعلم^(٢)، وبالمسؤولية عليهم^(٣). وبالإهلاك^(٤). وإذا بحثنا عن رابط سببي يجمع الأقوال الثلاثة المتقدمة فسنجد أن الإهلاك يتطلب القدرة، وهي تتطلب العلم.

. ﴿ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ ﴾ (يونس: ٢٢). كناية عن أنهم «دنا من الهلاك، وأصل هذا أن العدو إذا أحاط بقوم أو ببلد فحاصره؛ فقد دنا أهله من الهلكة»^(٥).

إن الكائنات تخضع لمقاييس الحيز (التمكن). وإن قدرة الله مطلقة لا تخضع لتلك المقاييس: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٦) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (الحديد: ٣٠٢).

وعليه فإن إحاطة الله جل جلاله بكل شيء يعني أن المخلوقات متناهية، والله تعالى هو الباقي. إن مجازية الإحاطة، لا تعني - بالضرورة - التصور المادي للاستدارة؛ لحصر المخلوق في حيز مغلق بالمحيط، وإنما لتمكين مخيلتنا من تصور معنى علاقة السبب بالنتيجة واستيعابه، وكيفية إحاطة المطلق للمغلق، والله تعالى أعلم.

إحاطة المعنوي للمادي:

إحاطة المعنوي للمادي أو إحاطة المادي بالمعنوي، هي أن تستحوذ الأمور أو الظواهر أو القيم أو السمات الاعتبارية على الكائنات والأشياء الحسية التي تخضع للمقاييس ذوات الأجسام والأحجام... إلخ، كما في قوله تعالى:

١- الرازي، التفسير الكبير: ٨٠ / ٢.

٢- تنظر: الطلاق: ١٢، الجن: ٢٨، آل عمران: ١٢٠، الأنفال: ٤٧، هود: ٩٢، النساء: ١٠٨.

٣- تنظر: البروج: ٢٠، فصلت: ٥٤، النساء: ١٢٦.

٤- تنظر: الكهف: ٤٢.

٥- ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن الكريم، ص ٢٦٧.

﴿بَكَى مِنْ كَسَبٍ سَيِّئَةٍ وَأَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١). فـ«أحاطت به خطيئته: أي: مات على شركه»^(١). كان هذا ردًّا على اليهود^(٢): ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

والسيئات على نوعين: هناك سيئة صغيرة تُمحي بحسنه^(٣). وهناك سيئة تعدّ في الكبائر، وتُدخل صاحبها النار أو تخلّده فيها، كالكفر بالله والشرك به.. ومعلوم أن لفظ «الإحاطة» حقيقة في إحاطة جسم بآخر، كإحاطة السور بالبلد، وإحاطة الكوز بالماء، وذلك هنا ممتنع، فتحمله على ما إذا كانت السيئة كبيرة لوجهين: أحدهما: أن المحيط يستر المحاط به، والكبيرة لكونها محيطة لثواب الطاعات كالساترة لتلك الطاعات، فكانت المشابهة حاصلة من هذه الجهة.. والثاني: أن الكبيرة إذا أحبطت ثواب الطاعات فكأنها استولت على تلك الطاعات وأحاطت بها كما يحيط عسكر العدو بالإنسان؛ بحيث لا يتمكن الإنسان من التخلص منه. فكأنه تعالى قال: بلى من كسب كبيرة، وأحاطت كبيرته بطاعاته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون. فإن قيل: هذه الآية وردت في حق اليهود، قلنا: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب^(٤)..

الخطيئة -إذن- تحيط بمن كسب سيئة، وهي إحاطة مجازية؛ إذ إن في عبارة: ﴿أَحْطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ استعارة مكنية، فقد شُبِّهت الخطيئة بالعدو الذي يحيط بالمقاتلين أو بالمدينة، فحذف المشبه به أو المستعار منه، وأبقى لفظ الإحاطة للدلالة عليه، وبذلك اكتسبت الصورة المعنوية أبعادًا حسية

١- ابن منظور، لسان العرب: ٧/ ٢٨٠.

٢- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١/ ١١٨. وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ١/ ٥٧٩.

٣- تنظر: هود: ١١٤، الفرقان: ٧٠.

٤- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ٣/ ١٤٤.

تجسّد المعنى بشكل جماليّ بليغ^(١).

الظرف الدالّ على الدائرة والدوران:

يستعمل الظرف في اللغة لتوضيح الحالة التي يحدث فيها الفعل الحركي؛ من حيث الزمان أو المكان، وذلك عائد إلى تنوع الكيفيات الحركية وتفاوت درجاتها. وقد تكشف الظرفية عن الملابسات النفسية الحاصلة في أزمنة الأحداث أو أمكنتها.

ومن مفردات الظرفية المكانية: الظرف: «حَوْلَ»، فـ«حول الشيء»: جانبه الذي يمكنه أن يحوّل إليه»^(٢).. إن اقترن الظرف بفعل، فإنه يصوّر مسار حركة يأخذ شكل دائرة محيطية. ويشكّل الاسم المضاف إلى الظرف مركزاً لدائرة الحدث، ويقوم بالحركة فاعل الفعل (اسم صريح، أو ضمير يعود إليه). و«الحول: ما له من القوة.. ومنه «لا حول ولا قوة إلا بالله»...»^(٣).

تكرّر الظرف (حَوْلَ) في القرآن الكريم (١٥) مرّة^(٤). ومنه قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِئِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (الزمر: ٧٥).

«من جملة تلك الأحوال (أحوال الجنة) حَفُّ الملائكة حول العرش.. والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فيكون إيذاناً بأنها رؤيةٌ دُنُوٌّ من العرش وملائكته؛ وذلك تكريم له بأن يكون قد حواه موكب الملائكة الذين حول العرش. والحفُّ: الإحداق بالشيء والكون بجوانبه»^(٥).

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ (غافر: ٧).

١- ينظر: د. أحمد فتحي، الاستعارة في القرآن الكريم: ص ١٢٥ و ٢٠٧.

٢- المناوي، التعاريف: ١ / ٣٠٠.

٣- المناوي، المصدر نفسه: ١ / ٣٠٠.

٤- حول مادة «ح ول» ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لآيات القرآن الكريم، ص ٢٢١.

٥- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٢٤ / ٧٤.

الملائكة صنفان: صنف هم حملة العرش؛ وعددهم ثمانية (الحاقّة، الآية: ١٧) .. ويذهب بعضهم إلى أنّ « حملة العرش اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية»^(١).

وصنّف هم الحاقّون بالعرش، ولم يحدّد عددهم نصّ قرآنيّ.. في الآية المتقدّمة من سورة «الزمر» تتملّى عينُ البصيرة مشهدَ الملائكة الحاقّين من حول العرش. واسم الفاعل «حاقّين» يمتلك بُعدين: بُدأ يرسم الهيئة، وبعُدًا يدلّ على أنّ الحركة في حالة الاستمرار. وتلاحظ مغايرةً في ما توجي به الدلالة الظرفيّة في الآيتين المتقدّمتين: لا «من حوّل العرش» و«من حوّل».

وتتوفّر الصورة - في الآيتين - على أبعاد صوتيّة تُستوحى من دلالة الفعل المستمرّ: «يُسبّحون»، وما يعكسه المصدر «حمّد»، باقترانه مع فعل التسبيح؛ من ظلال صوتيّة تتمازج مع الأصداء الهامسة. ويرد مثله في مشهد من مشاهد يوم القيامة: ﴿ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ (طه: ١٠٨)؛ «أي: خُفِضَتِ الْأَصْوَاتُ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ وَخَفَّتْ»^(٢). إنّ «المكان» الذي يشير إليه الظرف «حوّل» هو مكان معنويّ لا يخضع لمفاهيم الحيّز المادّي، ولا لمقاييس المعارف عليها في الحياة الدنيا.

. ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

ويتجلّى الجلال والجمال - بأعمق معانيهما - في هذا المشهد الذي ليس له مثل قطّ.

١- ابن كثير، تفسر القرآن العظيم: ٤ / ٧١. وانظر ٤ / ١٤ منه.

٢- الزمخشري، الكشاف: ٨٨ / ٢، ٨٩.

تاسعا- الحركة الموجية :

تتجلّى الحركة في مشاهد البحر - بشكل متميّز وعنيف- في صور «الموج».. وكذلك في سير السفن، سواء في حالة هدوء البحر وسكونه، أم في حالة صخبه وهيجانه.

والمَوْجُ: ما ارتفع من الماء فوق الماء (أو فوق سطح البحر)، والفعل مَاجَ. المَوْجُ والجمعُ أمْوَاجٌ؛ وقد مَاجَ البحرُ يَمْوجُ مَوْجًا ومَوْجَانًا.. وتمَّوجَ: اضطربت أمواجه. وموج كلُّ شيءٍ ومَوْجَانُهُ: اضطرابه.. مَاجَ يَمْوجُ إذا اضطربَ وتحيرَ.. والناس يَمْوجون؛ ومَاجَ الناس: دخل بعضهم في بعض^(١)..

من جهة أخرى فالموجة: هي اضطراب ناتج عن مصدر طاقة، وينتشر هذا الاضطراب في وسط مادي.. ومن مقارنة معطيات المفاهيم الفيزيائية مع الدلالات المعجمية للمفردات؛ ومع ما قاله بعض المفسرين القدامى نخرج بالنتائج الآتية: تتفق الدلالات المعجمية مع الاصطلاح الفيزيائي على أنّ الموجة تعني الاضطراب.. وموجات البحر من النوع الميكانيكي، وهي عبارة عن حركة اهتزازية. وأطوار الموجات البحرية مختلفة، وتتفاوت أطوال الموجات وسعتها وأطوارها.. ويحدث التراكم والتداخل في الأمواج على المستوى الواحد من الماء.

وقد ورد ذكر «الموج» في القرآن الكريم (اسمًا ٦ مرّات)^(٢)، وورد في آية بصيغة الفعل مرّة واحدة^(٣). وصُوِّرَ الموج في القرآن الكريم مقترنة في الغالب بالحديث عن عقاب العُصاة والطغاة والكفّار والمشرّكين..

قلنا: تتجلّى الحركة في مشاهد البحر - بشكل متميّز وعنيف- في صور «الموج».. وكذلك في سير السفن، سواء في حالة هدوء البحر وسكونه، أم في

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة «م وج»: ٢/٣٧٠.

٢- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٨٠. وتظر: يونس: ٢٢، هود: ٤٢، ٤٣، النور: ٤٠ (مكرر) لقمان: ٣٢.

٣- الكهف: ٩٩.

حالة صخبه وهيجانه. فأما في حالة الصخب، فنذكر -على سبيل المثال- مشهد «سفينة نوح»: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يُبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَقِينَ ﴿٤٣، ٤٢﴾﴾ (هود: ٤٢، ٤٣).

بما أن الموجة «وهي ما ارتفع من جملة الماء الكثير عند اشتداد الريح»^(١)؛ فقد أقام النصّ بينها وبين الجبل علاقة تشبيهية؛ ف«الكاف للتشبيه وهي في موضع خفض نعت للموج»^(٢).. إن «تشبيه الموج بالجبال في ضخامته؛ إما لكثرة الرياح التي تعلو الماء، وإما لدفع دفقات الماء الواردة من السيول والتقاء الأودية الماء السابق لها، فإنّ حادث الطوفان ما كان إلا عن مثل زلازل تفجّرت بها مياه الأرض وأمطارٌ جمّة تلتقي سيولها مع مياه العيون»^(٣).

في هذه الصورة تكون الحركة معقدة.. حيث تتداخل مسارات الموج العاتي من جهة، وحركة سير السفينة من جهة أخرى. وإذا كانت الجبال تشكل الطرف الثاني من الصورة التشبيهية، فإنّ وجه الشبه يتمثّل في ضخامة كلّ من الموجة والجبل. وهنا نجد أنّ روعة التصوير تسينا رسوّ الجبل ورسوخه، فلا تصوّر غير عنف حركة الموج وضخامة حجمه.. لقد تكرّر ذكر الجبل في «مشهد الطوفان» ثلاث مرّات: فأما الأولى ففي الصورة التشبيهية -الآنفة الذكر- وهي تمهّد لحقائق تصويرية تليها، وأمّا الثانية فقد ورد ذكر الجبل على أنّه المكان الذي سيفرّ إليه ابن (نوح عليه السلام): ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴿٤٣﴾﴾ (هود: ٤٣).

غير أنّ الموج -الذي هو كالجبال- حال بين الأب وابنه، وهذا دليل على عظم الطوفان الذي غطّى المنطقة.. ودليل على أنّ الطوفان كان في منطقة

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢٨ / ٩.

٢- القرطبي، المصدر نفسه: ٢٨ / ٩.

٣- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٧٤ / ١٢، ٧٥.

جبلية لا سيما وأن سفينة نوح رست على جبل «الجودي»: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسْمَاءَ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

إنّ في مخاطبة «الأرض» بأسلوب النداء، ومثلها «السماء» تشخيصاً يمنحهما الحياة وأنسنة تهبهما الوعي والاستجابة، وهو من باب المجاز، ثم إنّ النداء يُشعر بالبعد^(١)؛ وهو ما يضيف على التعبير ملامح تعمق جماليّاته. وفي «ابلعي» و«أقلعي» استعارتان مكنيتان للدلالة على ضرورة التنفيذ وعلى الطاعة وسرعة الاستجابة. في حين جاء الفعل الماضي «غِيضَ» مبنياً للمجهول ممّا أتاح للمتلقّي مجالاً للتخييل، ولم يسند النصّ صفة الفاعلية إلى الماء؛ لأنّ الفاعل الحقيقيّ هو الله تبارك وتعالى. غير أنّ فعل الاستواء أسند إلى ضمير الغيبة العائد إلى السفينة. واستواء السفينة على سفح الجبل مكنها من الاستقرار وعدم الانقلاب، ويلاحظ تكرار الفعل المبني للمجهول «قيل» في بدء الآية وخاتمتها؛ وهو ما أشعر بموازنة العبارة وموسيقاها. وقد استشهد (ابن الأثير) بهذه الآية للدلالة على أنّ جمال العبارة يعود لفضيلة التركيب^(٢)، «فجمال الصورة هنا في تألف الألفاظ مع المعاني»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ (الحاقة: ١١).

نجد «الاستعارة التصريحية في حركة ارتفاع الماء؛ حيث استعار الفعل «طغى»؛ وهو من الطغيان بمعنى مجاوزة الحد؛ تعبيراً عن علو الموج وعتوه».

والمقصود بـ«حملناكم»: حملنا آباءكم؛ لأنّ نجاة آبائهم سبب ولادتهم،

١- ابن عاشور، المرجع نفسه: ٨٠٧٨/١٢.

٢- ينظر: ابن الأثير، المثل السائر: ٢١٣/١.

٣- د. حامد صادق قتيبي، المشاهد في القرآن الكريم: ص ٢٠٢.

والجارية: السفينة»^(١).. ويفهم من بعض المفسرين أن الطوفان كان عاماً وشاملاً، وأنَّ الناس كلَّهم من نسل (نوح) عليه السلام^(٢).

ويشبه القرآن الكريم أعمال الكفار بظلمات الموج والبحر: ﴿أَوْ كُظُمَتِ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ، سَحَابٌ ظُلُمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكُدُّهُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

في هذه الصورة تتراكم الظلمات لتزداد حلكة «ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على الموج، وظلمة السحاب على الموج.. و(لم يكد يراها) مبالغة في لم يراها؛ أي لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها»^(٣).

يمثل مشهد «الظلمات والموج» طرفاً ثانياً في تشبيه تمثيلي، والطرف الأول يمثل «أعمال الكفار» أو «كفر الكافر»^(٤). وتلاحظ في القسم الأول منه ثلاثة مظاهر: الحركة، العمق، الظلمة.. فأما الحركة: فموجية متراكبة، وعنيفة صاخبة.. تتوالى في أجزائها الحركتان الصاعدة والهابطة بشكل مطرد في كل طبقة من طبقات الماء ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾... وأما عمق البحر: فيزداد تدريجياً كلما ابتعدنا عن البيئة الساحلية الضحلة، وتتناسب زيادة الضغط الجويّ طردياً مع زيادة العمق.

إنَّ عالم ما تحت ماء البحر يكتنفه الغموض.. وأما الظلمة فحالكة، والظلمات -المقصودة في الآية- ثلاث: ظلمة البحر.. وظلمة الأمواج.. وظلمة السحاب كما تقدّم.. فإنَّ كان البحر لُجِّيًّا -كما في الآية- فهذا يعني أنه أكثر امتصاصاً للطاقة الضوئية؛ أي أكثر عتمةً وأحلك ظلمة. فأما ظلمة البحر فيقابلها مجازاً سوء المعتقد.. والمعتقد مستقره القلب.. وعليه فالبحر

١- ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٤/٦٠٠.

٢- ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٤/٤٢٢.

٣- النسفي، تفسيره: ٣/١٤٨.

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٢٨٤.

يقابل القلب.. وظلمة الأمواج تقابلها مجازاً ظلمة القول.. والقول يصدر عن اللسان.. وعليه فالأمواج في مقابل اللسان. وظلمة السحاب تقابلها مجازاً ظلمة العمل.. والعمل يُرمز له باليد.. وعليه فالظلمة في مقابل اليد.. وهكذا فسُرت الظلمات الثلاث ب: الاعتقاد والقول والعمل، وفسُرت أيضاً ب: القلب والبصر والسمع، بينما فسرها آخرون على أنها مراتب الكفر؛ فالكافر لا يدري، ولا يدري بأنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري!(^١)..

وعليه فيمكن القول إن التفاسير المتقدمة انتهجت التأويل الرمزي، وأخرجت معنى الموج من دلالاته المادية إلى دلالة معنوية.. وأما تشبيه أعمال الكافرين بظلمات «البحر اللجّي»؛ فمستفاد من قوله تعالى: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا﴾. فنفي «يكاد» في اللفظ هو إثبات في المعنى، وإثباته لفظاً هو نفي للمعنى. وتلاحظ في الفعل دلالة على مقاربة وقوع الحدث.. وفي تخريج «اليد» وجهان: الأول معناه: رآها.. والثاني: معناه لم يقارب الوقوع، أي لم يقع، وهذا القول هو المختار، وعليه فنفي مقاربة الرؤية أبلغ من نفي الرؤية، إذ قد ينفي الشيء وقوعه ولا ينفي مقاربتة، فكأنه قال: لم يقارب رؤيتها بوجهه(^٢).

وخرج بعض علمائنا معنى الآية تخريجاً رمزياً اعتماداً على المجاز، فالمقصود بتلاطم أمواج البحر تلاطم أمواج الشبه في صدر الكافر حينما يُعرض عن أقوال الله ووحيه، ويبقى متخبطاً في ظلام الضلال والجهل والباطل(^٣). هذا الربط بين الحسي والمعنوي -وما شابهه مما ذكرنا- يصدر عن رؤية تأويلية؛ تمثل منهجاً رمزياً في تفسير القرآن الكريم قد يصيب وقد يخطئ كما هو مقرر لدى العلماء الباحثين في مناهج التفسير.

ويشبه القرآن الكريم الموج بالظلل:

١- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ٢٤ / ٨.

٢- ينظر: الرازي، المصدر نفسه: ٢٤ / ٩.

٣- ينظر: واجدة مجيد الأطراقي، التشبيهات القرآنية والبيئة العربية، ص ١٠٢-١٢٠.

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْيَمِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ ﴾ (لقمان: ٢٢).

المعنى الجامع بين المشبه والمشبّه له في هذه الآية «الانتفاع بالصورة»^(١).. فغشاهم: بمعنى غطاهم... والظُّلَلُ: جمع ظُلَّة، والظُّلَّةُ: الشيء يُسْتَر به من الحرِّ والبرد^(٢)، أو هي ما يُسْتَظَلُّ به من الشمس؛ وترد بشكل ملحوظ في سياقات الغضب وصور العقاب. بينما ترد «الظلال» بشكل ملحوظ أيضًا في سياقات الحديث عن النعم؛ أو مقترنة بما يوضح هذه المغايرة بالوصف.. «الظُّلَلُ: جمع ظُلَّة، يريد أن بعضه فوق بعض، فله سواد من كثرتة، والبحر ذو ظلالٍ لأمواجه»^(٣)..

وعلى رأي، فإنّ في «قوله ﴿ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ ﴾، تشبيه الموج بالظُّلَلِ لِأَنَّ الموج يركب بعضه بعضًا، ويأتي الشيء منه بعد الشيء؛ فيقال: كالظُّلَلُ: يعني السحاب^(٤)؛ ويُذَكَّرُ أَنَّ التعاقب مظهر حركي.. وعلى رأي آخر: «قوله: «موج كالظُّلَلِ» وَحَدَّ «الموج» وَجَمَعَ «الظُّلَلِ». وقيل في معناه: كالجبال، وقيل: كالسحاب؛ إشارة إلى عظيم الموج. ويمكن أن يقال: الموج الواحد العظيم يُرَى فيه طلوعٌ ونزولٌ، وإذا نظرت في الجَرِيَّةِ الواحدة من النهر العظيم تبين لك ذلك، فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة»^(٥).

وما ذكّر من أنّ «الموج الواحد العظيم يُرَى فيه طلوعٌ ونزولٌ» هو في اصطلاح هذه الدراسة «الحركة الصاعدة» و«الحركة الهابطة»، وتعاقب الحركتين يولد الحركة الموجية أو الاهتزازية.

١- ينظر: أبو هلال العسكري، سرّ الصناعتين، ص ٢٤١.

٢- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة «ظ ل ل».. تقارن صورة «ظَلَل الأمواج» مع صورة «ظُلَّة الجبل». الأعراف: ٧. وتظر: المرسلات: ٢١، ٢٠.. والواقعة: ٤٣.

٣- ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن: ص ٣٤٥، ٣٤٤.

٤- ينظر: الفراء، معاني القرآن: ٢ / ٣٣٠.

٥- الرازي، التفسير الكبير: ٢٥ / ١٦٢.

ومن المشاهد المنتزعة من عالم البحر حال اضطرابه ما صَوَّرَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ لَوْضَعِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝ وَتَرَكَنَا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۝ وَفُجِعَ فِي الصُّورِ فُجِعَتَّهُمْ جَمْعًا﴾ (الكهف: ٩٨-٩٩).

ففي قوله: (بعضهم يموج في بعض) كناية عن حالة الفزع والهلع والفضوى والاضطراب. وفيه استعارة مكنية، فالناس ساعة الحشر تغدو أشبه بالبحر الصاخب، وقد حُذِفَ (المشبه به / المستعار منه) الذي هو البحر؛ ليعرض الطرف الآخر (المشبه / المستعار له)؛ (الذي هو الناس) بهذه الصورة من الاضطراب العنيف، فضلا عن تصوير سعة المساحة التي يزدحم فيها البشر على مدِّ البصر آنثذ.

إنَّ صورة البحر المائج الرهيب حاضرة في الواقع وفي المخيلة، وعليها (من خلال التصوير الاستعاري) تُقَاسُ صورة الحدث المستقبلي المزعج. بذلك قرّبت الصورة مشهدًا غائبًا؛ قرّبه إلى المخيلة وإلى الأذهان.

نور الله وظلمات الكفر:

إنَّ مشهد ظلمات الموج المشبه بها «أعمال الكفار» كما تقدّم كان قد ورد بعد الآيات التي تحدّثت عن «نور الله» تبارك وتعالى. عليه يجدر بنا أن نستوضح التعاقب السياقي بين الموضوعين: «نور الله» تبارك وتعالى و«ظلمات الكفر»؛ ذلك أن بين النور والظلمات تقابلا قائمًا على التضادّ، «فالنور» رمز الإيمان والخير والعدل والفضيلة والجمال.. و«الظلمات» رمز الكفر والشرّ والباطل والرذيلة والقبح.. من هذا الفهم تجد هذه الدراسة منفذًا لعقد مقارنة بين هذين الطرفين (النور والظلمات)؛ وصولاً إلى الكشف عن جوانب وأبعاد أخرى تتصل بعلاقة الصورة التشبيهية بين أعمال الكفار وظلمات البحر والأمواج. قال تعالى:

١- ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ مِثْلُ نُورٍ ۚ كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ

فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿ (النور: ٣٥).

٢- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿ (النور: ٣٩).

٣- ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ مُظْلِمَاتٌ مُبْعَضًا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُ لَمْ يَكْدِرْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿ (النور: ٤٠).

في الآية الخامسة والثلاثين من سورة «النور» ذكر «نور الله» تبارك وتعالى الذي يملأ السموات والأرض.. ويأتي التشبيه (الأول) وسيلة للتفصيل في صفات هذا النور.

ثم ينتقل الحديث بعده مباشرة إلى «أعمال الكفار». ويأتي تشبيه تلك الأعمال بـ «السراب» لاستجلاء مواصفاتها من خلال التفصيل في وصف المشبه به «السراب»... ويردّف التشبيه الثاني هذا بتشبيه ثالث (تشبيه أعمال الكفار بـ «ظلمات بحر لُجِّيٍّ»).. وبمقارنة الصور التشبيهية الثلاث نستطيع أن نستوضح المعاني العميقة (لا سيما النفسية منها) للمنظومة الصورية المتشكلة من وضاعة النور الإلهي في الطرف الأول، ومن قتامة ظلمات الكفر في الطرف الثاني.

وإذا أردنا أن نعاين تسلسل أجزاء هذه المنظومة وترابطها فسنلاحظ أن ما بين طريقتي التشكيل الكلي («صورة النور»/ و«صورة الظلمات») صورة (انتقالية)، إذا صحّت تسميتها لها. وتتمثل في «صورة السراب»، فالسراب يبدو للعيان اتصالات وتوهجاً نورانياً في هاجرة النهار الصحراوي، غير أن

هذا التوهج زائف وخادع، ليس من حيث وظيفة الإضاءة، وإنما من حيث خداعه لنظر الضمآن إلى قطرة ماء في الصحراء المنقطعة؛ إذ يحسب السراب ماءً!..

ويمكن تخريج المعنى على أن أعمال الكفار كظلمات في الدنيا وكسراب في الآخرة، أو أن أعمالهم كسراب، وعقائدهم كالظلمات.

عاشرا- الحركة الاهتزازية :

تُوصَف الحركة الاهتزازية بأنها: حركة ذهاب وإياب حول نقطة معينة تسمى: مركز الاستقرار، وعليه فإنَّ الحركة الاهتزازية هي نوع من الحركة الدورية ينعكس خلالها اتجاه حركة الجسم بفترات زمنية منتظمة، وتكرر دوراتها بفترات زمنية معينة كذلك؛ مثل حركة بندول الساعة، أو مثل حركة كرة تهتز على سطح مقعر، أو جسم معلق بنابض شاقولي. ويشترط لتوليد واستمرار الحركة الاهتزازية وجود مصدر مجهز للطاقة، يولد الاهتزاز؛ ويغذي الجسم بالطاقة التي يفقدها عند كل تذبذب. ووجود قوة تعيد الجسم إلى موضع استقراره تسمى (القوة المعيدة)؛ تتجه دوماً نحو موضع الاستقرار. ويذكر أن الحركة التوافقية البسيطة هي حالة خاصة من الحركة الاهتزازية.

وفي المعجم: «الهَزُّ: تحريك الشيء كما تهزُّ القنّاة فتضطرب وتهتزُّ، وهزّه يهزه هزاً؛ وهز به وهزّه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجُنْحِ النَّخْلَةِ نُسُقُطَ عَلَيْكَ رُطْبًا غَنِيًّا﴾: أي: حركي. والعرب تقول: هزّه وهز به إذا حرّكه... وإنما عداه بالباء لأنَّ في هزّي معنى جري.. ويستعار فيقال: هزرت الشيء هزاً فاهتزَّ أي: حرّكته فتحرك.. الهزُّ في الأصل: الحركة، واهتزَّ إذا تحرّك فاستعمله على معنى الارتياح أي: ارتاح.. وكلّ من خفّ لأمر وارتاح له فقد اهتز له... وأخذته لذلك الأمر هزّة أي: أريحية وحركة»^(١).

وصفوة القول: «هزَّ الشيء فاهتزَّ؛ أي: حرّكه فتحرك. والهزّة بالكسر: النشاط والارتياح»^(٢).

الحركة الاهتزازية في القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم مجموعة من الأفعال التي تدلّ على الحركة

١- ابن منظور، لسان العرب، مادة (هز ز): ٢٤٣/٥، ٢٤٤.

٢- الرازي، مختار الصحاح مادة (هز ز) ص ٦٩٥.

الاهتزازية بشكل أو بآخر، نشير إلى ما جاء منها في مادة (هَزَزَ)، (رَجَجَ)، (بَسَسَ)، (زَلَّ زَلًا)، (زَحَّ زَحًّا)، (ذَبَّ ذَبًّا)^(١).

يُلاحظ على مجموعة الأفعال المتقدمة الواردة في القرآن الكريم من التي ينتمونها الحقل الدلالي، في إطار الحركة الاهتزازية، أنها أفعال صحيحة أولاً، ومضاعفة ثانياً، وهي تنتمي إلى إحدى صيغتين تشترك أفعال كل منهما في البنية الصرفية ويوحدها الوزن.

الصيغة الأولى: فعل ثلاثي صحيح مجرد على وزن «فَعَلَ»؛ يتجانس فيه كل من العين واللام؛ ويدغمان ببعض؛ ف«هَزَزَ» يصح: «هَزَّ».

الصيغة الثانية: فعل رباعي صحيح مجرد على وزن «فَعَّلَ»؛ يتألف من مقطعين متكررين؛ أي: إن المقطع يتألف من حرفين، ويتكرر المقطع ذاته. مثل: «زَلَزَل».

والذي يعنيها مما تقدم التكرار في الصوت؛ هذا التكرار يُقدَّر أنه محاكاة لمدلول الاهتزاز. وسنقف مع حركة «جذع النخلة» وحركة «العصا» وحركة الزلازل على أنها نماذج للتأمل ولاستيضاح ملامح الحركة الاهتزازية وفعاليتها؛ بغية استجلاء جمالياتها الفنية.

صورة جذع النخلة:

قال تعالى، والخطاب موجه إلى سيدتنا (مريم): ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ جَنَاحَ النَّخْلَةِ سُقِّطَ عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيثًا﴾ (مريم: ٢٥).

١- الفعل (هَزَّى) مريم: ٢٥، الحج: ٥، فصلت: ٢٩، النمل: ١٠، القصص: ٣١ × مادة (ر ج ج): الواقعة: ٤ × مادة (ب س س) الواقعة: ٥ × مادة (ز ل زل) الزلزال: ٢١، الحج: ١، البقرة: ٢١٤، الأحزاب: ١١ × مادة (ز ح زح) آل عمران: ١٨٥، البقرة: ٩٦ × مادة (ذ ب ذب) النساء: ١٤٢. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الصفحات على التوالي: ٧٢٧، ٣٠٠، ١١٩، ٢٢٢، ٢٣٠، ٢٦٩.

«وهزي إليك» يعني: قيل لمريم حرّكي بجذع النخلة^(١) .. «أمرها بهزّ الجذع اليابس لتري آية أخرى في إحياء موات الجذع»^(٢) .. و«رطباً نصب بالهزّ، أي: إذا هزّزت الجذع هزّزه رطباً جنبياً. وعلى الجملة ف«رطباً» يختلف نصبه بحسب معاني القراءات»^(٣). و«الجذع»: هو القسم الأسفل من الشجرة.. وهزّي إليك أي: حرّكي جذع النخلة، واسحبيه باتجاهك. يقال: هزّه وهزّه به، وفي «تساقط» تسع قراءات^(٤).

إنّ الغاية من عمليّة الهزّ هي سقوط الرطب حول السيّدة (مريم)، وهذا واضح من حرف الجرّ «إلى» الذي يفيد الغاية، والمتّصل به ضمير الخطاب العائد إلى السيّدة (مريم)؛ الأمر الذي يقتضي أن يكون اتّجاه حركة الجذع باتجاه المحرّك؛ (أي: حركة مقبلة) ناتجة عن السحب. وبالمقابل فإنّ الجذب يتطلّب الدفع مباشرة (أي: حركة مقبلة تعقبها حركة مدبرة)، وعن الجذب والدفع يتولّد الاهتزاز، وعن اهتزاز الجذع ينجم سقوط الرطب (حركة هابطة).

و «أدخلت الباء في قوله (بجذع) .. كما قال (تبت بالدهن) بمعنى تبت الدهن فمعنى الكلام وهزي إليك جذع النخلة»^(٥). «الباء مزيدة للتوكيد.. فمن قرأ بالفوقية (تساقط) جعل الضمير للنخلة، ومن قرأ بالتحتيّة (يساقط) جعل الضمير للجذع»^(٦). والفعل (هزّي)، بصيغة الأمر، يعني أنّ الحدث يقع في المستقبل القريب إثر المبادرة بالاستجابة، (بدلالة الزمن النحويّ الذي ينبثق عنه زمن النصّ)، والفعل (تُساقط) ورد بصيغة المضارع؛ أي: إنّ وقوع الحدث يكون في المستقبل (القريب) أيضاً، غير

١- البغوي، معالم التنزيل: ١٩٢/٢.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٩٤/١١.

٣- العكبري، التبيان في إعراب القرآن: ٩٥/١١.

٤- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ٢٠٥/٢١.

٥- الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٧٢/١٦.

٦- الشوكاني، فتح القدير: ٢٢٩/٢.

أنه يوحى باستمرارية توفر الأمن الغذائي من الرطب الجنى لتقرر صاحبة الشآن به عيناً. لعلّ الجهد المبذول في هزّ جذع النخلة كان مدعاة لتيسير الوضع (الولادة). جاء في التفسير حول «أجاءها» قوله: « والمعنى: أن طَلَّقَهَا أَجَّأَهَا إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ، ثُمَّ يُحْتَمَلُ أَنَّهَا إِنَّمَا ذَهَبَتْ إِلَى النَّخْلَةِ طَلَبًا لسهولة الولادة للتشَبُّثِ بِهَا، وَيَحْتَمَلُ لِلتَّقْوِيَةِ وَالِاسْتِنَادِ إِلَيْهَا»^(١).

إنّ هزّ الشجرة جاء محاكياً للحالة النفسية التي كانت عليها السيدة (مريم) من خوف وحزن، لا سيما وقت المخاض؛ فقد زاولت ما يشبه الإسقاط النفسي على النخلة؛ حيث امتصّ هزّ الجذع نسبة ليست باليسيرة ممّا كان يعتلجها من رهبة ورعب.

وعليه، فإنّ جمالية المشهد تتمثّل بهذا التوافق والانسجام.. فضلا عن ما لحركة اهتزاز النخلة من جمال وتعبير عن الحياة. ويلاحظ جانب من جوانب جماليات الحركة فيما يترتب على اهتزاز النخلة من تساقط الرطب الجنى.. إنّها صورة جمالية رائعة!. لتتخيّل: حركة «أفقية/ متكررة».. «مقبلة/ مدبرة».. وحركة شاقولية/ هابطة، والحركتان (الأفقية والشاقولية المتعامدة عليها) متعاقبتان، وبينهما علاقة سببية؛ أي: أنّ اهتزاز جذع النخلة سبب في تساقط الرطب، ويمكن أن نخرّج اهتزاز الجذع على أن المقصود به اهتزاز سعفه؛ من باب إطلاق الكلّ وإرادة الجزء.. ويفهم من صيغة الفعل «تساقط» تعاقب السقوط على التدرّج (والتعاقب والتدرّج مظهران من مظاهر الحركة)؛ وهو ما يوحى بديمومته المترنة بالاهتزاز.

«كان جذعاً نخرّاً، فلمّا هزّت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثمّ نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثمّ اخضرّ، فصار بلحاً، ثمّ احمرّ فصار زهواً، ثمّ رطباً، كلّ ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا يتشذخ منه شيء»^(٢).

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢١/٢٠٢-٢٠٣.

٢- العكبري، التبيان في إعراب القرآن: ٩٥/١١.

وعليه فإننا نستطيع أن نطلق لمخيّلتنا العنان؛ فنتخيّل الحركة الاهتزازيّة في هذه الصورة ملوّنة باللون الأخضر (لون السعفة)، وباللون السنجابي (لون الجذع).. ونتخيّل الحركة الهابطة في هذا المشهد ملوّنة باللون الأصفر الذهبيّ أو الأحمر أو الأسود (وكلّها من ألوان الرطب).. إذا تمّ لنا ذلك فسيتحقّق التمتعّ بجمال (مرئيّ - متخيّل)!. وهنا نتساءل: أليس مثل هذه الجماليّة مدعاة لتخفيف شدّة الضغوط النفسيّة التي كانت تعاني منها السيّدة (مريم)؛ ممّا يدخل في وظيفة الجمال وغايته النفعية؟

معجزة العصا:

قال تعالى، والخطاب موجّه إلى (موسى عليه السلام):

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ (النمل: ١٠).

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٢١﴾﴾ (القصص: ٢١).

كانت عصا موسى إحدى المعجزات التي تقدّم بها إلى (فرعون) تأكيداً لصدق نبوّته، وتحديداً لمجموع السحرة الذين استنفرهم مولاهم (فرعون) ليُنازلوا (موسى) بالحبال والعصيّ.

في «قوله تعالى: (تهتزّ كأنها جانّ)»، قال: الجانّ حيّة بيضاء.. والمعنى: أنّ العصا صارت تتحرّك كما يتحرّك الجانّ حركة خفيفة، قال وكانت في صورة ثعبان؛ وهو العظيم من الحيّات ونحو ذلك. شبّهها في عظمتها بالثعبان وفي خفتها بالجانّ، ولذلك قال تعالى مرّة (فإذا هي ثعبان)، ومرّة (كأنها جانّ). والجانّ الشيطان أيضاً^(١).

وفي الصورة التشبيّه «كأنها جانّ» فسحةٌ مُتاحة أمام المتلقّي ليشغلها

١- ابن منظور، لسان العرب: ٩٨/١٢.

بما يملي عليه تخيُّله لها.. وفي هذا مجال لتعدّد الإيحاءات والتخريجات أمام المتلقّي.. إنّ العلاقة قائمة بين الجنّ والسحر. (وقد أُبطل التشبيهُ تخريجها على الحقيقة لكونه مجازاً)؛ وبذلك تبطل شبهة انتماء «عصا موسى» إلى عالم الجنّ على الحقيقة، وهكذا تنتفي شبهة السحر عن (موسى عليه السلام)، وتثبت له إحدى معجزاته. وقد قيل: «وأما تشبيهها بالجانّ فالمراد بأنّها في اهتزازها وخفّة حركتها وسرعتها كالجانّ وهي في صورة الثعبان»^(١).

ويُذكر أنّ هذا المشهد ينتهي بحركة مدبرة؛ تتمثل في قوله تعالى (ولّى مدبراً ولم يُعقب).. لكنّ الدعوة للإقبال جاءت صريحة في سورة «القصص» (ومفهومة في سورة النمل) ترسم مساراً معاكساً يخفّف من الحالة النفسية التي اعترت في حينها (موسى عليه السلام) متمثلة في الخوف.. وعليه فإنّ دعوة الله تعالى (لموسى عليه السلام) إلى الإقبال كانت مدعاة لانقلاب الخوف إلى أمن واطمئنان وسكينة.

الحركة الثعبانية:

إذا كان لتوليد الحركة الاهتزازية شروط فلا بدّ من وجود مصدر مجهّز للطاقة يولّد الاهتزاز، ويغذيّ الجسم بالطاقة التي يفقدها عند كلّ تذبذب (والطاقة هنا في قصّة موسى معنوية خفية لأنّها معجزة ربّانية أكثر ممّا هي طاقة ماديّة).. ووجود الطاقة إلى جانب القوّة المُعيدة تُعيد الجسم إلى وضع الاستقرار. إنّ هذه الطاقة كانت حقيقيّة وفاعلة بالنسبة «لعصا موسى»، بينما كانت متخيّلة بالنسبة لعصيّ السحرة ولحبالهم، وبهذا يُفسّر قوله تعالى (تلقف ما صنعوا).. «والحيّة اسم جنس ينطبق على الصغير والكبير والأُنثى والذكر، وقد انقلبت حين ألّقاها عليه السلام ثعباناً وهو العظيم من الحيّات كما يفصح عنه قوله تعالى: (فإذا هي ثعبان مبين). وتشبيهها بالجانّ وهو الدقيق منها في قوله سبحانه: (فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانّ)

١- ابن ناقيا البغداديّ، الجمان في تشبيهات القرآن: ص ١٧٨.

من حيث الجلادة وسرعة الحركة، لا من حيث صغر الجثة، فلا منافاة..
وسُميت ثعباناً أخرى وعبر عنها بالاسم العام للحالين؛ والأول هو الأليق
بالمقام»^(١).

وكما ورد تشبيهه «عصا موسى» بالجان في سورتي «النمل» و«القصص»،
فكذلك ورد ذكر انقلابها ثعباناً. وتغيير المادة وبعث الحياة في الجماد، مظهر
من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى وإتقان صنعه. فالتغيير والاستحالة
ضربان من ضروب الحركة في الجوهر، والإتقان عنصر مهم من عناصر
الجمال، (سواء كانت استحالة العصا ثعباناً على الحقيقة أم تشبيهاً بها
على المجاز)، كما في سورتي «الأعراف» و«الشعراء»:

﴿ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِنَّتَ ثَيَابِئِ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الأعراف: ١٠٦، ١٠٧).

- ﴿ قَالُوا يَمْوَسِيٰٓءُ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ
الْقَوٰٓءُ فَلَمَّا الْقَوٰٓءُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ
عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴿١١٧﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ (الأعراف: ١١٥-١١٨).

«اللقف»: يعنى سرعة الأخذ لما يرمى إليك باليد أو باللسان. وفي ذلك صورة
استعارية معبّرة. و«إذا» تفيد المفاجأة وتؤكد سرعة التحول.. و«ما يأفكون»
أي: ما يزورونه من الإفك وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه»^(٢).

- ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الشعراء: ٣٠).

كذلك ذكرت «عصا موسى» على أنها «حية»: ﴿ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ
تَسْعَىٰ ﴿٣٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ (طه: ٣٠).

١- الآلوسي، روح المعاني: ١٦ / ١٧٧.

٢- البيضاوي، تفسيره: ٤٨/٣.

ويمكن تخريج كلمة «حيّة» على معنى «أفعى»، كما لا يستبعد تخريجها على أنّها صفة من «الحياة». والمعنى الأوّل إمّا أنّها انقلبت على سبيل الحقيقة، وإمّا تشبيهاً على المجاز. أمّا على معنى وصفها بالحياة فمن باب الأنسنة أو التشخيص الاستعاريّ...

ومهما يكن فالذي يعيننا من هذه الصور قدرة العصا على الحركة الانتقاليّة وطريقة حركتها التي نرجّح «موجيبتها» قياساً على طريقة زحف الأفعى، وهذه لا تتعارض مع «الاهتزاز» الذي وُصفت به العصا؛ إذ إنّ لكلّ حالة خصوصيّاتها. وقد ذكر القرآن الكريم بعضاً من طرائق الكائنات في حركاتها الانتقاليّة: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٤٥).

حركيّة الزلازل:

الزلزلة: «شدة حركة الشيء»^(١). والزلزلة والزلازل تحريك الشيء.. وزلزل الله الأرض زلزالاً بالكسر فتزلزلت. وقوله عزّ وجلّ: (إذا زلزلت الأرض زلزالها): إذا حُرّكت حركة شديدة.. والزلزلة التخويف والتحذير؛ من قوله تعالى (وزلزلوا حتّى يقول الرسول) أي: حُوفوا وحُدّروا. والزلازل: الشدائد والأحوال. والزلزلة في الأصل الحركة العظيمة والإزعاج الشديد، ومنه «زلزلة الأرض» وهو ههنا (في «وزلزلوا حتّى يقول...») كناية عن التخويف والتحذير؛ أي: اجعل أمرهم مضطرباً متقلّلاً غير ثابت^(٢).

ويكاد موضوع (الزلازل) ينفرد بخصوصيّة مغايرة لفهمنا العامّ للمدلولات الجماليّة؛ لما يترتّب على حدوثه من دمار مرعب وخراب يقضي على مظاهر الجمال. قالوا: «إنّ زلزلة الأرض مع ما فيها من الجبال يبخر

١- الرازي، التفسير الكبير: ٢/٢٣.

٢- ابن منظور، لسان العرب: ١١ / ٣٠٧، ٣٠٤.

يجتمع تحت الأرض فيحركها»^(١). وهذا يعني أنّ في ظاهرة الزلازل مظاهرَ حركيّة تُعدّ من أعنف ما يواجه الإنسان من كوارث بيئيّة وطبيعيّة على سطح الأرض، لا سيّما إذا ما اقترنت بثورة بركان. ويذكر الجيوفيزيائيون أنّ الزلازل أو الهزّات الأرضيّة هي أعنف الظواهر الطبيعيّة، وتنتج عن حركة اهتزازيّة سريعة في الصخور القريبة من السطح، ولا تستغرق الهزّة الواحدة وقتًا طويلًا؛ ومع ذلك قد يكون الدمار الناتج هائلًا. فالزلازل هو: ارتعاش.. واهتزاز.. وتموج.. وتحركٌ عنيف في قشرة الأرض أو الطبقات الداخليّة القريبة من السطح.. إنّ الطاقة المتحرّرة في البؤر الزلزاليّة تنتقل في باطن الأرض على شكل موجات في جميع الاتجاهات. فالموجات المتّجهة إلى السطح تسبب الاهتزازات المدمّرة للمباني والمنشآت، وعليه فإنّ الأرض هي أبعد ما تكون عن السكون. هذه الحركة هي انعكاس لديناميّة الأرض واستمرارها^(٢).

وإذا كان معنى « زَلِّلُوا »: أي: حُرِّكُوا فإنّ أصل الزلزلة في اللغة من: أزال الشيء عن مكانه، فإذا قلت: زلزلته؛ فتأويله أنّك كررت تلك الإزالة، فضعف لفظه بمضاعفة معناه، وكلّ ما كان فيه تكرير كررت فيه فاء الفعل^(٣).

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ الْبِئْسَ الْأَسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ الْآيَاتُ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة: ٢١٤).

ويجوز أن يكون أصل الكلمة من «زلّ عن الموضع» أي: زال عنه وتحرك. وزلزل الله قدمه أي: حركها، وهذا اللفظ يستعمل في تهويل الشيء^(٤). إنّ

١- ينظر: الرازي، المصدر السابق: ٢٨/٢٤٣.

٢- ينظر: د. سهل عبد الله السنوي، مقدّمة في الزلازل: ص ٢٤، ٢٦، ٢٩.

٣- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ١٩/٦.

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٣.

الخائف لا يستقرّ بل يضطرب قلبه؛ ولذلك لا يقال هذا إلا في الخوف المقيم المقعد^(١)؛ لأنه يُذهب السكون، وعليه فقد اعتمد النصّ التصويريّ البيانيّ إطاراً لاستعارة مكنية في (زلزلوا)؛ لما لهذا الفعل من إيحاء بالشدّة والعنف اللذين ينسجمان مع الوضع النفسيّ للمجاهدين الصامدين في تلك المعركة ذات البأس الشديد. قيل: نزلت هذه الآية في غزوة «الخنديق» حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والحزن^(٢). ولقد جاء الفعل «زلزلوا» دقيقاً في هذا السياق، فهو من الزلزال، وأصل الزلزال هو «التحريك العنيف الشديد»^(٣).

إنّ عبارة: «أزال الشيء عن مكانه» تُخرّج حركة الإزالة على معنى النقلة الأنيّة، وتكرار الإزالة يرجع إلى الحركة المتكرّرة. والرابط بين زلزال الحرب وزلزلة القيامة يتجلّى بتذكير المجاهدين بيوم القيامة؛ الأمر الذي يحفزهم على الاستشهاد في سبيل الله تبارك وتعالى قدماً واختياراً؛ فالثمن هو الجنة.

خُسْف الأَرْض:

قال تعالى:

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾
(العنكبوت: ٤٠).

﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾
(الكهف: ٩٨).

١- تنظر: النازعات: ٩٦.

٢- ينظر: الرازي، المصدر السابق: ١٩/٦.

٣- ينظر: السكاكي، مفتاح العلوم: ص ١٨٤. ويحيى العلوي، الطراز: ص ٢٤٥.

لقد أشار القرآن الكريم إلى خسف الأرض بالكفار والطغاة والعتاة، على أساس أنه وسيلة من وسائل العقاب والعذاب.. وقد ذكره القرآن الكريم في معرض العبرة. ومن هنا تعددت الآيات التي تحذّر من هذا النوع من العقاب: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (النحل: ٤٥).

تكرّر مادّة (الخسف) ثماني مرّات في القرآن الكريم^(١)، أربع بصيغة الفعل الماضي، ومثلها بصيغة المضارع. ويلاحظ تكرار الاستفهام الإنكاري: «أأمنتم.. فأمنتم.. فأمن..» الذي يخرج إلى التهديد مقترناً بفعل الأمن أو الأمان، وذلك بإمكانية وقوع خسف الأرض بهؤلاء الضالّين.. قد يكون خسف الأرض محلياً؛ وقد يكون عاماً شاملاً، العموم والشمول يكون يوم القيامة، حيث ترزّل الأرض زلزالها، وتفقد توازنها، ويتبعها قذف ما في باطنها من حمم.

﴿ءَأْمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ (الملك: ١٦).
وأما الخسف المحليّ المحدود فكما كان من أمر (قارون)؛ إذ أنه « لما ذكر تعالى اختيال (قارون) في زينته وفخره على قومه وبغيه عليهم عقب على ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض»^(٢). فابتلته وكنوزَه على مرأى ممّن حوله...

وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْجَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٨)، ينتهي اثمان الخسف بجانب البرّ.. والتأكيد على هذا الجانب إنّما جاء تعقيباً على أزمة من يمسه الضرُّ في جانب البحر، والمقصود به الفرق في عمق البحر. ف«الخسف والخسوف: هو دخول الشيء في الشيء.. وقوله ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْجَانِبَ الْبَرِّ ﴾

١- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٢٢٢.٢٢٣.

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٤٠١/٢.

أي: نغيبكم جانب البرّ.. فالغرق تغيب تحت الماء، كما أنّ الخسف تغيب تحت التراب^(١).

﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (الملك: ١٦). هذه الآية سبقتها آية أخرى تصف الأرض بـ«الذلول» التي سخرها الله عز وجل لبني آدم، وحثّ الناس على المشي في مناكبها كناية عن السعي والتمتّع برزق الله عز وجل.. ثم استأنف بأسلوب الاستفهام الإنكاري مهدياً بخسف الأرض بالعصاة، وبمنكري النعم.

«قالوا: معناه: إنّ الله عز وجل يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرّك فتعلو وهم يخسفون فيها؛ فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين»^(٢).

وفي قوله ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾: إذا كانت مهامّ «النذر الزلزالية»- بدلالاتها العلميّة/ الاصطلاحية الحديثة- اتّقاء التدمير الزلزالي، أو التخفيف من مخاطره. فإنّ ذكر «النذر» في السورة ورد على سبيل تفادي وقوع الزلزال؛ وذلك بخشية الله جل جلاله والتقرّب إليه بصالح الأعمال التي يدعو إليها القرآن الكريم. وهذا أحد الفروق بين دراسة «الزلازل» علمياً ودينياً؛ حيث إنّ القرآن الكريم وظّف التحذير من هذه الظاهرة للهداية وتقويم سلوك العباد.

الحركة الزلزالية في مشاهد يوم القيامة:

ورد في القرآن الكريم الفعل (تَمُورُ) مرّتين، والمصدر (مَوْرًا) مرّة واحدة. ومآر: تحرّك، جاء وذهب، ومنه قوله تعالى^(٣):

﴿ءَأْمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (الملك: ١٦).

١- ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ١١/٢١.

٢- الرازي، المصدر نفسه: ٧٠/٢٠.

٣- الرازي، مختار الصحاح، مادة «م ور»: ص ٦٢٩.

- ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ (الطور: ٩).

نلاحظ في سورة « الملك » أنّ الأرض هي التي تمور.. بينما في سورة «الطور» السماء هي التي تمور. وتمور مَوْرًا: تموج موجًا. والمور: خروج عن المكان وتردد وتموج..

وفي أول سورة «الحجّ» نقرأ قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ٢، ١). لقد «اختلف أهل العلم في وقت كون الزلزلة التي وصفها جلّ ثناؤه بالشدّة؛ فقيل هي كاتنة في الدنيا قبل يوم القيامة.. وقيل قبل الساعة.. وقيل هذا في الدنيا قبل يوم القيامة»^(١).

ويلاحظ أنّ سمة التناسق الجماليّ تتجلّى في جزئيات المشهد، وفي جرس الألفاظ ليبدل على صورة معناه، وليؤلف مع بقية الألفاظ إيقاعًا يتناسب مع فضاء المشهد من جهة.. وفي اتّساق المشهد كلّ مع السياق الذي يُعرض فيه من جهة أخرى. ومشاهد يوم القيامة كلّها مسوقة لغرض دينيّ عن طريق الوجدان.. وفي هذه الآية يكاد ينحصر تصوير هول يوم القيامة في النفوس الأدميّة الواعية، وذلك من خلال الخطاب الأوّل الموجه إلى «الناس» جميعًا. وتتطلق حركة المشهد النفسيّة بدءًا بالغرض الدينيّ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾..

ثمّ يوظف القرآن الكريم لهذه الغاية ما يلي من جزئيات المشهد بعنف حركته الزلزاليّة الرهيبة. ولعلّ وضع المتلقّي في موضع المشاهدين، وليس المشاركين في هذا المشهد، جاء من باب كون المشهد إنذاريّ وتهديديّ، الغاية الأولى منه ترغيب الناس في تقوى ربّهم من خلال ترهيبهم بزلزلة الساعة

١- الطبري، تفسيره: ١٧/١٠٩.

وما يتبعها من تصوير أحوال الناس يوم الفزع الأكبر. أي: إن «فائدة ذكر هول ذلك اليوم التحريض على التأهب له والاستعداد للعمل الصالح. وتسمية الزلزلة بـ«شيء» لأنها حاصلة متيقن وقوعها»^(١)..

إن ثنائية «الترغيب/ والترهيب» تقيم تقابلاً فاعلاً تتمخض عنه نتائج أكثر عمقاً مما لو اكتفي بتصوير أحد طرفي الثنائية هذه. ولهذا نجد إحدى أهم سمات الأسلوب القرآني في عرض مشاهد يوم القيامة أنه يقابل دائماً بين صور عذاب أهل النار وصور نعيم أصحاب الجنة.. ويحتمل أن يعود الضمير في (ترون) و(ترى) إلى الذين « لا يحزنهم الفزع الأكبر» من الصالحين الموجّه إليهم الخطاب: ﴿ وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ مُنُونٌ ﴾ (النمل: ٨٩) ..

إذن نحن أمام مشهد مرثي لأحوال الناس المفزعة والرهيبه حال زلزلة الساعة.. «فإن قلت: لم قيل أولاً: «ترون»، ثم قيل: «ترى» على الأفراد؟ قلنا: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة، فجعل الناس جميعاً رائيين لها، وهي معلقة آخرًا بكون الناس على حال من السكر، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيًا لسائرهم. وضمير المفعول في «ترونها» يحتمل أن يرجع إلى الزلزلة، أو أن يرجع إلى «الساعة» لتقدم ذكرهما، والأقرب رجوعه إلى «الزلزلة» لأن مشاهدتها هي التي توجب الخوف الشديد»^(٢).

ويترتب على ذكر الزلزلة ثلاثة أحوال:

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ الذهول حالة ذهنية، تعقب الدهشة المفاجئة التي هي بدورها حالة نفسية. وخص المرضعة لأنها أحرص فاعل على إنجاز فعله.. وفي قوله تعالى ﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا ﴾ نجد الإسقاط يوحي بحركة هابطة تناسب وضع الاندهاش والذهول الذهني. وخص الإسقاط -ربما- للتأكيد على

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٢، ٥٠.

٢- الرازي، التفسير الكبير: ٤/٢٢.

انقطاع النسل، ووضع حدّ لتعاقب الأجيال بقيام الساعة.

﴿ وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ ﴾ . قيل «من شدّة الأمر الذي قد صاروا فيه قد دهشت عقولهم وغابت أذهانهم فمن رأهم حسب أنّهم سكارى»^(١) .. وقيل «أي: من هولها وممّا يدركهم من الخوف والفرع؛ وما هم بسكارى من الخمر، وقال أهل المعاني: وترى الناس كأنّهم سكارى»^(٢) .. وقيل « ما هم بسكارى على الحقيقة، ولكنّ عذاب الله شديد.. إنّ الزلزلة يراها الجميع وأثر السكر إنّما يراه كلّ أحد على غيره»^(٣) .. «والأحاديث في أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدًّا»^(٤) .

القسم الأوّل (وترى الناس سكارى) على التشبيه، والثاني (وما هم بسكارى) على التحقيق. وهذا هو الحال الثالث الذي يعود بنا إلى الحال الأوّل «النفسيّ/ الذهنيّ حالة (ذهول المرضة) من حيث الفرع والرهبّة وعدم سيطرة الذهن على حركة الإنسان، أي: من حيث فقدّ التوازن. والفرق بين الحالة الأولى والحالة الثالثة (الناس سكارى).. أنّ الأولى (ذهول المرضة) تكاد تجمّد الحركة، بينما في الثالثة تكون الحركة غير هادفة (عشوائية) وعنيفة.

وفي الآيات الكريمة يتجلّى الأسلوب الكنائيّ والتعريض بوضوح؛ حيث ينتظم فيها أكثر من كناية، فالزلزلة يُراد بها اختلال نظام الكون. «تذهل كلّ مرضعة عمّا أرضعت» يراد بها رهبة الفرع.. و«تضع كلّ ذات حملٍ حملها» إضافة إلى شدّة الذعر، فالعبارة تشير إلى انقطاع النسل، و«ترى الناس سُكَارَى» إشارة إلى فقدّ توازنهم وعدم سيطرتهم على حركاتهم وتصرفاتهم. وهذا التأطير البيانيّ لصورة يوم القيامة، مع الإيقاعات

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٠٦/٣.

٢- القرطبي، المصدر السابق: ٥/١٢.

٣- البيضاوي، تفسيره: ١١٣/٤.

٤- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٢٠٦/٣.

الحادّة والعنيفة، تقرّب إلى أذهاننا حدثاً مستقبلياً لا بدّ منه.
ويذكر أنّ إقامة علاقة بين حالة فقدّ التوازن الناجمة عن السُّكْر، وبين
حالة فقدّ التوازن من هول الفرع الأكبر فيها ملمح بلاغيّ يوحي باستعارة
تصويريّة على سبيل التمثيل.

المبحث الثالث انسيابية الحركة التصويرية

الحركة الانسيابية

الانسيابية: تعني استمرارية الحركة بشكل متوافق ومنسجم، وتتطلب التحكم والسيطرة على القوى الداخلية والخارجية، حتى يتم الانتقال السليم بين مراحلها المتوالية.

والحركة الانسيابية على نوعين: حرّة، ومقيّدة. فالحرّة تعني: الاستمرار، والحركة المقيّدة تعني: القُطْع مع عدم الإخلال بالتوازن العام للحركة^(١). أمّا الحركة المتكرّرة، فهي حركة تعيد نفسها ما بين البدء والمنتهى. وستناول في هذا المحور الحركتين: المستمرة والمتكرّرة.

حادي عشر: الحركة المستمرة (الديمومة)

الحركة المستمرة تقابل المتقطّعة، وهي أنواع، منها: المتصلة، والمتكرّرة، والدورية. وتصنف الكائنات إلى ساكن ومتحرك، ولا بدّ لحركة المتحرك من مدى أو أجل، قد يطول وقد يقصر (في المكان والزمان)؛ أي: ليست أبدية. وقد تعني استمرارية الحركة الاتصال الحركي وعدم الانقطاع. وقد تكون متقطّعة، ولكنّ حدوثها يتعاقب بشكل دوريّ منتظم. ومن مصطلحات هذا النوع من الحركة: الديمومة، الأزلية، السرمديّة، الأبدية، اللامتناهية. ودلالاتها جميعاً على الحقيقة فيما يتّصل بصفات الله تبارك وتعالى، وعلى المجاز مع كلّ مخلوق حادث..

من اللامتناهي: قوله تعالى في صفة كلمات الله عز وجل:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جَنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (الكهف: ١٠٩). (نفذ الشيء) إذا تمّ وفرغ.. (ولو جئنا

١- ينظر: د. أمين أنور الخولي ود. أسامة كامل راتب، التربية الحركية: ص ٢٢.

بمثله مددًا) أي: زيادة على البحر عددًا أو وزنًا^(١).

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ (لقمان: ٢٧). قيل: قصد (بالكلمات) الكلام القديم الذي لا منتهى له.. جازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفضيمًا.. و(لنفد البحر) قبل أن ينفد ثواب من قال: «لا إله إلا الله».. إن كلمات الله تبارك وتعالى غير متناهية، وعلمه محيط بكل شيء، فهو يعلم ما في الوجود «من مثاقيل الذرّ.. ويعلم الأجناس كلها.. وما في الشجرة من ورق وما فيها من ضرّوب الخلق وما يتصرّف فيه من ضرّوب الطعم واللون؛ فلو سمى كلّ دابة وحدها وسمى أجواءها على ما علم من قليلها وكثيرها وما تحوّلت عليه من الأحوال وما زاد فيها في كلّ زمان، وبين كلّ شجرة وحدها وما تفرّعت إليه وقدر ما يبس من ذلك في كلّ زمان، ثمّ كتب البيان على كلّ واحد منها، ما أحاط الله جلّ ثناؤه به منها، ثمّ كان البحر مدادًا لذلك البيان الذي بين الله تبارك وتعالى عن تلك الأشياء، يمدّه من بعده سبعة أبحر لكان البيان عن تلك الأشياء أكثر^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٢٥، ٢٤). قيل: «المثل: قول سائر لتشبيهه شيء بشيء.. و(كلمة طيبة) هي قول «لا إله إلا الله»، (كشجرة طيبة) وهي النخلة؛ يريد كشجرة طيبة الثمر.. هي شجرة في الجنة أصلها ثابت في الأرض و(فرعها) أعلاها في السماء؛ وكذلك أصل هذه الكلمة راسخ في قلب المؤمن بالمعرفة والتصديق؛ فإذا تكلم بها عرجت فلا تحبّ حتى تنتهي إلى الله عزّ وجلّ. قال الله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾. (توتّي أكلها) تعطي ثمرها

١- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٦٨.

٢- القرطبي، المصدر نفسه، ١١/ ٦٩، ٧٧.

كَلَّ حين يَأْذَنُ ربها) والحين في اللغة هو الوقت، وقد اختلفوا في معناه ما هنا^(١). قيل: «الحين) السنة .. (وفي الآخرة) قيل: القبر»^(٢). « كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه كل وقت»^(٣).

يمكننا أن نقول: إنَّ متابعتنا لحركة (تؤتي) توضِّح لنا كَيْفِيَّة الاحتفاظ باستمراريَّة الزمان (كَلَّ حين)؛ عن طريق الاحتفاظ باستمراريَّة المكان (وفرعها في السماء)؛ أي: يمتدّ دونما تحديد (أي: لا نهائي).

الأفعال الناقصة: (الاستمرار، التحوّل، الصيرورة)

عدد من الأفعال الناقصة تدلّ على استمرار الحركة أو استمرار الوضع والهيئة.. كما أنّ منها ما يدلّ على التحوّل أو الصيرورة. والأحوال الثلاثة: (الاستمرار - التحوّل - الصيرورة) ظواهر حركيّة أو مظاهر للحركة؛ لأنّها تدلّ على التغيّر، سواءً كانت حركة «نقلة» في «الآين».. أم «استحالة» في «الكيف».. أم «نمواً أو نقصاً» في «الكمّ».. أم «كوناً أو فساداً» في الجوهر.. ويذكر أنّ بعض اللغويين جرّدوا الأفعال الناقصة من دلالتها على الحدث^(٤).

وقد يصحّ هذا على «الحدث» من حيث الدلالة الصرفيّة أو اللغويّة. غير أنّنا في المنظور الحركيّ نجد أنّ «كان» يدلّ على «الكيونة».. و«صار» على «الصيرورة»، و«ما دام» و«ما فتى» و«ما انفكّ» و«ما برح» يدلّ كلّ منها على «الديمومة». ولكلّ من: الكيونة والصيرورة والديمومة دلالة حركيّة، والحركة تعني فعلاً أي: حدثاً.. وستقتصر هنا على الحركة المستمرّة،
موضوع البحث، من خلال بعض النماذج:

١- البغوي، معالم التنزيل، ٢٢/٣.

٢- الثوري، تفسيره، ١٥٦/١.

٣- السيوطي، تفسير الجلالين، ٢٣٣/١.

٤- ينظر: أحمد الحملاوي، شذا العرف في فنّ الصرف، ص ٨٢.

- استمرارية ظلّ:

يَرِدُ الفعل: (ظَلَّ) تسع مرّات في القرآن الكريم^(١). وغالبًا ما يَرِدُ في سياق الجملة الشرطيّة، ويكون خبره وصفًا مشتقًا (اسم فاعل)، يمكن أن ينقل إلى صفة مشبّهة لآسامه بثبوتية الوصف، أو فعل مضارع. فما كان خبره وصفًا مشتقًا، فإنّه يَصوّر هيئة حركية مجمّدة؛ وذلك لأنّ اسمية الوصف جرّده من الدلالة على الزمانيّة، ومن هنا كان حصولها مرتبطًا بحصول فعل الشرط، فإذا كان الفعل في صيغة الماضي، كانت الاستمرارية في الماضي (ماضي مستمرّ)، وقد تمتدّ الاستمرارية إلى الفعل أو الأفعال التالية التي تكمل جوانب الصورة.. يتّضح ممّا تقدّم أنّ حالة الاستمرار تكون صفة لحركة جارية.

الاستمرار والديمومة :

حركيّة «ظَلَّ» وديمومة الاتّصال الحركي: من الآيات التي وَرَدَ فيها الفعل (ظَلَّ) يمثّل استمرارية الاتّصال الحركي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر: ١٤، ١٥). أي: ولو فتحنّا على هؤلاء المشركين بابًا من السماء فظفّقوا فيه يصعدون لجدوا، ولقالوا: إنّما سُدَّتْ أَبْصَارُنَا بالسحر فتتخايل غير ما نرى؛ بل سَحَرْنَا (محمد) فلا نبصر^(٢).

تستوقف هذه الصورة المتأمّل، إذ يأتي دور وظيفة الذهن في تصوّر تواصل العروج إلى السماء؛ ومتابعة الاستمرار فيه عبر الباب المفتوح فيها (افتراضًا)؛ حيث يمتدّ الزمان (من خلال الفعل «ظَلَّ»). ونذكّر بأنّ «الحركة في الأين هي النقلة» و«الحركة التي لها الزمان لاحقٌ واحدة ومتّصلة»، علمًا بأنّ «الزمان عارض للحركة»^(٣)؛ ويستطيل الزمان عبر

١- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٤٣٤.

٢- ينظر: الواحدي، الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ٥٨٩/١، ٥٩٠.

٣- ينظر: ابن رُشد، كتاب السماع الطبيعي، تحقيق: جوزيف بونينج، على التوالي ص: ٣٠، ٦٢، ٥٩.

المكان (باب السماء) ما شاء الخيال أن يتصوّر ذلك الامتداد.. غير أنّ قطعاً مفاجئاً يعترض المتأمل في زمان العروج ومكانه؛ وذلك حين يصدر عن جواب الشرط (قالوا)، فيحوّل الانتباه إلى لقطة جديدة تصوّر عيون الكفار مُسكّرةً كما هم يدعون.

ويبدو لنا أنّ استمرار حركة العروج (المفترض!) لو كان واقعاً فعلاً لكان وُضِعَ الكفار مستمرّاً على هذا الحال من الدُّوار وعدم وضوح الرؤية، ومع هذا فإنّ لغة المجاز تجعل ما يمكن أن يكون في حكم الكائن.

. ﴿ وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴾
(الروم: ٥١).

(لظّلوا من بعده يكفرون)، أي: سيبقون على كفرهم دائمين، فإنك لا تُسمع الموتى ولا تُسمع الصمّ الدعاء) أي: أنّهم في حكم الموتى بتجردهم عن أعمال الفكر السليم وصولاً إلى الحقّ والحقيقة، (إذا ولوا مدبرين)، وعليه فهم يغادرون دونما اكرثات.. وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم^(١).

. ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٥-٦٣). (لو نشاء لجعلناه حطاباً) أي: ما تحرثون هشيماً متكسراً قبل إدراكه، (فظلتم تفكّهون) تعجبون أو تدممون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه. وهو تعريض يراد به ما اقترفتم من المعاصي التي أصبتم بذلك من أجلها^(٢).

وقد يردّ جواب (ظَلَّ) جملة فعلية فعلها مضارع (بدلالته على الحال والاستقبال)؛ ممّا يؤكّد صفة الاستمرارية المستحصلة من اقتران المضارع بالفاعل (ظَلَّ).

فالعبارات الثلاث: «فظّلوا فيه يعرجون/ لظّلوا من بعده يكفرون/

١- ينظر: ابن الجوزي، زاد المسير، ٣٠٨/٦.

٢- النسفي، تفسيره، ٢١٠/٤.

فظلتم تفكّهون»، توضّح اتّصال الحركة واستمرارها.. وتقترن الأولى بالمكانيّة بقرينة (فيه).. والثانية بالزمانيّة بقرينة (من بعده).. والثالثة بواقع الحال. أي: تتفتح الزمكانيّة على الأخيرة (الثالثة/ تفكّهون)؛ (لأنّ الحرث والزرع لا بدّ لكلّ منهما من مكان.. وتجري حركة الفعلين بعدهما في الزمان).

وبما أنّ زمن (ظَلَّ) ماضٍ؛ فسيكون زمن الحركة ماضياً مستمراً، أي: أنّ الحدث كان مستمراً في حينه. غير أنّ حدوث الفعل (ظَلَّ) وما بعده مرتبط بفعل الشرط قبله.

استمرارية ما زال ولا زال: مادّة (زَوَّلَ) كذلك تمدّنا بنماذج أخرى للحركة المستمرة؛ حيث وردت في القرآن الكريم في ثماني آيات. فالفعل الماضي منها مسبوق بالحرف «ما» (ما زالت، ما زلت).. والمضارع بالحرف «لا» (لا تزال، لا يزال، لا يزالون).

وتتضح الحركة المستمرة إذا وقع خبرُ (ما زال ولا يزال) جملةً فعليةً، ومنها:

- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُوكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧)^(١).

(ولا يزالون يقاتلونكم): بيان لاستحكام عداوة المشركين للمسلمين وإصرارهم على الفتنة في الدين. وهم مستمرّون على هذه الحال (حتّى يردّوكم عن دينكم)، كأنه قيل: وأنى لهم ذلك^(٢).

ف (حتّى) هنا تفيد الغاية والانتهاء، أي: تفيد قطع حركة القتال برّد المسلمين عن دينهم. و(إن استطاعوا) عبارة تفيد ضرباً من التهكم بالمشركين!.

١- تنظر أيضاً: الرعد: ٣١، المائدة: ١٣.

٢- ينظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٢١٧/١.

ثاني عشر- الحركة المتكررة

نقصد بالحركة المتكررة: تلك الحركة التي تعيد نفسها في فترات زمنية قد تكون متساوية، أو تكون منوطة بحافز آخر يؤثر عليها، وهذا الحافز غالباً ما يكون حدثاً مُغيّراً ومُغيّراً. الحركة المتكررة تعني تجدد الحدث أو معاودته بعد انتهائه أو انقطاعه؛ بوتيرة تجعل المشهد التالي يبدأ من حيث ابتداء سابقه مباشرة بشكل طبق الأصل. وعملية القطع والإعادة تتكرر دورياً وغالباً ما يكون بانتظام؛ الأمر الذي يمنح عموم المشهد صفة الاستمرار الحركي على التوالي، ويمكنّ زمان المشهد من الاستطالة أو الامتداد، حتى ليكاد يغدو في بعض الحالات لامتناهياً. وهذا التكرار يجدرّ المشهد في مخيلة المتلقي، ويجسّم الانعكاسات النفسية والانفعالات العاطفية لديه.

إنّ القطع المنتظم في الحركة؛ بموجب الاستمرارية، بالرغم من ميكانيكته، يتشكل إيقاعاً حركياً أو تصويرياً في إطار زمنيّ موزون.

في القرآن الكريم تُختزل العبارة المعبرة عن مثل هذا التكرار الممتد، أحياناً بكلمة واحدة، هي (كُلَّمَا).

وردت (كُلَّمَا) سبع عشرة مرّة في القرآن الكريم، و(كلّ) اسم لاستغراق أفراد المتعدد المذكّر؛ ولا يستعمل إلاّ مضافاً. و(ما) الداخلة عليها هي المصدرية التوقيتية (الظرفية)، تفيدها الشرطية غير الجازمة، واقتضى اتصالها «بما» كتابةً أو رسماً^(١). ولأنّ (ما) المصدرية شرط من حيث المعنى، فقد احتيج إلى جملتين إحداهما مترتبة على الأخرى. ويُلاحظ أنّ فعل الشرط والجزاء جاء - في جميع الآيات- بصيغة الماضي.. وعلى هذا فإنّ كلمة (كلّ) تمنح الصورة التي ترد فيها صفة العموم والشمول، بينما (ما) تربط المعنى بعلاقة زمانية.

١- رُسِمَتْ (كُلَّمَا) في القرآن الكريم متّصلة في (١٥) موضعاً، ومنفصلة (كلّ ما) في موضعين.

لوحة المنافقين:

في صورة تشبيهية تعرض أحوال المنافقين، حيث تستطرد في تفاصيل الطرف الثاني من التشبيه، ترسم اللوحة القلق النفسي الذي يعتلج دواخل المنافقين: ﴿.. أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيْءِآذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ حُدَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿﴾ (البقرة: ٢٠١٩).

يستوقفنا من هذه اللوحة الجانب الذي يصور الحركة الاستمرارية؛ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾.. ف (كلما أضاء لهم): «كل»: ظرف، و«ما»: مصدرية، والزمان محذوف. أي: كل زمان إضاءة. وقيل: «ما»: نكرة موصوفة معناها الوقت، والعائد محذوف أي: كل وقت أضاء لهم فيه. والعامل في «كلما» جوابها؛ وهو استئناف ثالث، كأنه قيل: ما يفعلون في أثناء ذلك الهول؟ يفعلون بأبصارهم ما فعلوا بأذانهم أم لا؟ وقيل: «كلما» نور البرق لهم ممشىً ومسلكا^(١).

يلاحظ تكرار حركة إضاءة البرق، يتبعها تكرار حركة المشي. وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وما هم فيه من غاية التحير والجهل بما يأتون وما يذرون إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة. (وإذا أظلم عليهم قاموا) استئناف ثالث^(٢).

ويتمثل الاستمرار في مشيهم المتقطع على مراحل. في هذا التقطيع الحركي المتكرر تعبير دقيق عن الوضع النفسي المتذبذب والقلق الذي يعاني منه المنافقون. وهذه صورة تشبيهية من مشهد كبير ورد التفصيل فيه لتوضيح إشارة مختصرة سابقة يمثلها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِمِّمْ وَيَذُكُّهُمْ فِي

١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ١/٥٥.

٢- البيضاوي، تفسيره، ١/٢٠٧.

طُعِنَتْهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾. ف (يعمّهون) أي: في غيهم وكفرهم يحارون ويترددون. ويعمّهون في اللغة: يركبون رءوسهم متجبرين حائدين عن الطريق^(٢). وهذه اللقطة محاطة بالهيمنة الإلهية ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

في مشاهد الجحيم:

وردت (كلما) في ست آيات من مشاهد الجحيم في القرآن الكريم^(٣):
 ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦). أي: ليقاسوه وينالوه^(٤). في هذه الآية من سورة النساء «مشهد مطوّل للعذاب الحسيّ، ومع أنّ الفاظه ليست طويلة، لكنّه يأخذ التطويل من التكرار «كلّما نضجت.. بدّلناهم..» وتلك إحدى وسائل التطويل في عرض المناظر في القرآن الكريم. فلفظ «كلّما» هنا يدع (التصوّر) يستعرض المشهد المروّع، ويكرّر العمليّة المفزعة. وكلّما زاد فزعاً وارتياحاً زاد إقبالا على التكرار»^(٥).

وهنا يراودنا تساؤل: لم قال «الجلود» بالذات؟ لأنّ تحت الجلد شبكة من الأعصاب تتحسّس ألم العذاب. وفي «نضجت» مفارقة مجازيّة؛ إذ إنّ هذا الفعل يُقال على الحقيقة للثمر أو في عمليّة طهي الطعام، فاستعارته هنا تجمع بين المعنيين!. أي: كلّما وصلت الحالة بالجلود إلى تمام كمالها خلال عمليّة الإحراق وبدأت تفقد كفاءتها بدّلناهم جلوداً أخرى جديدة أكثر قدرة على الإحساس بالألم ونقله. (في الآية إعجاز علمي؛ حيث كشف علم الفلسفة الحديث أنّ في الجلد تكمن مراكز الإحساس بالألم).

وفي قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ نوع من تراسل الحواسّ بين حاسة

١- البقرة: ١٥.

٢- ينظر: الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ٥٩/١.

٣- تنظر: (الملك: ٨، النساء: ٥٦، السجدة: ٢٠، الحج: ٢٢، الإسراء: ٩٧، الأعراف: ٢٨).

٤- الواحدي، الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ٢٧٠/١.

٥- سيّد قطب، مشاهد يوم القيامة، ص ٢٠٧، ٢٠٦.

الذوق وحاسة اللمس؛ فالذوق - في الأصل - آتته اللسان، ونوع العذاب المذكور يرتبط بحاسة اللمس (بقرينة ذكر الجلود)، غير أن النص جعل من هذه المفارقة التركيبية مبادلة في وظائف الحواس ليبعد الصورة عن المباشرة، وليزيد في تعميق مردوداتها في مخيلة المتلقي، وهذه ميزة تضاف إلى الرصيد الجمالي للأسلوب القرآني.

وقوله تعالى عن جهنم: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ (الملك: ٨). فد (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ) أي: جماعة؛ سأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا سؤال توبيخ ليقوموا بالحجة عليهم بعد أن يُزَجُّوا فيها. ويتكرَّر السؤال نفسه مع كل جماعة من الرواد: (ألم يأتكم نذير) أو رسول يندركم^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ استعارة مكنية؛ حيث شخَّص التصوير البياني جهنم؛ إذ جعلها تفضب غضباً شديداً؛ فهي إذن واعية تمتلك إدراكاً وإحساساً وانفعالات رهيبية. والآية من سورة «الإسراء» ﴿مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧) تؤكد على دوام التسعير والحرق الشديد في لقطة خاطفة من مشهد قصير من مشاهد الجحيم يتوفَّر على دقة تصويرية..

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَا لَهُمْ نَارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابِ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ (السجدة: ٢٠). قيل: إن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار، فيريدون الخروج، فتردهم الزبانية بمقامع الحديد وهي المقارع^(٢).

. ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٣١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (الحج: ٢٢-٢١).. في الآيتين من سورتي

١- ينظر: البغوي، معالم التنزيل، ٤/٣٧٠.

٢- الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٢/٧٥.

«السجدة» و«الحجّ» مشهد عنيف صاخب، حافل بالحركة المتكرّرة، مطوّل... فلا يكاد ينتهي التّصوّر من تتبّع تحدّده. فالذين كفروا يهّمون بالخروج من هذا «الغم»، وهاهم أولاء يُردّون بعنف.. ويظلّ التّصوّر يكرّر هذه الصورة من أوّل حلقاتها، حتّى يصل إلى حلقة الخروج، ثمّ الرّدّ العنيف. ويبدأ العرض من جديد»^(١).. فتطالعنا صورة «مقامع الحديد»، و«المقمعة» بالكسر واحدة المقامع، كالمحجن من الحديد يُضرب بها رأس الفيل»^(٢). ولم أكّد النّص على أنّها من الحديد بالذات؛ لأنّ الحديد أكثر صلابة، ومواصفاته متميّزة، فهو موصل جيّد للحرارة، ودرجات انصهاره عالية، ومن هنا كان تبديل الجلود كلّما نضجت. إنّها صورة مأساويّة مروّعة لا يمكن تفاديها إلاّ بالإيمان والطاعات والعمل الصالح في الحياة الدنيا.

وفي الآية من سورة «الأعراف» لقطة تصويريّة -ربّما- هي من أطول مشاهد يوم القيامة «إنّها ملحمة رائعة.. فهي مصوغة في قالب الفنّي الذي يتضاءل أمامه الشعر، وتجتمع له كلّ عناصر الجمال»^(٣).

تبدأ قصّة الإنسانيّة بالحديث عن (آدم) في الجنّة، وتنتهي بالحديث عن الجنّة أيضاً؛ ولكنّ العودة جاءت عن طريق يوم القيامة؛ حيث يحدث الجدل عبر حجاب يفصل ما بين الجماعات المؤمّنة في الجنّة، والجماعات الكافرة في النار (الأعراف: ٤٤، ٥٠). ثمّ تتوالى الملاعنة بين جموع الكفّار ﴿كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ (الأعراف: ٢٨) وبشكل مستمرّ. كلّما دخلت أمة النار لعنت التي قبلها لضلالها بها حتّى إذا آداركوا؛ أي تلاحقوا فيها جميعاً^(٤).

ويلاحظ أنّ للصور الصوتيّة مداخلات مع صور الحركة المتكرّرة في

١- سيّد قطب، مشاهد يوم القيامة، ص ٢٢١.

٢- الرازي، مختار الصحاح، مادة (ق م ع)، ص ٥٥١.

٣- سيّد قطب، المصدر السابق، ص ٨٧.

٤- السيوطي، تفسير الجلالين، ١/١٩٨.

مشاهد الجحيم: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾^(١) .. ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا
وَزَفِيرًا﴾^(٢) .. وجهنم تُدير حوارًا وتَجيب: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ
هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^(٣) .. وهي تدعو من أصحابها مَنْ يحاول الفرار: ﴿تَدْعُوا مَنْ
أَدْبَرَ وُتُوًّا﴾^(٤) .. هذه صور مجازية تُشخّص النار باستعارات مكنية، تمنحها
أوصاف: الحياة والعقل والوعي والإدراك والإحساس والانفعال؛ من خلال
ما تعكسه أصواتها الرهيبة المرعبة، وفي كلِّ ملامح من ملامح بشاعة القُبْح.

١- الملك: ٧.

٢- الفرقان: ١٢.

٣- ق: ٣٠.

٤- المعارج: ١٧.

المبحث الرابع تلقي الحركة التصويرية

ثالث عشر: الحركة البصرية

إنَّ رصد الظواهر الحركية وتلقي معطياتها يكون عادة بواسطة الحواس الخمس...، غير أنَّ كثيراً من العلماء والباحثين في مجال التحسُّس الجمالي يولون عناية خاصَّة بالنشاط المتعلِّق بالذاكرة البصريَّة والذاكرة السمعيَّة؛ أي: بالمرئيِّ والمسموع؛ لذا اقتصر محور «الحركة الحسيَّة» على معطيات العين والأذن. وحريُّ بنا أن نتوقَّف عند بعض من جماليَّات النظر والسمع في القرآن الكريم؛ من حيث أنَّ العين والأذن من نِعَم الله تعالى، وهما قناتان للاتِّصال والتواصل مع عناصر البنية الاجتماعيَّة ومع البيئته والمحيط.

إنَّ الإحساس بالجمال مشكلة معقَّدة، وتثقيف الذات من هذه الناحية يستدعي ملكة متيقِّظة، وإذا كانت حاسَّة النظر مثلاً في غفلة أو في حالة سباتٍ آنيٍّ؛ فإنَّ لها أن تتيقِّظ إذا توفَّرت الظروف والحوافز المحرِّكة، وبالتالي تمكن معاودة تثقيفها فنيًّا وجماليًّا. وإذا حصل هذا فمردود ذلك سينعكس على مستوى الإنسان الثقائيِّ عموماً، والارتقاء بفكره حضاريًّا؛ فالقنوات التثقيفيَّة متكاملة. ومن هنا نفهم ونفسِّر لماذا كثرت الدعوة إلى النظر والتأمُّل في خلق الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم.

وفي مجال الرؤية، يُذكر أنَّ القيمة الموضوعيَّة لا تنحصر في المرئيِّ فحسب، بل في العين التي ترى أيضاً. فحاسَّة النظر أولى الحواس الخمس، والعين هي آلة البصر والواسطة الأولى للاتِّصال الإنسان بالعالم وبالحياة. بها يتعرَّف الإنسان على الأشياء المحيطة به، وبها يميِّز الضوء عن الظلام، والأبيض عن الأسود، والقريب عن البعيد، والمرتفع عن المنخفض، والمتحرِّك من الساكن، والسريع من البطيء... إلخ. ويذكر أنَّ المتحرِّك يلفت النظر أكثر من الساكن؛ لذا يستهويننا من الحركة ما كان موقَّعاً أو متناسقاً. بعبارة

أخرى: إنَّ جماليَّة الحركة تأسر العين والنفْس، إنَّها العلامة المنظورة التي تعكس قدرًا من الفكر.

وتبدو الجماليَّة في مظهر العين ذاته.. وفي عمليَّة الرُؤية.. وفي المرئيات التي يتذوق جمالها الإنسان. فالعين هي حاسَّة النور والضياء، والضوء ينتقل بحركة موجيَّة، وللجهاز العصبي قدرة على تحسُّس الاهتزازات. وعليه فإنَّ الظلمة تدلُّ على السكون والاستقرار، والنور يدلُّ على الحركة والحياة: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (غافر: ٦١)^(١). «أي: مبصرًا فيه؛ على النسب كما قال (في عيشة راضية) (الحاقة: ٢١) أي: ذات رضى؛ أي: يرضى بها»^(٢).

وقيل: «(والنهار مبصرًا) أي: يُبصر فيه.. أو مضيئًا»^(٣).. وقد «جعل بعضهم من أقسام «التقابل» مقابلة الشيء بمثله؛ وهو ضربان: مقابل في اللفظ دون المعنى، ومقابل في المعنى دون اللفظ، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿الْمُرُورُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾؛ لأنَّ القياس يقتضي أن يكون: والنهار لتبصروا فيه، وإنَّما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة اللفظ»^(٤)..

«اللَّهُ الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه.. ليؤدِّي إلى ضعف الحركات وهدوء الحواس.. وإسناد الإبصار إلى (النهار) مجاز فيه مبالغة، ولذلك عدل به عن التعليل إلى الحال»^(٥). (والنهار مبصرًا) استعارة مكنيَّة شخّصت النهار؛ حيث وهبته القدرة على الإبصار. وفيه كناية عن سعي الإنسان ونشاطه في حياته اليومية. إنَّ الحياة بحاجة إلى النور، كذلك الكائنات

١- وانظر: يونس: ٦٧، النمل: ٨٦.

٢- مكي، معاني القرآن، ٣/٣٠٤.

٣- ابن منظور، لسان العرب: ٢/٤٤٢، ٤/٦٥.

٤- الغزالي، جواهر القرآن، ٣/٤٦٢، ٤/٦١.

٥- البيضاوي، تفسيره، ٥/٩٩.

الحياة في مزاولتها لنشاطها الحركي في الحياة.

و«هذه الحجج والأدلة يعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها»^(١).. من هنا كان طلوع الشمس وغروبها آيتين بصريتين تدلّان على قدرة الله تعالى ووحدانيته^(٢). ولقد أصبح (النور) رمزاً للهداية، و«الظلمة» رمزاً للضلال؛ عن طريق المجاز^(٣). وبذلك يستحيل النور - بكل ما تعكس بوساطته جماليات الكون والطبيعة والإنسان بمواصفاتها الماديّة- إلى رموز ذات دلالات عقديّة ودلالات معنويّة. وتلذّد العيون بالجمال الباهر، فقد ورد في القرآن الكريم عن الجنة: ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ (الزخرف: ٧١). «في الجنة ما تشتهي الأنفس.. وتلذّد الأعين بمشاهدته؛ وذلك تعميم بعد تخصيص ما يُعدّ من الزوائد في التعمّم والتلذذ»^(٤).

وقرأ بعضهم «تشتهي الأنفس».. أي: لكم في الجنة ما تشتهي نفوسكم أيها المؤمنون وتلذّد أعينكم، وهذا من باب «أشدّ ما يكون الترغيب».. وفي هذه الآية دليل على أنّ في تركيبه الإنسان استعداداً للتذوّق الجمالي والتلذذ به.

إنّ لعمليّة الإدراك الجماليّ مقوّمات موضوعيّة، وهي في المنظور القرآنيّ كما في الآية، مودعة في ذات الإنسان، ومن هنا كانت اللذة الجماليّة التي يتمتّع بها أهل الجنة الذين تتحدّث عنهم الآية الكريمة.. ويُذكر أنّ عنصر «التنوع» مظهر من المظاهر الجماليّة. وهو متوفّر بشكل منقطع النظير في الجنة؛ إذ إنّ فيها «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٤٢٥.

٢- تنظر: القصص/٧٢٧١.

٣- تنظر: الحديد: ٩، الأحزاب: ٤٣.

٤- البيضاوي، تفسيره، ٥/١٥٢، ١٥٢.

بشر»^(١).. ويلاحظ أنّ الفعل (تلتذّ) ينتمي إلى حاسة الذوق، وقد استعمل في وصف حاسة النظر من باب «تراسل الحواس»، وبذلك تكون الصورة أكثر تأثيراً في النفس؛ لأنها تبعد الجمال عن المباشرة والسطحية.

أما جماليّة العين في القرآن الكريم، فيكفي أن نشير إلى أنّ الله تبارك وتعالى وصف زوجات المؤمنين في الجنة «بالحور»^(٢) و«بالعين»^(٣) وبأنهنّ «قاصرات الطرف»^(٤).. و(حور عين) «الحور: جمع حوراء وهي شديدة بياض العين في شدة سوادها. والعين: واسعات العيون والواحدة العيناء»^(٥). وهذه السعة في العيون ميزة جماليّة جذابة خلاّبة. ووصف النساء «بالعين» يسبغ عليهنّ من الجمال ما هو أجلّ من وصفهنّ بأنهنّ «جميلات»، حيث إنّ «جميلات» وصف مباشر يكاد يخلو من الإيحاء. قال تعالى في وصف نساء أهل الجنة: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ (الصافات: ٤٨-٤٩). ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ (الواقعة: ٢٢-٢٣).

وللنظر خطورته في إطار العلاقات الاجتماعية؛ لذا حتّت التربية الإسلاميّة على غضّ البصر من باب تحصين المجتمع بالوقاية قبل العلاج^(٦). وبغضّ البصر، يحصل تحجيم للمقدار الحركي والسلوكي السلبيّين، إنّ تحجيم صحتي معافى؛ ولأنّه يحدّ من الشرّ؛ والشرّ قبيحٌ، فهذا يعني بالمقابل فسح المجال للخير ليمارس دوره في الحياة الاجتماعيّة، والخير صنو الجمال، إذن فالدعوة إلى غضّ البصر هي دعوة لمزاولة فعل الخيرات، والانتفاع والتمتّع بالجمال.

- (١- البخاري، الصحيح، ١١٨٥/٢ (رقم ٢٧٠٣)، ١٧٩٤/٤ (رقم ٤٥٠١)، ١٧٩٤/٤ (رقم ٤٥٠٢)، ٢٧٢٣/٦ (رقم ٧٠٥٩).. ومسلم، صحيحه ٢١٧٤/٤ (رقم ٢٨٢٤)، ٢١٧٥/٤ (رقم ٢٨٢٤)، ٢١٧٤/٤ (رقم ٢٨٢٤)، ٢١٧٤/٤ (رقم ٢٨٢٤).
- (٢- الدخان: ٥٤، الطور: ٢٠، الواقعة: ٢٢.
- (٣- غافر: ١٩، التوبة: ١٢٧، الشورى: ٤٥.
- (٤- الصافات: ٤٨.
- (٥- الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ٤٠٥/١.
- (٦- النور: ٢٠، ٢١.

وأما جماليّة الرؤية ذاتها فتتمثّل في جمال النور الذي هو سبب في الرؤية ويعين على التمكن من الحركة^(١). ولمشاهدة المرئيات البصريّة لذّة خاصّة يتمتّع بها المبصرون، بخلاف الذين فقدوا نعمة البصر، لا سيّما في النشاط المتعلّق بالذاكرة الصوريّة الكائنة في النصف الأيمن من الدماغ^(٢).

وأما جماليّة المرئيات فكثيرة في القرآن الكريم؛ لا سيّما ما ورد منها في سياق النظر التأملي، وما ينجم عن تذوّق الجمال من ترغيب بالطيّبات.

﴿ فَأَمَّا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْفَهُمْ كَيْفَ بَيْنَنا وَرَبِّنا وَمَا لَنا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (ق:٦١).

﴿ وَلَقَدْ جَعَلنا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَبِّنا لِلنَّظِيرِينَ ﴾ (الحجر:١٦).

والنظر إلى الجميل يبعث في النفس السعادة والانتشاء:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدَنا وَأَلْقَنا فِيها رِواسِيَ وَأَنْبَتَنا فِيها مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيج ﴾ (ق:٧).

﴿ ... كَسْرُ النَّظِيرِينَ ﴾ (البقرة: ٦٩). « البهجة: الحسن وبابه ظرف؛ فهو بهيج، وبهج به؛ فرح وسرّ وبابه طرب فهو بهج بكسر الهاء وبهيج أيضاً، وبهجه الأمر من باب قطع وأبهجه أي: سرّه، والابتهاج السرور»^(٣).

ولمّا كان البصر نعمة من نعم الله التي تستوجب شكره^(٤)، ولمّا كانت الأعين إحدى أهمّ وسائل التمييز بين الخير والشرّ، والفضيلة والرذيلة^(٥)؛ فقد وقع عليها جانب مهمّ من المساءلات^(٦). بل إنّها (أي: الأعين) تسمي شاهداً على أصحابها يوم القيامة؛ على سوء استعمالهم لها، وتوظيفهم لها في التمتع بالمنكر^(٧).

١- تنظر: الحديد: ٢٨.

٢- ينظر: فرانكلين ر. روجرز، الشعر والرسم: ص ٢٠٢.

٣- الرازي، مختار الصحاح: ٢٧/١.

٤- تنظر: النحل: ٧٨.

٥- تنظر: البلد: ١٠٨.

٦- تنظر: الإسراء: ٣٦.

٧- تنظر: فصلت: ٢٠، ٢٢.

وتدخل مفارقة الحَسَن والقبیح إلى ميادين السلوك الإنسانيّ وحقول العمل الانفراديِّ (وربّما الجماعيِّ أيضًا) ليتولّد لدينا مصطلح «جمال القبح»: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (فاطر: ٨). في الآية «توقيف، وجوابه محذوف يمكن أن يُقدَّر: «كمن اهتدى» ونحو هذا من التقدير، وأحسن التقدير ما دلّ اللفظ بعد عليه ... وفي الآية تقرير، وهي معادلة بين هذين الفريقين واللفظ عامٌّ لأهل هاتين الصفتين .. (و على بيّنة) أي: على يقين وطريق واضحة وعقيدة نيرة بيّنة^(١) .. والبيّنة «الحجّة والبرهان»^(٢).

ويمكن أن نستخلص ممّا تقدّم أنّ الإحساسات البصريّة تتوفّر على القسط الأوفى من الجمال؛ لا سيّما وأنّ بعض تعريفات الجمال «ما يستهوي النظر، وترتاح له العين».

صورة دوران الأعين^(٣):

يرسم القرآن الكريم صورة فنيّة دقيقة ومعبّرة للمناقضين تتمّ عن قلق نفسيّ، وعن رهبة الموقف، وعن ترقّب حذر من الأحداث المستقبلية.. فقد نزل قوله تعالى في المناقضين (وقيل في اليهود) يوم الخندق: ﴿أَشْحَاةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ أَشْحَاةٌ عَلَى الْخَيْرِ﴾ (الأحزاب: ١٩)^(٤). أي: (تدور أعينهم) أي: في أحداقهم. و(كالذي يُغشى عليه) كنظر المغشي

١- ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٢٥٢/٢ و١٦٤/٤.

٢- السيوطي، تفسير الجلالين، ١/٦٧٤.

٣- في القرآن الكريم تجمع «عين» على «أعين» إذا قصد بها آلة النظر.. وعلى «عيون» إذا قصد بها البنايع.

٤- تنظر أيضًا: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠).

عليه؛ أو كدوران عينيه، أو مشبهين به، أو مشبهة بعينه. (من الموت) أي: من معالجة سكرات الموت.. فإذا ذهب الخوف وحيزت الفنائم سلقوكم أي: ضربوكم بالسنة حداد ذرية يطلبون الغنيمة.. (أشحة) نصب على الحال أو الذم^(١).. وهذا كقوله تعالى (ومنهم من ينظر إليك) أي: يديم النظر^(٢).. وقيل: (تدور أعينهم) في أحداقهم صفة لمصدر ينظرون، أو حال من فاعله، أو لمصدر تدور، وحال من «أعينهم» أي: ينظرون نظراً كأننا كنا نغشى عليه.. أو تدور أعينهم دوراناً كأننا كدوران عينه^(٣).

تبدأ العبارة بتشخيص استعاري للخوف الذي يجيء إلى المنافقين في حركة مقبلة، وهذه الاستعارة تحوّل الخوف الذي يحصل من القتال أو من الموت في المعركة (وهو حالة نفسية / معنوية) إلى كيان شاخص مرئي وذلك بأنسنته ومنحه صفات الإنسان أو الكائن الحي. وحركة القدوم المتمثلة بالفعل (جاء) تحيل الزمن النحوي الماضي إلى مستقبل بأداة الشرط (إذا). أي: أن الحدث في زمن النص لم يقع بعد، وإنما أجل، أو علق وقوعه؛ لتأكيد التوقع؛ ليس المحتمل؛ بل القطعي، وهو ما يفهم من صيغة جواب الشرط (رأيتهم...) التي اعتمدت الماضي؛ وكأن الحدث قد تمّ.

وفعل رؤية رسول الله ﷺ (رأيتهم)، يليه مباشرة فعل نظر المنافقين إلى الرسول ﷺ. ويشترك الفعلان (رأيتهم/ ينظرون) بروابط دلالية بانتمائهما إلى عائلة واحدة. و(ينظرون) فعل مضارع مستمرّ يتمّ حدوثه حال رؤية رسول الله ﷺ لهم. ويرتبط الفعل (ينظرون) بالفعلين بعده: (تدور) (يغشى) بالزمن النحوي (المضارع المستمر). وتشكل الأفعال الثلاثة منظومة حركية تعبر عن صورة ماثلة في مخيلة القارئ أو المتلقي؛ إذ إنّ عدم تصريح النصّ بفاعل (رأيتهم) (الذي هو - في الأصل - رسول الله

١- البيضاوي، تفسيره: ٢٦٨/٤.

٢- مكي، معاني القرآن: ٢٩٦/٣.

٣- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ٩٦/٧.

﴿يَجْعَلُ كُلَّ قَارِئٍ أَوْ مُتَلَقٍّ يَتَصَوَّرُ الْخَطَابَ مُوجَّهًا إِلَيْهِ، وَفِي هَذِهِ الْحَالِ يُمَثِّلُ مَشْهَدَ الْمُنَافِقِينَ أَمَامَ الْقَارِئِ وَكَأَنَّهُ مَرْتَبِيٌّ. وَكَأَنَّ الْمَتَلَقِّيَّ هُوَ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ». وَبِذَلِكَ يَشَارِكُ الْقَارِئُ أَوْ الْمَتَلَقِّيُّ، بِصِفَتِهِ الشَّخْصِيَّةِ، فِي أَحْدَاثِ الْمَشْهَدِ، وَيَحْسُ بِمَسْئُولِيَّةِ الْقِيَادَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُ الْمُبَادَرَةَ الْفَاعِلَةَ.

فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَنِ حَرَكَةِ دَوْرَانِ الْأَعْيُنِ تَسْتَوْقِفُنَا مَفَارِقَةَ تَدْعُو إِلَى التَّسْأَلِ: كَيْفَ يَتَزَامَنُ نَظْرَ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ مَعَ دَوْرَانِ أَعْيُنِهِمْ؟ إِنَّ النِّظْرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَدَّ عَلَى سَبِيلِ الْحَقِيقَةِ، بَيْنَمَا دَوْرَانِ الْأَعْيُنِ جَاءَ فِي إِطَارِ الْمَجَازِ، فَهُوَ كَنَايَةٌ عَنِ شِدَّةِ خَوْفِ الْمُنَافِقِينَ؛ سِوَاءَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ فِي حَالَةِ انْتِصَارِهِ عَلَى الْكُفَّارِ، أَمْ مِنْ قِتَالِ عَدُوِّ إِذَا أَقْبَلَ. وَفِي ذَلِكَ تَثْبِيتُ قِطْعِيٍّ لَجُبْنِهِمْ وَخَوْرِهِمْ. وَوَاضِحٌ أَنَّ سَبَبَ هَذَا الْجُبْنِ يَكْمُنُ فِي تَزَعُّعِ إِيمَانِهِمْ، وَانْتِفَاءِ اقْتِنَاعِهِمْ بِالْجِهَادِ وَالتَّضْحِيَةِ.

وَيَكْشِفُ التَّرْكِيبَ اللَّغَوِيَّ لِلنَّصِّ عَنِ تَدْرَجِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ فِي هَذَا الْمَوْقِفِ لِهَوْلَاءِ الْمُنَافِقِينَ: النَّظْرُ.. دَوْرَانِ الْأَعْيُنِ.. الْغَشْيَانِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ.. إِنَّ عِبَارَةَ (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ.. تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ.. كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) تَمَثَّلُ صُورَةً مُرَكَّبَةً، تَتَضَافَرُ فِي رَسْمِهَا ثَلَاثَ لِقَطَاتٍ؛ هِيَ فِي الْوَاقِعِ صُورٌ جَزَائِيَّةٌ مِتْرَاكِبَةٌ وَمِتْدَاخِلَةٌ. فَعِبَارَةٌ: (يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ) تَقَابُلُهَا عِبَارَةٌ: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ). وَعِبَارَةٌ: (تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ) يَقَابُلُهَا: (كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ). هَذِهِ التَّقَابُلَاتُ وَقُرَّتْ فِي عَمُومِ الْمَشْهَدِ طَاقَةَ حَرَكِيَّةِ مَعْبَرَةٍ بِدَقَّةٍ وَعُمُقٍ عَنِ حَالَةِ الْجُبْنِ وَالْفَزَعِ الَّتِي كَانَتْ تَتَنَابَأُ الْمُنَافِقِينَ وَتَحَاصِرُ مَشَاعِرَهُمْ الَّتِي تَمْتَخِضُهُ عَنِ التَّثَبُّطِ وَالنَّكُوصِ.

إِنَّ حَرَكَةَ دَوْرَانِ الْأَعْيُنِ وَرَدَّتْ بَيْنَ حَرَكَتَيْنِ نَفْسِيَّتَيْنِ: الْأُولَى حَرَكَةٌ مُقْبِلَةٌ «فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ»، وَالثَّانِيَّةُ حَرَكَةٌ مُدْبِرَةٌ «فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ». وَيُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ أَنَّ الْأَعْيُنَ تَكْفُ عَنِ الدَّوْرَانِ بِذَهَابِ الْخَوْفِ. وَلَعَلَّنَا لَا نَكُونُ مَخْطِئِينَ

إذا عبّرنا عن هذه الحالة فقلنا: الخوف طاقة كامنة استحالت حركة خطيّة أثّرت في الأعين، فجعلتها تتحرّك حركة دورانيّة حول مراكزها، وبعد زوال تأثير الخوف استقرّت على وضعها الطبيعيّ، ويُلاحظ أنّ المجاز البيانيّ مكّن الخوف (الذي هو مفهوم معنويّ) من التحرك في الحيز المكانيّ (المادّي)، بعد أنّ شخّصه في استعارة مكنيّة.. ولا شك أنّ الصورة جسّدت تلك المشاعر النفسيّة والانفعالات الرهيبة، بشكل يثير السخريّة من المنافقين، بوصفها هدفًا من أهداف التعبير التصويريّ الهادف إلى ردع النفوس على هذا التصرف بهذه الصيغة المحسوسة التي يمكن أن يتابعها الخيال ويتملاّها. وتتصاعد دلالة السخريّة عندما يتقلب خوفهم إلى خلافه؛ إذ يحسّون بالأمن «فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد»؛ وهو تعبير يقف على التضادّ في الصورة والمعنى مع «فإذا جاء الخوف»، إذ يكشف التعبيران عن حالتين متباينتين أشدّ التباين^(١). والتباين أحد العناصر الفنيّة للجمال؛ باعتبار ما يحدث من المفاجأة غير المتوقّعة لدى المتلقّي.

من جهة أخرى، فإنّ المقابلة بين الفعلين: «جاء» و«ذهب» تصوّر حركتين متعاكستين في الاتجاه نسبةً إلى المنافقين، واقتران الضدّ بالضدّ يوضّحه ويجلوه. من هنا توقّرت الصورة على قسط وافر من التباين الجماليّ.. وفي عبارتي: (جاء الخوف) و(ذهب الخوف) استعارتان مكنيتان شخّصتا «الخوف» ومنحته القدرة على الحركة من خلال تجسيم مجازيّ، وبذلك اكتسب أبعادًا حسّيّة، بعد أن كان يتّسم بالصفة المعنويّة أو الاعتباريّة. فالخوف، في الأصل، ضرب من الإحساس يعترى النفس الإنسانيّة حين تستشعر الخطر أو فقدان ما تحرص على أن يكون في متناولها.. وهذا الضرب من التعبير المجازيّ يضاف إلى الرصيد الجماليّ للأسلوب القرآنيّ.. وفي قوله «تدور أعينهم» كناية متواشجة مع المجاز العقليّ، تصوّر أعينهم كلّها تدور. والحقيقة: أنّ أحداقهم هي التي تدور في أعينهم؛ بإسناد

١- ينظر: د. أحمد فتحي رمضان، الكناية في القرآن الكريم: ص ٢١٢.

الفضل (تدور) إلى المكان (أعينهم). ولكن شدة الدوران وسرعة تقلبها خيل أن العيون كلها تدور، فليس الدوران دوران المحاجر أو الأحداق؛ ولكنه دوران العيون حتى الجفون والأهداب، وفي كل ذلك تصوير لقوة حركة أعينهم الدائبة^(١)..

وبين عبارتي «تدور أعينهم» و«الذي يُغشى عليه من الموت» علاقة تشبيه تمثيلي بواسطة أداة التشبيه (الكاف)؛ فهو تشبيه مُرسل. ويُلاحظ أن المشبه جاء بصيغة الجمع (رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، تُدَوِّرُ أَعْيُنَهُمْ)، والمشبه به بصيغة الأفراد (الَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)..^(٢)

وأحد أوجه الشبه بين الطرفين: (المشبه/ والمشبه به) هو حجب الرؤية. فالتكنية عن «ذهاب العقول» بدوران الأعين تُعبر عن تحجر العقل وتوقفه عن التفكير الصحي السليم؛ وذلك بسبب تعطل البصيرة عن أداء وظيفتها. وتعطل البصيرة مُتأت من انتفاء القدرة على الرؤية: ﴿هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩).

ودلالة عموم التشبيه في الصور المتقدمة أن هؤلاء المنافقين هم في حكم الأموات. وفي صورة (تدور أعينهم) المتقدمة (يتمص) الطرف الثاني من التشبيه حركة الدوران في الطرف الأول منه فيجمدها.. وهو المغزى المقصود من عموم هذه الصورة المركبة. إن جمالية هذه الصورة تكمن في كونها توصلت إلى غايتها السكونية عبر حركة دورانية عنيفة.. أي: أنها استطاعت أن تقنعنا بأن حالة القلق النفسي المتأزم في نفوس المنافقين - وقد كشفت عن سرائرهم حركة أعينهم - انتهت بهم إلى التثبط والنكوص

١- ينظر: د. محمد أبو موسى، من أسرار التعبير القرآني: ص ٧٩.

٢- وكتوبه تعالى: ﴿مَلَأَهُمْ كَيْدًا الَّذِي أَسْوَفَدَ نَارًا﴾ (البقرة: ١٧).

٣- يلاحظ أن عدم قدرة الكفار على الإبصار في الآية أعلاه ذات مدلول مغاير لمدلول عدم قدرة الأصنام على الرؤية المقصودة في قوله تعالى: ﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨). من جهة أخرى يلاحظ اجتماع أفعال الرؤية الثلاثة في الآية الأخيرة: ترى، ينظر، يبصر.

في أردأ الأحوال؛ أي: في الموت الذي كانوا يفرّون منه، ثم أصبحوا يفرّون إليه قسراً وبالرغم منهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ حركة الجفن أو العين غدت أشبه بكناية يُعبّر بها عن سرعة الأحداث الجارية، أو قصر المدّة. فمن جماليات النصّ القرآنيّ التعبير عن سرعة الحركة عن طريق الصورة التشبيهية، من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ (النحل: ٧٧).

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ (القمر: ٥٠).

«القول في تأويل قوله تعالى: (وما أمر الساعه إلا كلمح البصر أو هو أقرب)؛ لأنّ ذلك إنّما هو أن يقال له: كن فيكون»^(١). أو «كرجع طرف. وإنما ضرب به المثل لأنّه لا يُعرف زمان أقلّ منه.. وليس هذا لشكّ المخاطب؛ ولكنّ المعنى: كونوا في كونها على هذا الاعتبار»^(٢). ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠). وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠). أي: إلا رجفة واحدة قيل: هي نعت للمعنى دون اللفظ، مجازه: وما أمرنا إلا مرّة واحدة: «كن فيكون». و(كلمح بالبصر) أي: كخطف بالبصر، قيل: إنّهُ يعني «الساعة» وجميع ما يريد الله تبارك وتعالى^(٣).

١- الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٥١/١٤.

٢- النسفي، تفسيره، ٢/٢٦٥.

٣- ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٢٣٨/٤.

رابع عشر- الحركة السمعية :

الحركة السمعية هي الحركة الناجمة عن تلقّي الأذن للذبذبات الصوتية، وتعبّر اللغة عنها بمفردات دالة؛ لاسيّما من خلال النصوص الأدبية؛ إذ تتجلى في أطرٍ جماليّات البيان والمجاز.

وأول ما يلاحظ على هذه المادة «س م ع»^(١) ورودها - في الغالب - بدلالات مباشرة وفي سياقات تهدف إلى إقرار الحقيقة، وتشكّل في دائرة الواقعية. أمّا ما ورد منها في إطار المجاز فيمكن حصره في صور بيانية قليلة نسبياً. ولعلّ مردّد ذلك يرجع إلى أهميّة هذه المادة وخطورة وظيفتها. ومن مظاهر الحركة السمعية في الإسلام ما يتمثّل بأفعال: القراءة.. والأذان.. والسماع.. والترتيل.

الترتيل يُمرّن أذن المستمع من خلال ممارسة الإصغاء. والإصغاء واحد من وسائل التلقّي المعرفي والفنيّ إلى جانب الملاحظة بالنظر. وفي الثقافة الإسلامية تأكيد صريح وواضح على «السماع»، فتلقّي القرآن الكريم في الأصل عن طريق السماع والمشاهدة؛ وكما جاء في (الصحيح): «المشاهدة: المخاطبة من فيك إلى فيه»^(٢).

وتلاوة القرآن الكريم تؤدّي ترتيلاً لتعميمه على المستمعين^(٣).. كان القرآن الكريم في صدر الإسلام يحفظ في الصدور، وكان أحد أسباب جمعه وتدوينه استشهاداً عدد كبير من الحفاظ في المعارك الجهادية بعد انتقال رسول الله

١- وردت مادة (سَمِعَ) في القرآن الكريم (١٨٥ مرّة). ما بين فعل بصيغته الثلاث؛ وبين اسم، وبين مشتق.

٢- ينظر: د. غانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد: ص ٦٦٠.

٣- تنظر: المزمّل: ٤، ١٠٦، التوبة: ٦.

ﷺ إلى الرفيق الأعلى^(١). والإنصات من آداب سماع القرآن الكريم^(٢).

والإعراض عن سماع القرآن الكريم كان أحد وسائل الكفار والمشركين في محاربة رسول الله ﷺ إعلامياً ونفسياً في بداية الدعوة؛ حيث كانت المحاصرة بأن حثوا قومهم على الإعراض عن سماع القرآن الكريم أو اللغو فيه؛ بغية منع وصوله إلى القلوب قبل الأذان؛ لما فيه من جمالية جذابة مؤثرة وساحرة.. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦) «كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى فيقول بعضهم لبعض بمكة: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، فأنزل الله عز وجل جواباً لهم: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).. يقول: قالوا للذين يطيعونهم من أوليائهم من المشركين: لا تتبّعوا هذا القرآن والهوا عنه. وقوله: (والغوا فيه) يقول: الغطوا بالباطل من القول إذا سمعتم قارئه يقرؤه»^(٣). وقيل: «صيحوا في زمن قراءته لعلكم تغلبون فيسكت عن القراءة»^(٤).

١- استشهد في حروب الردة (موقعة اليمامة) سنة اثنتي عشرة للهجرة سبعون مجاهداً من الصحابة من حفظة القرآن الكريم؛ ممّا حدا (بأبي بكر رضي الله عنه) إلى أن يكلف (زيد بن ثابت رضي الله عنه) بجمع القرآن الكريم وأودعه عند (حفصة) رضي الله عنها بصفتها إحدى زوجات الرسول ﷺ.

. ينظر: الإمام البخاري/ الصحيح، كتاب «فضائل القرآن» الباب الثالث والرابع. وكتاب الأحكام؛ الباب السابع والثلاثون.. والإمام أحمد، المسند ١٣/١ (وفي طبعة شاكر ١٨٥/١ رقم الحديث ٧٦).
٢- تنظر: الأعراف: ٢٠٤.

. «اللغو» يعني: الضجيج. والضجيج: يعني مجموعة النشاطات الصوتية الناجمة عن تصالب الموجات التي تتداخل مع بعضها دونما تناسق أو انسجام، ممّا يؤدي إلى تلاطم الأصوات في الأذن، ويبعث على ضجر مزعج، في وقت تبدّل فيه الطاقة غير أنّها عقيمة؛ ممّا يضايق الأذن ويعطل عملها في السماع المجدي.

٣- ينظر: جويو، مسائل فلسفة الفن المعاصر: ص ٧٠.

الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ١١٢/٢٤.

٤- السيوطي، تفسير الجلالين: ٦٣٢/١.

W سماع القرآن الكريم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنَ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۝﴾ (النجم: ٦٢.٥٩). (وأنتم سامدون) السامد: هو عابس الوجه^(١). يُقال: « سمد يسمد سُمودًا.. علا.. والسمود: اللهو.. وسمد سُمودًا: غنى.. وسامدون: مستكبرون.. وساهون»^(٢) ولاهون عابثون^(٣). و«السامد المنتصب إذا كان رافعًا رأسه ناصبًا صدره.. وقيل للمغني: سامد لرفعه رأسه»^(٤). والحاصل أن قوله تعالى (وأنتم سامدون) أي: ترفعون رؤوسكم بالفناء؛ لتشغلوا الناس عن سماع القرآن الكريم..

فالسُمود صورة: «صوتية/ صاعدة». من جهة أخرى هي حركة «صاعدة». وهي «مركبة»، من حيث كونها مرتبة: برفع الرؤوس والأعناق إلى الأعلى، ومسموعة: برفع الأصوات عاليًا. ويلاحظ في الآيات تضاد في: «تضحكون/ تبكون»، وهو «طباق إيجاب» كما تصطلح عليه كتب البلاغة.

ويلاحظ أيضًا تقابل بين: «المسموع/ والمرئي» في «سامدون/ اسجدوا». حيث يمثل السُمود حركة صوتية صاعدة - كما سبق - ويمثل السجود حركة مرتبة هابطة. وواضح أن مثل هذا التضاد يمنح الصورة الأدبية قدرة حركية داخلية فاعلة في تجسيم المضمون الصوري.

كثير من الآيات التي ذكرت السمع جاءت في معرض الحديث عن الكفار؛ لا سيما في صفة إعراضهم عن سماع القرآن الكريم. فقد نقل لنا القرآن كثيرًا من أقوالهم في هذا الموضوع^(٥). فلا غرابة أن قرن القرآن الكريم بين اعترافهم (يوم الحساب) بتعطيلهم لسمعهم (في الحياة الدنيا) وبين

١- مجاهد، تفسيره: ٢/٦٣٤.

٢- ابن منظور، لسان العرب: ٣/٢١٩.

٣- الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢/١٠٤٤.

٤- الزمخشري الفائق: ٢/١٩٩، ٢٠٠.

٥- تنظر: فصلت: ٢٦.

اعترافهم بتعطيلهم فاعليّة عقولهم، وإقرارهم بالنتيجة الحتميّة العادلة لصنيعهم هذا أن غدوا في أصحاب السعير^(١). ولذا كنى القرآن الكريم من الذين لا يسمعون ولا يستجيبون للهداية (في الدنيا) بسكونيّة الموتى الذين يبعثهم الله تعالى يوم القيامة لينالوا عقابهم: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ (النمل: ٨٠)^(٢). «قال لهم إنّما أنذركم بالوحي من الله لا من قبل نفسي ولا يسمع الصمّ الدعاء»^(٣). «أي: إنّما أنا مبلغ عن الله ما أنذركم به من العذاب والنكال ليس ذلك إلّا عمّا أوحاه الله إليّ ولكن لا يجدي هذا عمّن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه. ولهذا قال: (ولا يسمع الصمّ الدعاء)»^(٤). «وكانوا يمرّون على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلّم شامخين»^(٥). «فلولا أنّهم أحسّوا في أعماقهم هزّة روعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر، وما أشاعوا في قومهم بهذا التحذير الذي هو أدلّ من كلّ قول على عمق التأثير»^(٦).

إنّ اقتران صدود الكفار توثقه حركة مُدبِرة مُصرّح بها: (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ).

ومن جماليّات قوله تعالى: (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى) الاستعارة التصريحيّة البادية في استبدال لفظ «الكافرين» بلفظ «الموتى» لفقدهم قدرة الوعي، ومن هنا كانوا في حكم الموتى. وتردّف هذه الاستعارة بأخرى مجاورة لها تعزّز فاعليّتها الجماليّة، ففي قوله تعالى: (وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ)، جرّدهم من فاعليّة السمع مجازاً، مع أنّهم كانوا في واقع الحال يسمعون!

١- تنظر أيضاً: تبارك: ١٠.

٢- وتنظر: الروم: ٥٢.

٣- السيوطي، تفسير الجلالين: ٤٢٥/١.

٤- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١٨١/٣.

٥- الشوكاني، فتح القدير: ١١٩/٥.

٦- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ص ١٢.

إنّ وصف آذان الكفّار بالسكونيّة السلبية من حيث أنّها معطّلة عن السمع يكتسب عمقاً وخطورة في أنّ^(١). (يُذكر أنّ (الوَقْر): هو ثقلٌ في الآذان. وقد تكرر ذكره في أربع آيات في القرآن الكريم^(٢) كنايةً عن صفة).

ووردت مادة (ص م م) خمس عشرة مرّة في القرآن الكريم^(٣)، أغلبها في وصف الكافرين، وهنا تطالعنا مفارقة (الحقيقة/ والمجاز) في هذا الوصف.. فأما وجه الحقيقة فيتمثّل في أنّ الأصمّ يعاني من اختلال التوازن الجسمانيّ. وقد استعار القرآن هذا الوصف بهذا الشكل -والله أعلم- لسببين:

الأوّل: يتمثّل في إعراضهم عن سماع القرآن الكريم وعدم الاستجابة للهدى الإلهيّ.

والثاني: يتمثّل في حالتهم المتذبذبة غير المستقرّة. ولهذه الظاهرة وجهان: حقيقيّ ومجازيّ. فأما الحقيقيّ: فيبدو من خلال الحركة الجسديّة، وليست هي المقصودة من الوصف. وأمّا المجازيّ: فيبدو من تذبذبهم العقديّ وخواء فكرهم ﴿وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ (إبراهيم: ٤٣). وهو المقصود عادة من كلّ سياق يجرد الكافرين من السمع، والله أعلم.

وعن علاقة السمع بحفظ التوازن يُذكر أنّ الإشارة في القرآن الكريم إلى مسألة الربط بين فقد السمع واختلال التوازن يُعدّ سبقاً علمياً، وهو يمثّل ملمحاً من ملامح الإعجاز العلميّ للقرآن الكريم.

لقد أثبت علم وظائف الأعضاء (الفسلجة) ما وثّقه الطبّ الرياضيّ من أنّ هناك مهارات حركيّة تتطلّب دقّة عالية من الإحساس بالتوازن واستعادة الجسم السريع لوضعه الاعتياديّ عندما يكون التوازن غير مستقرّ، وتتوقّف

١- تنظر: الأعراف: ١٧٩، ١٩٥، الحج: ٤٦.

٢- الأنعام: ٢٥، الكهف: ٥٧، الإسراء: ٤٦، فصلت: ٤٤.

٣- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ص ٤١٤.

هذه الاستجابة العضلية التي تحدث في باطن الأذن. وتوجد هناك مجموعتان أساسيتان من الاستجابة، وهما: الفعل المنعكس المتسارع والمتعاكسات القوامية^(١). إن تأكيد القرآن الكريم على وصفه الكفار بأنهم لا يسمعون إنما كان القصد منه مجازية الوصف، والله تعالى أعلم.

ويعتبر نداء الأنبياء ودعاؤهم من المشاهد التي يشكّل الصوت عنصراً مهماً من عناصرها، مثل نداء (موسى عليه السلام) بالوادي المقدس.. ودعاء (زكريا عليه السلام) الذي وصفته الآية الكريمة بأنه كان «خفياً»، وهو من الصور الصوتية التي تضمّت مفارقة ضدية؛ إذ إن النداء في الأصل يكون بصوت عال. في حين ورد في الآية «نداء خفياً»، وعلى هذا يكون النداء قد ورد في هذا السياق بمعنى الدعاء. كذلك منادات الملائكة له، وهو قائم يصلي في المحراب.. كذلك دعاء (يونس عليه السلام) في الظلمات في جوف الحوت.. ودعاء (أيوب عليه السلام) إذ مسّه الضر^(٢).

ويمثل النفخ في الصور والنقر في الناقور من مشاهد يوم القيامة:

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨).

﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نَقَرُ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْرٌ يَسِيرٌ ﴾ (المدثر: ٧-١٠).

١- إن الشخص الأبكم والأصم الذي في أذنه الداخلية خلل يسقط بسرعة؛ لأن الانطباعات من الأذن الداخلية (والانطباعات البصرية) والمستقبل الذاتي من العضلات هي التي تتحكم في العمليات التي تحافظ على الاتزان القوامي. والانطباعات في الأذن الباطنية تكون موجبة للاحتفاظ بالوضع الطبيعي للرأس. والإثارة الزائدة لمستقبلات الأذن الباطنية (كما هو عليه الحال في الحركات الدورانية السريعة) تسبب حالات الغثيان والدوران ينظر: د. نجاح مهدي شلش، و د. أكرم محمد صبحي محمود، التعلم الحركي: ص ٢١٠.

٢- تنظر: حول نداء موسى (النازعات: ١٦، والقصاص: ٣٠، وطه: ١١، النمل: ٨).. حول نداء زكريا (مريم: ٣٠٢ وآل عمران: ٣٩).. حول نداء يونس (الأنبياء: ٨٧).. حول نداء أيوب (الأنبياء: ٨٣، ص: ٤١).

«الصور: القرن»^(١). «ونقر في الناقور: أي: نفخ في الصور»^(٢).. حينما ينفخ في الصور «ترتج الأرض بأهلها»^(٣). ويصعق الناس إذ يُغشى عليهم وتذهب عقولهم من صوت يسمعونه.. والصعقة: الصيحة»^(٤). وقوله تعالى: (ونفخ في الصور) روى عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ -إِذ سَأَلَ عَنِ الصُّورِ-: «هو قرن ينفخ فيه»^(٥).

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ و﴿ونقر في الناقور﴾ هاتان صورتان صوتيتان شاخصتان تمثلان فاعليّة الصوت وما يترتب عليه من ردّ فعل حافل بالحركة العنيفة يوم البعث والنشور.

ويورد الدارسون هذه الآية في معرض حديثهم عن التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي؛ تبييناً على تحقق وقوعه، وأنّ ما هو صائر للوقوع كالواقع^(٦). إنّ حالة (الصعق) تتجاوز الرعب والذهول لهول المشهد، حيث ينفخ في الصور إعلاناً عن قيام الساعة، والنفخ في الصور مظهر من مظاهر حركة الصوت باعتباره مصدرًا فاعلاً. وردّ الفعل إنّما هو مظهر آخر من مظاهر حركة السمع في أن.

ويعد نعيق الكفّار من الصورة التشبيهيّة التي يكون الصوت أحد عناصرها؛ وتعكس «بشاعة القبح» في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذْيِ يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

١- ابن منظور، لسان العرب، ٤/٧٥٥.

٢- الرازي، مختار الصحاح، ١/٢٨١.

٣- الزمخشري، الفائق، ٢/٤٣. وانظر: النسفي، تفسيره، ٤/٦٣.

٤- ابن منظور، المصدر السابق: ١٠/١٩٨.

٥- الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٧/٢٤١. وانظر: الصنعاني، تفسيره، ١/١٦١.

٦- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن: ص ٢٦.

النعيق: صوت الراعي بغنمه، ونعق الغراب أيضاً^(١). «الكافر يقال له ولا ينتفع بما يقال له»^(٢). لقد تعددت وجهات نظر المفسرين في تخريج معاني هذه الآية، مما جعل قراءتها تتصف بالتعددية.. وعليه فإن النص منفتح أمام المتلقي، ولنا أن نخرجه كالتالي: نجد في الصورة: المشبه: «الذين كفروا».. والمشبّه به: «الذي ينعق».. ووجه الشبه: عبثية تقليد الكفار لآبائهم وعدم جدواه.. ولنا أن نخرج «الذي ينعق» على أنه (الغراب)^(٣)..

والغراب في التراث العربي يمثل رمزاً للشؤم. والنعيق: صوته الذي يستقبحه الناس. وقد شبه الله تعالى الكفار بهذا الغراب الذي لا يسمع إلا صدى نعيقه، ولا يجد في فعله غير تحصيل حاصل.. وتتوفر في هذه الصورة الصوتية عناصر فنيّة عميقة؛ حيث تتجاوب أصداء النعيق في استمرارية متواصلة ينبعث ترددها في حركة مدبرة وأخرى مقبلة بشكل متوال؛ يتخافت تدريجياً إلى أن يتلاشى؛ الأمر الذي يؤدي إلى تراكم الأمواج الصوتية، وربما نجم عن ذلك من الرنين ما يبعث في النفس النفور والاشمئزاز. وهو هدف مقصود للتفير من حال الكفار الذين لا يستجيبون لداعي الله جل جلاله لما يحيي في عقولهم الوعي، ويغرس في صدورهم الإيمان بوحداية الله جل جلاله..

وجمال القبح يتمثل في الصورة المتقدمة؛ إذ إنها توحى بمعان تتقاطع مع الحق والخير والجمال. فالكفار - في المنظور القرآني - يعتنقون معتقدات باطلة، ويمارسون طقوساً شريرة في التقرب إلى الأصنام والأوثان والحبث والطاغوت، وكلها لا تعدو - حتى في مظهرها الخارجي - أن تبدو قبيحة،

١- ينظر: الرازي، مختار الصحاح: ص ٢٧٨.

٢- الصنعاني، تفسيره: ٦٥/١.

٣- يلاحظ أن أغلب المفسرين يخرجون معنى «الذي ينعق» على أنه الراعي الذي يصيح بغنمه.

ينظر: الرازي، التفسير الكبير: ٨/٥.

وبطلانها في أن يعدّها الكفّار آلهة من دون الله جل جلاله^(١)، أو يعبدها المشركون لتقرّبهم إلى الله جل جلاله زلفى^(٢).. تتغلغل السخرية في الطرف الثاني من التشبيه في الصورة المتقدّمة من سورة البقرة (صورة الغراب الناقع بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً)، في حين أننا نجد في طريقة العرض التصويري الذي شخّص تجاوب الأصداء، وجسد التصادي بين حركتي الإقبال والإدبار فنيّة دقيقة ومعبرة؛ حيث إنّ مثل هذه الصياغة التصويرية تطبع المعاني في مخيلة المتلقّي، وتحفظ بفاعليتها في ذاكرته إلى آمام طويلة. وبغرز هذا الانطباع في أعماق العقل الباطن يؤدي «جمال الفُبْح» وظيفته الإبلاغيّة؛ فيزيد المتلقّي معرفة بأحوال الكفّار الذين أطرت صورتهم بالازدراء والسخرية.. بالاحتقار والتهجين، فينكفؤون خائبين.. وتبقى هذه الصورة ماثلة في مخيلة الكفّار ليحتقروا أنفسهم.. وتبقى هذه الصورة أيضًا ماثلة في أذهان المؤمنين ليعتبروا بها، وليشكروا الله تعالى على ما أنعم عليهم من الهداية إلى سواء السبيل.

وتمثل طريقة صلاة العرب في الجاهليّة إحدى الصور الصوتيّة التي تشكّل الحركة واحدًا من عناصرها الفنيّة: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ (الأنفال: ٣٥). «المكاء: الصفير على نحو (صوت) طير أبيض يقال له «المكاء» ويكون بأرض الحجاز. والتصديّة: التصفيق»^(٣).

صلاة العرب في جاهليّتهم «لم تكن رهبة ولا رغبة؛ وإنّما كانت مكاءً وتصديّة من نوع اللعب ولكنهم كانوا يتزيّدون فيهما وقت النبي صلّى الله عليه وسلّم ليشغلوه هو وأمّته عن القراءة والصلاة»^(٤). إنّ حركة الكفّين عند

١- تنظر: الشعراء: ٧١، العنكبوت: ١٧، النساء: ٥١.

٢- تنظر: الزمر: ٣.

٣- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣٠٧/٢.

٤- الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٩٧/٢.

التصديّة (التصفيق) قد تتعدّى جانبها الإيقاعيّ إلى التعبير عن الانفعال الداخليّ، كذلك يقال عن الماء (الصفير). وإذا كانت هذه الظاهر تتسجّم مع الصنميّة فإنّها لا ترتقي إلى مصافّ الحركات العباديّة الرزنيّة؛ لأنّها ضرب من الإسقاط.

الجمال والقبح: يشكّلان ثنائيّة ضدّيّة، وهذا التقابل يعمّق الإحساس بالرغبة في التسامي نحو الجمال، وفي التنفير من القبح. وبما أنّ الجمال صنو الخير، وأنّ القبح صنو الشرّ؛ فإنّ حبّ الجمال يعني حبّ الخير، وحبّ القبح يعني حبّ الشرّ، فإنّ الميل إلى الجمال والإعراض عن القبح يعني الاستجابة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا ما دعت إليه الشريعة؛ وحلّت به الأخلاق الإسلاميّة أبنائها.

ومن جماليّات السمع: نجد أنّ الأصوات المنسجمة المتناغمة تعمل على استقطاب الأذن البشريّة، وتجذب الانتباه والإصغاء، بما تتحلّى به من جماليّات ترهف الذوق السليم. لقد أنجب السمع فنوناً رفيعة بما يتمتّع به من مزايا القيم الجماليّة المنبثقة عن الأصوات؛ بوصفها وسيلة الخطاب والتفاهم الاجتماعيّ، وما يتعلّق بهما من ترجمة التعاطف مع الآخرين، ومن مشاركات وجدانيّة معهم.. ومن هنا امتلك الخطاب القرآنيّ قدرة متميّزة على التأثير عبر الزمن..

وللصوت قدرة تعبيرية؛ إذ تتفاوت دلالة الصوت - حسب طبقاته ودرجاته - في التعبير عن المعاني والأحاسيس والانفعالات المختلفة؛ فالصياح يعبر عن الغيظ وعن الحالات العصبيّة.. والصراخ يعبر عن الفزع^(١) والألم^(٢) والهستيريا، (وربما عبر عن الفرح المتزايد في بعض الأحوال).. والصوت الواطئ يعبر عن العواطف الرزنيّة مثل التودّد، والحبّ، والأحزان،

١- تنظر: النحل: ٥٣.

٢- تنظر: فاطر: ٣٧.

والإخلاص، والمشاعر العميقة.. والمنظومة حروف اللين والمدود مشاركة فاعلة في عكس المعاني وتصوير الأحاسيس، وهي تساعد في رفع الأصوات بالبنداء والصراخ والاستغاثة، وبالغناء أيضاً، كما أنها تجمل الصوت في التلاوة؛ ولها أحكام خاصة في علمي التجويد والقراءات.. والسمع شرط النبوة، فلم يبعث الله رسولا أصم.. والسمع كذلك من شروط القضاء في الإسلام.. فبالسمع يحصل التفاهم.

وإذا كان للتفصيل في الجماليات مُتَّسَع في هذه الرسالة، فإنَّ مجال الحديث عن النقيض محدود؛ لذا سنكتفي بالإشارة المقتضية عن هذا الجانب، قال تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَسِّكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

و(اغضض من صوتك) أي: اخفض من صوتك عن الملاء، وقيل: أمره بالاعتقاد في صوته. و(أنكر الأصوات): أي: أقبح أنواعها. (لصوت الحمير) قيل: أوله زفير وآخره شهيق^(١). في هذا النص إقرار وتحديد لأنكر من الأصوات، وقد ورد في سياق الغاية منه التهذيب التربوي في إطار العلاقات الاجتماعية، لا سيما ما يتعلق بأداب الحديث والتحاور مع الآخرين..

ولعل ورود «صوت الحمير» في أدنى درجات السلم بسبب ما يكتنفه من نشازات تُعْجُها الأذن البشرية لما تثيره في النفس من اشمزاز يبعث على السخرية. والحثُّ على «غضُّ الصوت» عند المحادثة يقبل النهي عن رفع الصوت أعلى ممَّا يتطلَّبه الطرف. ولم يذكر رفع الصوت في النصِّ وإنما استعير عنه بـ«أنكر الأصوات» للتفسير من الهرج والمرج والخروج على اللياقة الرزينة. إنَّ جماليَّة الصوت في الغضِّ من الصوت تقابل قبح الأصوات المنكرة. وهذا التباين المتجاور يجسِّد قيمة كلِّ من النقيضين.

١ - السيوطي، الدر المنثور: ٦/٥٢٤.

العلاقة بين السمع والبصر:

من الميزات السمعية أنّ حاسة السمع تتخلّق في الجنين -وهو في بطن أمّه- قبل حاسة البصر، وهذا مفهوم من تقديم السمع على البصر في عموم الآيات التي ذكّرتهما بالصيغة الاسميّة.. ومنها أنّها تبقى تزاوّل وظيفتها في حالة نوم الإنسان، مع الفوارق في درجة فاعليّتها بين حالتيّ اليقظة والنوم.. قلنا: بالسمع يحصل التفاهم، بينما البصر مستقلّ بالمرثيَّات.. والسمع يستقبل المعلومات الآتية من كلّ الاتّجاهات، في حين أنّ للنظر مساحة محدودة؛ فلا تتمكن العين -مثلا- من النظر إلى الوراء إلاّ بعد الاستدارة.. النطق مرتبط بالسمع، فإنّ بطلّ الثاني بطلّ الأوّل؛ أي: من لم يسمع لا يمتلك أن يجيب؛ فهو بمنزلة الأبكم، وليس النظر كذلك.

لقد قصّر بعض المتخصّصين في الغرب الإحساسات الجماليّة على السمع والبصر. وذهب آخرون إلى أنّ جميع حواسنا قادرة على أن تهيبّ لنا انفعالات جماليّة^(١).

ويذهب بعض الدارسين إلى أنّ في القرآن الكريم «ظاهرة تقديم السمع على البصر، أيّما وردت الكلمتان في آيات الكتاب المبين... دونما تغيير في هذا الترتيب ولو مرّة واحدة»^(٢).

وهو رأيّ فيه نظر؛ حيث وردت كلمة «السمع» اسمًا مفردًا (مستقلّة ومتّصلة بالضمائر) إحدى وعشرين مرّة^(٣).. من بينها اثنتا عشرة مرّة مقرونة بكلمة (أبصار/ بصيغة الجمع)، ومرّة بكلمة (بَصْر)/ بصيغة

١- كما في نظريّة (جرانت آلن) في الجمال، وقريب منه مذهب (كنت) و(مين دوربيران) و(كوزان) و(جوفروا). ينظر: جان ماري جويو، مسائل فلسفة الفن المعاصر، ص ٧٢.

٢- عبد العزيز سمين البياتي، تأملات السمع والبصر في القرآن، جريدة: صوت التأميم، ع/١٦، ٢٤ ذو القعدة ١٤٢٠-٢٩ شباط ٢٠٠٠، كركوك.

٣- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٣٦١، ٣٥٨.

الإفراد^(١). كما وردت مقرونة بالفعل «يبصرون»^(٢). على أنّ عددًا من الآيات تضمّنت تقديم أفعال النظر أو ما يدلّ عليها، على أفعال السمع أو ما يدلّ عليها.

- ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَاسْمَعُ﴾ (الكهف: ٢٦). (غيب السموات والأرض) أي: ما خفي فيهما وغاب من أحوالهما ليس لغيره من ذلك شيء، ثمّ زاد في المبالغة والتأكيد فجاء بما يدلّ على التعجّب من إدراكه للمبصرات والمسموعات فقال: (أبصر به وسمع) فإفاد هذا التعجّب، على أنّ شأنه سبحانه في علمه بالمبصرات والمسموعات خارج عمّا عليه إدراك المدركين، وأنّه يستوي في علمه الغائب والحاضر والخفي والظاهر والصغير والكبير واللطيف والكثيف، وكانّ أصله: ما أبصره وما أسمع^(٣).

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا لَعْمَلٍ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ١٢). أي: (ناكسو رؤوسهم) أي: «مطأطئوها حياء من ربهم عزّ وجلّ؛ ويقولون: ربنا أبصرنا ما كنا به مكذّبين، وسمعنا منك صدق ما أتت به الرسل»^(٤).

- ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٧١). «فعموا وصموا فلم يعملوا بما رأوا ولا بما سمعوا، أو فعموا عن الرشد وصموا عن الوعظ.. ثمّ عموا وصموا كثير منهم»^(٥).

١- تنظر: الإسراء: ٢٦.

٢- تنظر: هود: ٢٠.

٣- الشوكاني، فتح القدير، ٢٧٩/٣.

٤- الواحدي، الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز، ٨٥٢/٢.. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩٥/٤.

٥- النسفي، تفسيره، ٢٩٤/١.

- ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَرَ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ (هود: ٢٤). «المثل لا يطلق إلا على ما فيه غرابة من الأحوال والصفات كالأعمى والأصم والبصير والسميع؛ أى كحال هؤلاء فيكون ذواتهم كذواتهم، والكلام وإن أمكن أن يحمل على تشبيه الفريق الأول بالأعمى وبالأصم وتشبيه الفريق الثاني بالبصير وبالسميع، لكن الأدخل في المبالغة والأقرب إلى ما يشير إليه لفظ المثل.. وإنما لم يراعَ هذا الترتيب هنا لكون الأعمى أظهر وأشهر في سوء الحال من الأصم ومن استعمال الفريق الثاني لكل من أبصارهم وأسماعهم.. حسبما قُسر به فيما مرّ فلا يكون التشبيه تمثيلاً.. فتشبهه بهيئة منتزعة ممّن فقد مشعري البصر والسمع فتخطب في مسلكه فوقع في مهاوي الردى»^(١).

لقد اختلف المفسّرون والدارسون والمفكّرون في تعليل تقديم السمع على البصر (في سياقات ورودهما اسمين)، وقُدِّمت آراء كثيرة في هذا الصدد.. ونحن نرى أنّ سبب تقديم السمع على البصر في مواضعها يكمن في ما للسمع من آثار في التوازن الحركي للإنسان، حيث ثبت أنّ في الأذن الوسطى مراكز عصبية تعمل على حفظ توازن الإنسان.

وبناء على كلّ ما تقدّم؛ يمكن أن نوجز القول: إنّ المردودات الحركية للسمع هي أهمّ وأخطر من المردودات الحركية للبصر بالنسبة للإنسان، كما فهمنا من النصوص القرآنية الكريمة، والله تعالى أعلم.

١- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ١٩٨/٤.



الفصل الثاني

مجالس الحركة الصهيونية
في القراءات الكريمة

تمهيد:

نتناول في الفصل الثاني موضوعات الحركة التصويرية في ثلاثة مباحث: المبحث الأول يتناول الحركة في الكون وبضمنه السماء، وحركة الشمس نموذجاً لحركة الكواكب والأجرام.. والمبحث الثاني يتناول الحركة في الطبيعة في عدّة محاور؛ بضمنها حركة النبات والحيوان. والمبحث الثالث يتناول حركة التواصل بين السماء والأرض؛ متمثلة بحركة الإسراء والمعراج والحركة التعبدية المشتملة على الصلاة والحجّ.

إنّ القرآن الكريم يربط -عادةً- الحديث عن الكون بالحديث عن الطبيعة، أو ما يمكن تسميته بـ «الطبيعة السماوية» و«الطبيعة الأرضية»؛ لأنّ كلا منهما يتّم الآخر وينتظم معه في منظومة الوجود. ومع ذلك يُلاحظ أنّ هناك شيئاً من التمايز والخصوصية بين مفاهيم الطبيعة السماوية والطبيعة الأرضية. وبغية استيضاح عناصر كلّ من: الكون والطبيعة ووظيفتهما ارتأينا دراسة كلّ منهما في مبحث على انفراد؛ تسهيلاً لمتابعة الدراسة.

لقد ثبت علمياً أنّه ما من جسم في الكون من الذرّة إلى المجرة إلاّ وهو في حركة دائمة بسرعات مختلفة.. وصار حقاً علينا أن ننظر إلى الأشياء المدركة نظرة نسبية؛ نمزج بها بين مكانها وزمانها وحركتها وسرعتها، وهذا هو معنى «النسبية»⁽¹⁾.

١- نديم الجسر، قصّة الإيمان، ص ٢٥٨.

المبحث الأول

المجال العلوي (السمائي)

(الحركة الكونية)

الكون .. السماء .. الشمس

مدخل:

إنّ ما يقارب سبعمائة آية تصوّر الكون والسماء والكواكب وتحدّث عنها^(١)، مثل هذا العدد الكبير ضيق مبحث كهذا استقصاء جزئياته واستيعابه جميعاً؛ الأمر الذي وضعنا أمام حتمية الاختيار. ومع هذا وذاك فقد حاولت الدراسة؛ من خلال النماذج المختارة؛ أن تُبرز الظواهر الحركية والمظاهر الجمالية في الكون المنظور في هذا المبحث الذي تناول الحركة الكونية في المجال العلوي/ السماوي. ويُذكر أنّنا نقصد بالمجال ما هو مرادف مقارب للحيز بدلالتيه: الامتدادية (الكون)، والحصرية (مسار الشمس والكواكب «وكل في فلك يسبحون»).

الحركة الكونية/ الكون، السماء :

هناك فرق بين الحركة بوصفها ظاهرة، وبين وعي الحركة بوصفه فكرة أو مقولة.. فأما كون الحركة الكونية ظاهرة وجودية فلأنّها تمتدّ إلى كافة أجزاء الوجود، وهي من الدقّة ما لا يُعقل أن تكون عشوائية عابثة. وهنا يأتي دور وعي الحركة، وهو وعي فطري لا يستلزم ثاقب فكر، ولا ثقافة متبحرة. إنّ القوانين والأنظمة التي تسيّر وفقها عناصر الكون والوجود لا بدّ من قدرة قادرة تتحكّم فيها وتسيّرهما. ومن خلال الاستدلال العقلي (والفطري) يتوصّل الإنسان إلى الاقتناعات الإيمانية بخالق هذا الكون وهذا الوجود. وقد ضرب لنا القرآن الكريم مثلاً في قصة سيّدنا (إبراهيم عليه السلام) وطريقة

١- د. كاسد الزبيدي، الطبيعة في القرآن الكريم: ص ٤٦.

توصّله إلى الإيمان الحقّ، كما سنعرض لها.

إنّ التدبّر في آيات الكون يضعنا قبالة مجموعة من الحقائق، فالكون مظهر عيانيّ لقدرة الله جل جلاله، ونظامه دليل على العناية الإلهية. فالإبداع في خلقه واحد من البراهين القاطعة على وجود الله جل جلاله، ولهذا حتّ القرآن الكريم على التفكير والنظر في ملكوت الكون والتأمّل في جمال الوجود لا سيّما ما انبثق منه عن حركة عناصره.

لقد قارن (موريس بوكاي) العالم الفرنسي بين نسبة الحقائق العلميّة في كل من التوراة والإنجيل والقرآن، في دراسة رصدت طبيعة المساحة المعرفيّة في الكتب الثلاثة، فوجد أنّ تسعة من عشرة تسقط في كل من التوراة والإنجيل، ويبقى ١٠/١ مطابقاً للعلم الحديث. في حين وجد أنّ ما ورد في القرآن الكريم من الحقائق العلميّة كان بنسبة «١٠ / ١٠»، ممّا طبّقته نتائج العلوم الحديثة. إنّ في ما يناهز التسعمائة آية من آي القرآن الكريم معانيّ حاتّة على العلم والتوجّه نحو طرائق التلقّي المعرفيّة.. ثمّ «إنّ الوفاق الحركيّ بين الإنسان والكون لهو أحد مفتاحين كبيرين، يفسّر لنا كيف يتحقّق صعود الإنسان إلى الآفاق البعيدة التي جاء هذا الدين لكي يقود الإنسان إليها»^(١).

ويتمحور الحديث عن الكون في القرآن الكريم حول التأكيد على وحدانيّة الله جل جلاله خالق هذا الكون العظيم؛ ناسخاً بذلك كلّ ما تخيلته الميثولوجيا القديمة والفلسفات الوضعيّة السالفة. إنّ القرآن الكريم «يعرض الكون وهو يبني العقيدة، ويعرض الكون وهو يربيّ الخلق، ويمزج بين الجميع بطريقة مدهشة. فالنظر في الكون والواقع والتاريخ يقود إلى الإيمان، ويوصل إلى التوحيد، ويبني الخلق»^(٢).

إذا كان علماءنا القدامى قد استدعوا حتّى (الإسرائيليات) في محاولة

١- د. عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٥.

٢- الشيخ محمد الغزالي: كيف نتعامل مع القرآن، ص ٤٤-٤٥.

لتوضيح بعض القضايا التاريخية الغامضة فحريّ بنا أن نستدعي نحن ما توصل إليه العلم للإفادة منه في تفسير القرآن الكريم، مع الأخذ بالاعتبار أن النظريات العلمية تخضع للنسبيّ والمتغيّر بينما القرآن الكريم ثابت وعمام. إنّ التفسير العلميّ الحديث للقرآن الكريم يستدعي الخبرات العلميّة (الفيزيائيّة.. والكيميائيّة.. والرياضيّة) لتفهم النصّ القرآنيّ؛ ذلك أنّ الإسلام لم يكن ليدعو إلى جعل العلم حكراً على نخبة من الناس أو فئة معيّنة من الخاصّة. وإذا كان بعض التيارات في الغرب قد آله العلم، فإنّ الإسلام جعل من العلم سبيلاً لاقتناعات الهدى الإيمانيّ بالله جل جلاله. وإذا كان العلم في الغرب قد قطع شوطاً واسعاً، وما يزال، فإنّ ذلك يؤكّد مصداقيّة قوله تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠).

﴿ سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣). «هذه الإرادة لا تختصّ بقرن دون قرن، بل إن من فضل الله على الإنسانية أن يُري الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يُبين لهم أنّ الله الذي لا إله إلا هو، وأنّ رسله صادقون، وآيات الأرض أعظم ممّا ذكّر أكثر، فنبّه باليسير منها على الكثير»^(١).

ومع هذا، فمن الحقائق القرآنيّة الثابتة «أنّ القرآن الكريم له عطاء متجدّد؛ وهذا العطاء المتجدّد هو استمرار لمعنى إعجاز القرآن. ولو أفرغ القرآن عطاءه كلّهُ أو إعجازه كلّهُ في عدد من السنوات أو في قرن من الزمان لاستقبل القرون الأخرى دون إعجاز أو عطاء، وبذلك يكون قد جمد، والقرآن لا يجمد أبداً، وإنّما يعطي لكلّ جيل بقدر طاقته، ولكلّ فرد بقدر فهمه، ويعطي للجيل القادم شيئاً لم يعطه للجيل الذي سبقه.. وهكذا»^(٢).

لقد اعترف بعض من رعييل الثورة العلميّة الأولى -لاسيماً علماء الفيزياء

١- الزرعي، التبيان في أقسام القرآن، ١/١٨٩، ١٩٠.

٢- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن: ص٨٤.

الكونيَّة (أنشتاين) و(سوينجر) - أن العلم ليس بمقدوره أن يبيِّن لنا كلَّ الظواهر بما فيها الكونيَّات، بينما هناك علماء آخرون اعترفوا بأنَّ العلوم الطبيعيَّة لا يمكنها أن تقدِّم إجابات نهائيَّة عن كلِّ الأسئلة، وأقروا بأنَّ لا بدَّ من الالتجاء إلى الدين في الإجابة على المسائل والمعضلات الكبرى^(١).

وعن الاستدلال الاستقرائيَّ في عالم الكونيَّات يمكن اختصار القول فيه بما يلي: بما أنَّ الكون يخضع للمشاهدة والحسِّ، فإنَّ بإمكان العقل أن يعالجه من خلال إخضاعه للملاحظة وللتجربة الحسيَّة «سواء» بحاسة البصر (العين)، أم بالبصيرة (الحسِّ والعقل) التي يعوِّل القرآن الكريم عادةً عليها؛ وصولاً إلى الحقائق العلميَّة التي يركن إليها في الكشف عن معارف جديدة.

وفي القرآن الكريم متابعات للأطوار المرحليَّة التي يمرُّ بها كثير من الظواهر الكونيَّة، فضلاً عن منظومة العلاقات بينها وبين مجمل الظواهر الدنيويَّة الأخرى؛ (وانتهاءً بتوثيق الاستدلال على حقيقة البعث والنشور يوم القيامة)؛ لا سيَّما في البحث في الجانب الكيفيِّ الخاصِّ بالهيئة على مستوى الكون عموماً^(٢). ولا بدَّ للاستقراء من مرحلة تالية تتمثَّل بالقياس الذي هو -كما يقول (ابن رشد) - «استنباط المجهول من المعلوم»^(٣).

لقد اختصر القرآن الكريم قصَّة خلق الكون في آيات ثلاث تُصوِّر: مرحلة الانفجار الكونيِّ.. ومرحلة البناء الكونيِّ.. ومرحلة التناهي الكونيِّ.. فعن المرحلة الأولى يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠). أي «إنَّ السموات كانت رتقاً لا تمطر، والأرض كانت رتقاً لا تثبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات»^(٤).

١- ينظر: د. محمد عبد اللطيف: الفلسفة والفيزياء: ٩ / ٢.

٢- تنظر: فاطمة إسماعيل محمد إسماعيل: القرآن والنظر العقلي، ص ١٢٤، ١٢١.

٣- ابن رشد: فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتِّصال، ص ١٠.

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١١ / ٢٨٤.

وفي المرحلة الثانية يؤكد حقيقة «الجعل» المائي أساس الحياة، يقول جل وعلا: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣٠).. ويقول سبحانه: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات: ٤٧). أي «وجعلنا من الماء النازل من السماء والنابع من الأرض كل شيء حي من نبات وغيره؛ أي فالماء سبب لحياته أفلا يؤمنون بتوحيدي»^(١). وقوله تعالى: (والسماء بنيناها بأيدي)؛ أي بقوة. وإنا لموسعون: لقادرون: من الوسع بمعنى الطاقة. والموسع: القادر على الإنفاق. أو لموسعون السماء أو ما بينها وبين الأرض»^(٢).

وعن المرحلة الثالثة يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤). فقوله تعالى: (كطي السجل للكتب): طياً.. لأجل الكتابة فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع «أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه»، وقريء بالافراد (للكتاب)^(٣).

وفي قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج لتبصير العقل وإيقاظ الفكر للنظر والتأمل في الكون ونظام حركته؛ وصولاً إلى استحصال مرتبة اليقين في سلم الإيمان بالله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾^(٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ^(٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ^(٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا دُشِرْتُ كُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٥-٧٨). «وهذا استدلال على

١- السيوطي، تفسير الجلالين، ٤٢٣/١.

٢- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ١٤٢/٨. وتجدر الإشارة إلى ما سُمي في العصر الحديث بـ«الكون الاحدب».

٣- البيضاوي، تفسيره: ١١٠/٤.

أن كلَّ محدثٍ ممكن فهو محتاج إلى صانع.. فوجب أن يكون المراد من إراءة الملوكوت تعريفٌ كفيّة دلالتها بحسب تغيّرها وإمكانها وحدوثها على وجود الإله العالم القادر الحكيم»^(١).

وسواء أكانت الرؤية بالبصيرة الباطنة أم بالبصر الظاهر، فإنّ ورود الفعل «نرى» بصيغة المضارع المستمرّ، وليس بصيغة الماضي، بالرغم من انقضاء الحدث، إنّما المرادُ منه -والله أعلم- تعميم العبرة من هذا الاستدلال. يوثق هذا الرأي قوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ ﴾ (فصلت: ٥٣). وهذه إحدى طرائق القرآن الكريم في الاستدلال بالأدلة الكونيّة لإثبات العقيدة السليمة.

فالسنن الكونيّة قوانين تتّصف بالثبوتية المقدّرة إلى ما يشاء الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨). وعلى تلك القوانين جرى نظام الكون، وقامت جميع مخلوقات الله تبارك وتعالى.

وتبدّل الأرض «نقلتها من شكل إلى شكل. واختلّف في تبديل الأرض والسموات، فقيل: تُبدّل أوصافها.. وقيل: هي تلك الأرض وإنما تُغيّر وتُبدّل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها وكونها أبواباً. وقيل: تُخلَق بدلها أرض وسموات آخر»^(٢).

هناك مبداءان مهمّان يستوقفان الباحث في مجال الكونيّات والطبيعيّات وهما: «مبدأ التسخير».. و«مبدأ الاستخلاف»؛ فمبدأ تسخير قوى الكون والطبيعة لصالح الإنسان كان قد وضعه الله تعالى لتسهيل مهمّة الإنسان في تحقيق مبدأ الاستخلاف الهادف إلى إعمار الأرض واستثمارها؛ بغية أداء الفروض التي أنيطت بالإنسان في إطار حركة حضاريّة مؤمنة شاملة

١- الرازي، التفسير الكبير، ١٣/ ٤٤.

٢- النسفي، تفسيره: ٢٣٥/٢.

تدين بالولاء لله سبحانه وتعالى. وتتدد بالأنشطة المؤدية إلى الإفساد في الأرض، وتتصدى لها، سواء أكان ذلك الإفساد مادياً أم روحياً، فكرياً أم أخلاقياً^(١).

الكون المتحرك:

يقول د. عماد الدين خليل: «إنّ الوفاق الحركي بين الإنسان والكون لهو أحد مفتاحين كبيرين، يفسّر لنا كيف يتحقّق صعود الإنسان إلى الآفاق البعيدة التي جاء هذا الدين لكي يقود الإنسان إليها». ويضيف في مناسبة أخرى: «إنّ منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمّسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البيّنات»^(٢).

إنّ ميكانيكيّة (نيوتن) الكلاسيكيّة من نظريّات الفيزياء الأساسيّة، لا سيّما طرّفه الرياضيّة في معالجة الحركة بواسطة معادلات تفاضليّة وتكامليّة. ويشتمل موضوع نظريّته -فيما يشتمل- على مجمل الأجرام الفلكيّة، ويمتاز على سابقه بفكرة «الاستمراريّة» أو «القصور الذاتي». لقد تصوّر (نيوتن) أنّ الله قد أعطى الأجرام السماويّة «الدفعة الأولى» فحرّكها، ثمّ لم يتدخّل بعد ذلك إلا لإصلاح الاختلال الذي يحصل في حركة الكواكب حول الشمس جرّاء تأثير بعضها على بعض^(٣). غير أنّ الظاهر من هذه المقولة أنّها تتغافل عن أنّ النظام الذي تجري فيه حركة الكون يؤكّد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَا إِنَّ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (فاطر: ٤١). وقوله تعالى: (أَنْ تَزُولَ) معنى الزوال هنا: التنقل من مكانها، والسقوط من علّوها. وعن (ابن مسعود): أنّ السماء لا تدور،

١- ينظر: د. عماد الدين خليل: مدخل إلى موقف القرآن الكريم من العلم. ص ٥١.٤١ وص ٢٣.٢٧.

٢- د. عماد الدين خليل: حول إعادة تشكيل العقل المسلم، ص ١٥، ص ١٠٦.

٣- ينظر: د. محمد عبد اللطيف: الفلسفة والفيزياء، ٩/٢.

وإنما تجرى فيها الكواكب^(١). وأما معنى الفلك: يقال «فلك السماء التي تدور عليه النجوم»^(٢)...

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤَدُّهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥) «لا يثقله ولا يشق عليه حفظهما»^(٣). «مأخوذ من الأود وهو الاعوجاج، وحفظهما: أي حفظه السموات والأرض، فحذف الفاعل وأضاف المصدر إلى المفعول وهو العلي المتعالي عن الأنداد والأشباه العظيم.. وهذه الآية مشتملة على أمهات المسائل الإلهية؛ فإنها دالة على أنه تعالى موجود، واحد في الألوهية، متصف بالحياة، واجب الوجود لذاته، مُوجد لغيره»^(٤). ومن هنا يفهم معنى اتقان الله تبارك وتعالى في صنعه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨).

وحركة الأجرام والكواكب في الكون حركة دائرية: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠)^(٥). وهي جزئية من جزئيات حركة الوجود الكبرى. ومبدأ تسخير ما في الكون يعني أن كل عناصره تخضع لمشيئة الله تعالى وهيمنته؛ أي إن نظام حركة الكون دائماً خاضع للمشيئة الإلهية، وأنه ليس بعيداً عنها.. أما ما يتعلق بإصلاح الاختلال الذي يحصل في حركة الكواكب حول الشمس، فهو يؤكد ما كان القرآن قد أقره عن السموات والأرض:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (فاطر: ٤١). واستمرار الهيمنة الإلهية مفهوم من قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيِّدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: ٤٧).

١- ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٢٦٠/٣.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٩٤/٢.

٣- النسفي، تفسيره: ١٢٤/١.

٤- البيضاوي، تفسيره: ٥٥٥/١.

٥- وانظر: الأنبياء: ٢٣.

ومعنى (بأيدي): أي بقوة وقدرة. وإنا لموسعون: لقادرون على خلقها وخلق غيرها لا يضيق علينا شيء نريده»^(١).

وكل ذلك وفق قوانين وضوابط محكمة وثابتة.. فالكون ليس ثابتاً، وإنما هو وجود حركي زاهر، وجود حركي تجديدي، وإن الحركات الكونية متفاعلة ومتناغمة ومتجاوبة.. على أساس من التوازن الدقيق والصلوات المتبادلة^(٢). فالحركة الكونية جزء من حركة الوجود.. وهي حركة فعالة ومتفاعلة، مترابطة ومتكاملة، سببية وغائية^(٣). إن حركة الكون المرئي تستقطب عناصرها دهشةً الذاتية الجمالية لدى الإنسان المتأمل وهو يقلب نظره في أعماق هذا الكون الفسيح، سواءً بقنطرة الخلفية السوداء التي تحتضن الكواكب المتلاثلة بألوانها المتعددة والنجوم البعيدة، وهو يكتشف في كل لحظة عشرات النجوم الفائرة في أعماق الكون ليلاً، أما جمال القمر فيكفي أن يكون سمير الشعر والشعراء.. أم بوضاءة الخلفية الزرقاء التي تخفي تلك الكواكب والنجوم نهاراً لتتفرد الشمس بضيائها الذي يملأ الكون، وبدفئها الذي يبعث الحركة والحياة في كل الكائنات. أما المساحات اللونية في السماء ساعة المغيب، ولا سيما إذا كانت ملبدة بالغمام والغيوم، فإن أجمل ما فيها يتمثل بالحركة؛ حركة تداخل المساحات وتمازج الألوان القزحية في جنباتها.. في مثل هذه اللحظات يقف الإنسان مبهوراً أمام روعة هذا الجمال، يقف خاشعاً ليستوضح موقعه من هذا الكون الفسيح، ويتساءل إزاء عظمة القدرة التي أبدعت هذا الوجود بإيقاعات نظامه الدقيق وموسيقاه التي تستحوذ على كل الحواس.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٥٢/١٧.

٢- د. غالب حسن الشابندر، الوجود في القرآن الكريم: ص ٤٥، ٤٦.

٣- ينظر: د. غالب حسن الشابندر، المرجع السابق، الصفحات على التوالي: ص ٤٦٣٩، ٤٠، ٤١.

(ق: ١٠٦). «فروج: شقوق وفتوق وصدوع»^(١). وقوله تعالى: أفلم ينظروا: «نظر اعتبار وتفكر، وأنَّ القادر على إيجادها قادر على الإعادة. كيف بنيانها فرفعناها بلا عمد، وزيناها بالنجوم، وما لها من فروج.. ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق»^(٢).

الشمس:

من عناصر المجال الحركي الكوني الشمس: ورد ذكرها (٢٣) مرّة في القرآن الكريم. والشمس آية من آيات الله جل جلاله.. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت: ٣٧). وقد أقسم الله تعالى بها؛ لأنّها من جليل إبداعه^(٣). ولعظمتها فقد ألّفها بعض من الأقوام القديمة كالبابليين، كما جاء في «ملحمة كلّامش»، وفي الميثولوجيات القديمة^(٤). ونقل لنا القرآن الكريم عن بعض الأمم الغابرة أنّهم كانوا يسجدون للشمس من دون الله، مثل «قوم سبا»^(٥). وفي قصّة إبراهيم عليه السلام أنّه رفض الوهيّتها بعد أن أفلتت^(٦)..

ولهذا أكّد القرآن الكريم على النهي عن اعتقاد الوهيّتها أو السجود لها. إنّها إحدى مخلوقات الله جل جلاله الجدير بالسجود له وحده، والجدير بالألوهيّة والوحدانيّة^(٧).. كما أكّد القرآن الكريم على أنّ الشمس، بدورها، تسجد لله جل جلاله؛ تسجد مع القمر ومع كلّ من في السموات والأرض^(٨)..

١- البغوي، معالم التنزيل: ٢٢١/٤.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٦/١٧.

٣- تنظر: الشمس: ١، ٢، التكوير: ١، القيامة: ٩.

٤- ملحمة جلجامش والطوفان، ب ٩، ترجمة: طه باقر وبشير فرنسيس، مجلة «سومر»، ٦٦، ج ٢، ص ١٤٦.

٥- تنظر: النمل: ٢٤.

٦- تنظر: الأنعام: ٧٨.

٧- تنظر: فصلت: ٣٧.

٨- تنظر: الحج: ١٨.

ولكلّ طريقته في السجود لله جل جلاله. ثم إن الشمس مسخرة بأمر الله جل جلاله ^(١) للإنسان ^(٢).

ويفهم من القرآن الكريم أنّ الشمس هي مصدر الضياء، الذي ينعكس على سطح القمر فيسميه القرآن نوراً ^(٣).. ويسمى الشمس سراجاً ^(٤). ويفهم من القرآن الكريم أنّ الشمس مصدر الضياء بالنسبة للإنسان أيضاً، ولهذا سمّاها سراجاً - كما مرّ آنفاً - يصدر عنها الضياء الذي ينعكس على القمر فيغدو نوراً، كما جعل الشمس دليلاً على الظل الذي هو ظاهرة متوسطة بين الضوء والظلمة.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَيْكِ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ (الفرقان: ٤٥).

بالعكس أيضاً فإن امتداد الظل مؤشّر على حركة دوران الأرض حول نفسها، ودوران الأرض يسجّل الزمان التقويمي.. ويفهم من مدّ الظل «أنّ هناك حركة كونيّة عريضة، يصاحبها تجدد لا يفتّر وتغيّر لا يهدأ... والقرآن الكريم يعرض لنا حركة الكون وهي تمارس تغيّراً مستمراً متوالياً، ينبض بالتجدد المستمرّ بأسلوب معجز رائع يدعو الإنسان إلى الاتّصال العقليّ والروحيّ والمادّيّ بهذا الجريان السيّال متدبّراً منفعلاً مستثمراً، متطلّعاً إلى ما وراء ذلك من قدرة عظيمة ورحمة واسعة، وهذا جانب مهمّ وعظيم في المنهج القرآنيّ في التربية» ^(٥).

حركة الشمس:

كانت المعرفة الإنسانيّة القديمة تعتبر الأرض مركز الكون، وعليه فإنّ الشمس هي التي تدور حول الأرض الثابتة، وهذا ما قد يبدو للعيان الفطريّ..

١- تنظر: (الأعراف: ٥٤، الرعد: ٢، لقمان: ٢٩، فاطر: ١٣، العنكبوت: ٦١، الزمر: ٥).

٢- تنظر: إبراهيم: ٢٣، النحل: ١٢.

٣- تنظر: يونس: ٥.

٤- تنظر: نوح: ١٦.

٥- غالب حسن الشابندر، الوجود في القرآن الكريم، ص ٤٠.

وقد جاء العلم الحديث ليصحح ذلك، وليؤكد أن الشمس مركزٌ تتحلّق من حولها مجموعة من الأجرام، بضمنها كرتنا الأرضية، غير أن هذه المجموعة الشمسية بمكوّناتها تتحرّك في إطار مجرّتها، وأنّ المجرة برمتها تتحرّك في إطار السديم، ومجموعة السُدم تتحرّك في مجال الكون الذي أطلق عليه «الأحذب»، وعليه فحركة الأجرام السماوية حركة نسبية، والشمس تجري دائبةً لمستقرّها، ولأجل مسمّى بتقدير من الله العزيز العليم:

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (يس: ٢٨).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۗ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۗ ﴾

(إبراهيم: ٢٢).

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الرعد: ٢).

إنّه نظام كونيّ خاصّ أسماء القرآن الكريم «حُسْبَانًا»: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (الرحمن: ٥). ولكلّ جرم سماويّ فلكه الذي يسبح فيه؛ في حركة دائبة وبمستوى (بعدين)، وليس بخطّ (يبعد واحد): «وقيل للكواكب بروج لظهورها من برج يبرج إذا ظهر وارتفع.. خلقها الله تعالى منازل للشمس، والقمر وقدره فيها، ورتب الأزمنة عليها»^(١). وكلاهما في حركة دائبة مستمرة: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠-٣٩).

قد أقسم الله تبارك وتعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ وَنُجُومُهَا ۗ وَالْقَمَرَ إِذَا نَلَّهَا ۗ وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا ۗ وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا ۗ ﴾ (الشمس: ٤١).

قوله تعالى: (والقمر إذا تلاها): إذا «تبعها؛ وذلك في النصف الأوّل من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر في الإضاءة وخلفها في النور.. وذلك حين استدار؛ يعني كمل ضوءه فصار تابعاً للشمس في الإنارة وذلك

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥/٢٨٤.

في الليالي البيض. (والنهار إذا جلاها): يعني إذا جلى الظلمة؛ كنايةً عن غير مذكور لكونه معروفاً. (والليل إذا يغشاها): يعني يغشى الشمس حين تغيب فتظلم الآفاق»^(١).

تعاقب الليل والنهار:

إن دوران الأرض حول محورها أمام الشمس تسبب تعاقب النور والظلمة على أقسام سطحها. « فالحركة سببت الزمن.. والزمن ناتج عن الحركة.. فالزمن إذن حركة.. أو الحركة زمن. والمكان نسبي في الكون؛ لأننا نتحرك مع سطح الكرة الأرضية وهي تدور حول نفسها... كل مكان في الكون هو في حالة حركة بالنسبة للكون ككل»^(٢).

وفي قوله تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الأعراف: ٥٤). نجد أن تعاقب الليل والنهار على مر الزمان هو من نعم الله على الإنسان تستوجب الشكر: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَاهُ شُكُورًا﴾ (الفرقان: ٦٢).

فالنهار يمتنعنا - فيما يمتنع - بنعمة الضياء.. والضياء يمكننا - فيما يمكن - من نعمة الإبصار.. والإبصار يسهل - فيما يسهل - الاجتماع، وفي ظل الاجتماع تُنجز - فيما تُنجز - الأعمال والمعاملات. ومثل هذه الظواهر والمظاهر تستوجب الخلود إلى الراحة ليلاً بعد إجهاد النهار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٧٠). وفي الآيات الثلاثة التالية تفصيل بعض ما يوجب الحمد لله جل جلاله مما يتصل بالجانب الكوني وحركيته:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ

١- البغوي، معالم التنزيل: ٤/٤٩١.

٢- ينظر: د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، كشف علمي جديد وإعجاز قرآني دائم، مجلة الفيصل، ع/١٢٩، س/١١، ربيع الأول ١٤٠٨هـ. تشرين الثاني ١٩٨٧م، ص ٢٩، الرياض.

يَأْتِيَكُمْ بُضِيَاءٌ أَفْلا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ
النَّهَارَ سَكْرَمًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يُأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ أَفْلا تَبْصُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿ (القصص: ٧١-٧٢). لا بدّ إذن من

نظام دقيق يوفر الظروف المناسبة لحياة الإنسان على سطح الأرض، ومنها
تعاقب الليل والنهار؛ إذ تكون حالة استمرارية النهار أو الليل سبباً لانقضاء
الحياة. إنّ الخيال ليعجز عن استيعاب الجزئيات المترتبة على سرمدية
كلّ من الليل والنهار.. فسرمدية الليل ودوام الظلمة تعني الموت؛ وبذلك
تستحيل الحركة - بتجمدها - سكوناً. وسرمدية النهار ودوام أشعة الشمس
المشرقة تعني الموت كذلك، سواء في ذلك ما يتعلق بالإنسان أم بالكائنات
الحية أم بمظاهر الحياة وظواهرها كافة. وفي النصّ القرآنيّ المتقدّم
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ..﴾ تتشكل الآيتان الأولى والثانية من نسقين متناظرين هما
بمثابة مقدمتين مفترضتين، كلّ منهما قائمة على استفهام إنكاريّ، يهدف
إلى إثبات الألوهية لله جل جلاله والإقرار بوحدانيّته بأسلوب قائم على
النظر العقليّ والمحااجة المنطقية.. فيما تمثل الآية الثالثة النتيجة في
إطارها المنع. فيما أنّه ليس هنالك بين مخلوقات الله من يتّصف بالأبدية
اللامتناهية أو الديمومة المطلقة، إذن فجميعها ليس بجدير بالألوهية أو
الربوبية، وهذا إقرار لا مجال للشكّ فيه بتفرد الله جل جلاله بالألوهية
المطلقة والربوبية الصمدية..

قيل: «وإنما قرن بالضياء «أفلا تسمعون»؛ لأنّ السمع يدرك ما لا يدركه
البصر من درك منافع ووصف فوائده. وقرن بالليل «أفلا تبصرون» لأنّ
غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه»^(١). ونحن
نرى اقتران ذكر السمع بضياء النهار؛ لأنّ النهار يتطلّب حركة للمعايشة،
والحركة تتطلّب توازناً، وفي الأذن مراكز عصبية للتوازن الحركي، ولهذا

١ - الرازي، التفسير الكبير: ١٢ / ٢٥.

اقترن ذكر النهار بالسمع.. بينما في الخلود إلى السكينة ليلاً أو أثناء النوم تنتنى -أو تقل- الحاجة إلى مثل تلك المراكز العصبية التي تفتقر إليها العين، لذا جاء هذا التناسق في القرائن.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧١، ٧٢). يستوقفنا من جماليات النص: الترابط على التوالي بين: «الليل / والنهار»، وبين مستلزمات كل بالترتيب ذاته: «لتسكنوا فيه / ولتبتغوا من فضله». فلو قلنا: (وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) لفصلنا بين الليل والنهار ولخالفت صورة التركيب اللفظي ما هو عليه الحال في الواقع الطبيعي أو الكوني؛ أي لما كان الليل والنهار متواصلين في الحقيقة والواقع فقد اقتضى كذلك أن يتواصل اسماهما في ترتيب الكلام.. ومن خلال ما تقدم نستوضح أن في الإيمان انفتاحاً على الزمان (الليل / النهار)، وعلى المكان (لتسكنوا فيه / ولتبتغوا من فضله). هكذا يوجه القرآن الكريم الإنسان نحو غايته، ويحرك العقل لمباشرة وظيفته، فيقدم الوجود ومسائله ومعضلاته الكبرى للبحث والتأمل وصولاً إلى الإقناع والاطمئنان إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى بواسطة دليل العناية.

المشارك والمغارب:

ذكر القرآن الكريم المشرق^(١)، والمشرقين^(٢)، والمشارك^(٣). كما ذكر المغرب^(٤)، والمغربين^(٥)، والمغارب^(٦). وقد تعددت الآراء في تفسير المشرقين

١- تنظر: البقرة: ١٤٢، ١٧٧، ٢٥٨، الشعراء: ٢٨، المزمل: ٩.

٢- تنظر: الزخرف: ٢٨، الرحمن: ١٧.

٣- تنظر: الأعراف: ١٣٧، الصافات: ٥، المعارج: ٤٠.. وتنظر: (أشرفت) الزمر: ٦٩، (شرفياً) مريم:

١٦، (شرفية) النور: ٢٥، (الإشراق) ص: ١٨. (مطلع الشمس) الكهف: ٩٠.

٤- تنظر: الكهف: ٨٦، المزمل: ٩، البقرة: ١١٥، ١٤٢، ١٧٧.

٥- تنظر: الرحمن: ١٧.

٦- تنظر: المعارج: ٤٠، الأعراف: ١٣٧.

والمغربيين، والمشارك والمغارب. وإنّما ذُكر المشرق والمغرب ولم يُذكر الشمال والجنوب (بالاصطلاح الجغرافي)؛ لأنّ الأرض تدور من المغرب إلى المشرق. وممّا قيل حول المشرقين: «إنّ أهل النجوم يقولون: الحركة التي تكون من المشرق إلى المغرب هي حركة الفلك الأعظم. والحركة التي من المغرب إلى المشرق هي حركة الكواكب الثابتة وحركة الأفلاك الممتلئة التي للسيارات سوى القمر. وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كلّ واحد منها مَشرق بالنسبة إلى شيء آخر، فثبت أنّ إطلاق كلّ واحد من الجهتين حقيقة.. قالوا: حُمِل ذلك على مَشرق الصيف ومَشرق الشتاء وبينهما بُعد عظيم.. (وقالوا): إنّ الحسّ يدلّ على أنّ الحركة اليومية إنّما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب. وأمّا القمر فإنّه يظهر في أوّل الشهر في جانب المغرب، ثمّ لا يزال يتقدّم إلى جانب المشرق، وذلك يدلّ على أنّ مَشرق حركة القمر هو المغرب. وإذا ثبت هذا فالجانب المسمّى بالمشرق هو مَشرق الشمس، ولكنّه مغرب القمر. وأمّا الجانب المسمّى بالمغرب فإنّه مَشرق القمر، ولكنّه مغرب الشمس، وبهذا يصحّ تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين»^(١)..

وقوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ «أي والمغارب للشمس. ولها كلّ يوم مَشرق ومغرب»^(٢).. وقيل: «يعني مَشرق كلّ يوم من السنة ومغربه، أو مَشرق كلّ كوكب ومغربه»^(٣).

وفي معرض الحديث عن السنن الكونية ومرجعيتها إلى الإبداع الإلهي، فقد استدلّ بها سيّدنا إبراهيم عليه السلام متّخذًا منها حجّة مفعمة في تفنيد المزايم القائلة بمرجعيتها إلى غير الله تعالى وذلك في مناظرته مع (النمرود): ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

١- التفسير الكبير ٢٧/٢١٣، وانظر أيضًا: ٩٩/٢٩ منه. والطبري ١/ ٥٠١، والقرطبي: ٦٣/١٥. وانظر: محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن الكريم؛ ص ٢٣. ٢٥.

٢- السيوطي، تفسير الجلالين: ١/ ٥٨٧.

٣- التفسير الكبير: ٢٠/ ١٢٢.

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ (البقرة: ٢٥٨). وقد قال المفسرون في هاتين الآيتين ما قالوا، غير أن الذي يلفت نظرنا هو اقتران الإحياء - من حيث التدرج - بشروق الشمس من المشرق، كما هو المألوف، واقتران الإماتة بالإتيان بها من المغرب، وهو أمر تعجيزي غير مألوف. إننا نجد في آيات عدة تقديم «الموت» على «الحياة»^(١). أمّا تقديم «الحياة» على «الموت» في معاورة (إبراهيم) مع (النمرود) في الآية المتقدمة من سورة البقرة - فتناظرًا مع تقديم الشروق على الغروب في الآية نفسها.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ من الملاحظ أنّ ذكر شروق الشمس يرتبط بذكر الحياة والحركة... بينما ذكر الغروب يرتبط بذكر الموت والسكون^(٢).

الشروق والغروب/ والمشاعر الإنسانية:

إنّ حركة شروق الشمس من خلف الأفق الشرقيّ هي حركة صاعدة، كذلك حركة الحياة من خلال الوضوء المتزايدة مع الصباح الباكر، وتهيئ الهمة للعمل والإنجاز.. للابتكار والإبداع؛ ممّا يبعث في النفس التفاؤل والنشاط الحركي لمواكبة مسيرة الحياة اليومية.

أمّا حالة الشمس في الغروب فحركتها هابطة باتجاه الأفق الغربيّ؛ الأمر الذي يهيئ الوضع النفسي ليوسع المجال لتناقل الهمة المتعبّة بغيّة الخلود إلى الدعة والراحة والسكينة بعد جهد نهار من الإنتاج أو الإنجاز.. وقد يُشعر الغروب بالغياب والزوال أو يذكر بالموت والفناء.. وقد يبعث في النفس إحساسًا بالاستيحاش والكآبة أو شعورًا بالاغتراب والاستلاب.

ويدخل اللون (حمرة الأصيل وحمرة الغسق) في تركيبة الوضع النفسي

١- تنظر: (الملك: ٢)، وتنظر: (الفرقان: ٣)، (النحل: ٢١)، (المؤمنون: ٢٧)، (الجنّة: ٢٤)، (البقرة: ٢٨)، (الشعراء: ٨١)، (التجم: ٤٤)، (طه: ٧٤)، (الأعلى: ١٣).

٢- تنظر: يونس: ٦٧، غافر: ٦١، النمل: ٨٦.

لدى بعض الناس؛ لا سيّما مَنْ يغلب عليه النزوع نحو التشاؤم في نظرته إلى الحياة؛ وما يتمخّض عن ذلك من مشاعر قاتمة.. وفي كلّتا حالتَي: الشروق والغروب تمتلك مَشاهد الشمس (في الامتداد الكونيّ وفي الطبيعة) من الجماليّات ما استوقف المبدعين من شعراء ورّسامين يُفَتِّنون ويُسحّرون في استلهاهم دلالاتٍ فكريّة ومعانٍ عميقة في النفس الإنسانيّة.. الحياة والموت.. في الوجود والفناء.

المبحث الثاني المجال السفلي (الأرضي) (الحركة في الطبيعة)

الحديث عن الحركة في مجالات الطبيعة حافل بالالتفاتات الجمالية التي تستوقفنا حيثما مضينا في رحابها وتجاوزنا مع عناصرها ومكوناتها: الأرض.. والماء.. والرياح.. والجبال.. والبحر.. والنبات.. والحيوان. وفي هذا المبحث سنتناول هذه العناصر بالدراسة، ومن خلال السياقات التي تسمح لنا بإطلالة هنا وهناك سنشير إلى بقية المظاهر والظواهر، لاسيما وأن في صور القرآن الكريم مداخلات بين عناصر الطبيعة ليس من اليسير فرزها، فمكونات صورة الأرض في مشهد من مشاهدها -مثلا- قد يتضمن ذكر السحاب والرياح والماء والنبات... ومع ذلك فسنحاول -قدر الإمكان- استيضاح ملامح الحركة ومعطياتها الجمالية على ضوء التقسيمات الموضوعية التي سندرسها في هذا المبحث.

(١) مجال حركة (الأرض):

ذُكرت الأرض في القرآن الكريم (٤٦١ مرة)، وهو رقم يدل على أهميّة الأرض بالنسبة للإنسان. فقد خلق الله جل جلاله السموات والأرض بالحق في ستة أيام، ثم بسط الأرض ومدّها لتكون مهداً ومستقراً للإنسان، وسخرها وذلكلها له لكي يزاوّل نشاطه فيها؛ إذ إنّه قد أنيطت به مهمّة إعمارها واستثمار خيراتها. وعليه فهو مكلف بالسعي فيها؛ فالإنسان هو الخليفة في الأرض، وعمله في الحياة الدنيا يحدّد مستقبله الأبدي في الآخرة.

«هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (الحديد: ٤) «.. في ستة أيام من أيام الدنيا،

أي: في قدرها؛ لأنه لم يكن ثمَّ شمس، ولو شاء خلقهنَّ في لحظة، ثمَّ استوى على العرش، وهو في اللغة سرير الملك استواء يليق به^(١).

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٠).. قيل في تفسيرها: أو لم يعلموا أنَّ السموات والأرض كانتا مرتويتين وهو الضمُّ والاتحام، أي: كانتا واحدًا؛ وحقيقة متَّحدة؛ ففتقناهما بالتنويع والتميز، أو كانت السموات واحدة ففتقت بالتحريك المختلفة حتى صارت أفلاكًا. وقيل كانتا بحيث لا فرجة بينهما فرضج بينهما بالتحريك، فيكون المراد بالسموات سماء الدنيا، وجمَّعها باعتبار الأفاق أو السموات بأسرها.. وخلقنا من الماء كلَّ ما يتَّسم بالحياة؛ كقوله تعالى الله ﴿خلق كلَّ دابة من ماء﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿فسواهنَّ سبع سموات﴾ ذكر تعالى أنَّ السموات سبع، ولم يأت للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى ﴿ومن الأرض مثلهنَّ﴾، وقد اختلف في تأويله^(٣).

- وفي القرآن الكريم إشارات إلى كروية الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: ٣٠).

- وفيه إشارات إلى حركة الأرض الدورانية حول نفسها:

. ﴿يُكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوَرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: ٥).

. ﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ (الحج: ٦١).

. ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا﴾ (الأعراف: ٥٤).

«هذه العملية (الحركية) الدائمة في التكوير مع الولوج المستمر لقطاع

١- السيوطي والمجلي، تفسير الجلالين: ١/ ٢٠١.

٢- ينظر: البيضاوي، تفسيره: ٤/ ٩١.

٣- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٢٥٨.

في قطاع آخر يعبر عنها القرآن الكريم، وكان اكتشاف استدارة الأرض قد تم في عصر تنزِيل القرآن رغم أن اكتشاف العلم لذلك لم يأت إلا مؤخرًا.. وهكذا انتهى العلم التجريبي إلى الحقيقة التي أقرها القرآن الكريم. وسبب عدم تصادم حقائق الكون العلميّة مع القرآن يكمن في أن الذي قال ذلك القرآن هو الذي خلق ذلك الكون.. ولو كان الخالق واحدًا والقائل غيره لكان من الممكن أن يتضاربا»^(١).

- وفي القرآن الكريم إشارات إلى حركة الأرض الدائرية حول الشمس:

﴿ وَالشَّمْسُ بَجْرَى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَاتُ السَّابِقِ الْيَوْمِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠-٣٨).
«الحركة الكونية حركة فاعلة؛ لأنها على صلة وثيقة وعلاقة متينة بكل ألوان الحركات الأخرى؛ فهي ليست منفصلة عن حركة الحياة أو حركة الإنسان أو حركة التاريخ أو حركة المجتمع»^(٢).

وفي سورة الرعد: ﴿ كُلُّ مَجْرَى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾، فالأرض تجري مع الأجرام (بسرعة مذهلة) إلى أجل مسمى، والجري: السير السريع في مسافات شاسعة، فهو أسرع التنقلات في بابها؛ وذلك سيرها في مداراتها^(٣). لقد خلق الله تبارك وتعالى الأرض مكيّفة لمعيشة الإنسان، وسخّر لها ولمصالحه، ليُعمرها ويقوم بمهمّة الخلافة فيها. فالله سبحانه وتعالى هو «الذي جعل الأرض مهدًا.. أي: موضع قرار، وجعل فيها سبلا أي: طرقًا؛ لكي يهتدي في أسفاره»^(٤). إن حركيّة سعي الإنسان في الأرض المذلّ له حصيلتها الرزق الذي هو من أنعم لله، ويترتب عليه شكر الإنسان لله جل جلاله: ﴿ هُوَ الَّذِي

١- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر، كشف علمي جديد وإعجاز قرآني دائم، مجلّة الفيصل:

ع/١٢٩، س/١١، تشرين الثاني ١٩٨٧م، ص ٣٠، الرياض.

٢- غالب حسن الشابندر، الوجود في القرآن الكريم، ص ٤٠.

٣- ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ١٣/٧٨ و ٨٠.

٤- ينظر: النسفي، تفسيره، ٤/١٠٩.

جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿ (الملك: ١٥). أَسْتَعِير الذلول للارض في تدليل الانتفاع بها مع صلاية خلقها تشبيهاً بالدابة المسوسة المرتاضة بعد الصعوبة على طريقة المصرحة. والمناكب: تخييل للاستعارة لزيادة بيان تسخير الأرض للناس، فإن المنكب هو ملتقى الكتف مع العضد. جعل المناكب استعارة لأطراف الأرض أو لسعتها. وفُرع على هذه الاستعارة الأمر في «فامشوا في مناكبها»، فصيغة الأمر مستعملة في معنى الإدامة الحركية تذكيراً بما سخر الله لهم^(١).

لقد ربط الله جل جلاله الأسباب بالمسببات؛ فالأرض التي تبدو للإنسان ساكنة عند نزول الماء عليها تهتز، وتربو، وتثبت، وتبعث فيها الحياة من خلال الحركة؛ الحركة الاهتزازية وحركة الزيادة في الحجم وحركة الإنبات:

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿ (الحج: ٥).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ (فصلت: ٢٩). ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة يابسة مغبرة. والخشوع: التذلل، فاستعير لحال الأرض إذا كانت قحطة لا نبات فيها. فإذا أنزلنا عليها الماء: أي: المطر. اهتزت: تحركت بالنبات. وربت: انتفخت. ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ فيكون قادراً على البعث ضرورة^(٢).. فالماء هو أصل كل حياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴿ (الأنبياء: ٣٠).

وفي قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ﴿ (القمر: ١٢). أفاد أن الأرض قد كانت عيوناً كلها، وأن الماء قد كان يفور من كل مكان فيها.. إن الجمال هو

١- ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ٢٩/٢٢.

٢- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥/٢٤٢. والنسفي، تفسيره، ٤/٩١.

في ذلك الذي قاله من ناحية النظم، وفي شيء آخر وراءه، هو هذه الحركة التخيلية السريعة التي يصورها التعبير^(١) ..

وفي الآية المتقدمة من سورة «الحج» توضيح لمسألة إحياء الأرض بالماء وإنباتها الزرع والثمار؛ مما يفضي إلى التمتع بجماليات الحياة في الطبيعة بعناصرها وبمظاهرها.

وفي الآية المتقدمة من سورة «فصلت» توضيح لمسألة كيف أن ظاهرة خشوع الأرض واهتزازها بالماء هي آية من آيات الله، وعلى الإنسان أن يتدبرها بالنظر المتأمل، ليصل إلى اقتناع يوثق إيمانه بالبعث يوم القيامة.

تتجلى الحركة إذن باهتزاز الأرض إثر نزول الماء عليها. هذه الحركة الاهتزازية مظهر من مظاهر الخروج من القوة إلى الفعل، أي: بعث الحياة في الأرض بعد أن كانت متسمة بالسكونية المستحصلة من وصفها بـ(خاشعة) و(هامدة). وعليه تجمل مظاهر الحياة الواردة في الآيتين بأن: الحركة / اهتزت.. النماء / ربت.. الإنبات / أنبتت.. فالاهتزاز هو المرحلة الأولى؛ ويعني تحرك ذرات التربة حركة موضعية ينجم عنها تخلخل التربة لتكون بيئة صالحة للإنبات.. والمرحلة الثانية هي مرحلة انتفاخ التربة (ربت) بعد تغلغل الماء بين ذراتها.. وفي المرحلة الثالثة يكون الإنبات.

وهكذا نجد أن القرآن قد عبّر عن الأرض قبل نزول الماء، وقبل الإنبات، مرة بأنها (هامدة)، ومرة بأنها (خاشعة)، والتعبيران يوحيان بحالة السكون التي ما تلبث أن تستحيل إلى حالة حركية حين يتغلغل الماء في تربتها. وبذلك ترسم لنا معالم الصورة، ويبدو لنا ما خفي عن إدراكنا للحركة الدائبة تحت سطح الأرض، فنعلم أن كل المراعي الزاهرة الوادعة في مظهرها إنما هي تخفي تحتها حياة وحركة ونموًا بما تمد من جذور في باطن الأرض، وبما ينبت فوقها من نبات^(٢).

١- ينظر: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٢٨، ٢٩.

٢- ينظر: د. حامد صادق قنبي، المشاهد في القرآن الكريم، ص ١٢٠.

إنَّ عبارة «مَنْ كُلُّ زَوْجٍ» تشير إلى التكاثر الذي هو ثمرة التلاقح الجنسي (أو اللاجنسي) بين النَّبَاتِ بصنفيه: الذكوريِّ والأنثويِّ. والتكاثر مظهر من مظاهر الحياة، وفي المنظور الفلسفيِّ هو ضرب من ضروب (الحركة في الكَمِّ).

أما الجماليَّة التي تشير إليها عبارة «مَنْ كُلُّ زَوْجٍ بِهِجٍ»، فإنَّ البهجة تتمخض عن حُسْنِ الشَّيْءِ ونظارتها، «والبهيج» بمعنى «المبهج». وعليه فإنَّ البهجة هي نتيجة إحساس الإنسان الناظر بالجمال وتمتعه به. ويلاحظ التوافق الحركيِّ بين اهتزاز الأرض للنبات، واهتزاز الإنسان طرباً وسروراً حالَ تمتعه بالجمال: وحدةٌ وتَوْعًا.. تناسقًا وتزَانًا.. إيقاعًا ومَوْسِقَةً.

والقرآن الكريم -بالاصطلاح البيانيِّ- يشخّص الأرض ويأنسنها باستعارة مكنية، ويقدمها لنا في صورة تتجلّى فيها الحياة، فكأنها تهتزُّ طرباً لجمال النبات كما يهتزُّ الإنسان سروراً بروبيته. وعلى هذا فقد قامت علاقة تشبيهية بين كلِّ من الأرض (المشبه) والإنسان (المشبه به)، فحذِفَ الثاني وأبقيَ على الأوّل، بقرينة أن الاهتزاز (بمعنى الطرب والسرور) من سمات الإنسان ومستلزماته الحياتيّة. وهذا التفسير يضيف قيمةً جماليّةً إلى جماليّات الصورة الفنيّة؛ حيث غدت الأرض بتشخيصها تحسّ وتشعر.. تفرح وتُسعد كما الإنسان! «والاهتزاز: الحركة على سرور، فلا يكاد يقال: اهتزَّ فلان لكيّت وكيت إلا إذا كان لأمرين من المحاسن والمنافع. فقلوه: «اهتَزَّتْ وَرَبَّتْ»؛ أي: تحرّكت بالنبات وانتفخت»^(١). ويُعتبر التشخيص نوعاً من التخيل، «وهكذا تستحيل الأرض الجامدة كائنًا حيًّا بلمسة واحدة، في لقطة واحدة»^(٢). ويذكر أن «التشخيص» ضرب من الاستعارة، والاستعارة ضرب من المجاز..

قيل عن قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥) «هو

١- الرازي، التفسير الكبير، ٩/٢٢.

٢- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص ٦٢.

مجاز؛ لأنَّ الأرض يُنبَت منها، والله تعالى هو المُنبَت لذلك، لكنّه يضاف إليها توسّعاً»^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَبْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجَدٍ وَنُفِضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد: ٤). «المراد قطع متجاورات وغير متجاورات.. أي: وجعل في الأرض قطعاً وجنّات؛ أي: بساتين كثيرة من أعناب أي: من أشجار الكرم، وزرع من كل نوع من أنواع الحبوب وأفراده مراعاة أصله حيث كان مصدرًا.. إنَّ في صنعة الأعناب ممّا يبهر العقول ما لا يخفى، ولو لم يكن فيها إلاَّ أنّها مياه متجمّدة في ظروف رقيقة حتّى إنّ منها شفّافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى. وتأخير قوله تعالى (ونخيل) لئلاَّ يقع بينها وبين صفتها، وهي قوله تعالى: ﴿صنوان وغير صنوان﴾ فاصلة، أو يطول الفصل بين المتعاطفين. وصنوان: جمع صنوو هو: الفرع الذي يجمعه وآخر أصل واحد»^(٢). ويلاحظ في صفة التجاور «أنَّ اختلاف الألوان والمنابت مع التجاور أشدّ دلالة على القدرة العظيمة»^(٣)..

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيٌّ سُودٌ﴾ (فاطر: ٢٧).. «قوله تعالى (الم تر): المقصود رؤية القلب والعلم؛ أي: ألم ينته علمك أو رأيت بقلبك أنّ الله أنزل... (فأخرجنا به ثمرات): هو من باب تلوين الخطاب (مختلفاً ألوانها)»^(٤).. «ويبقى اللون؛ هذا التنوع الإبداعيّ منظور في ساحة الكون والسماء والعالم والحياة، هذا التغيّر الذي

١- الرازي، التفسير الكبير، ٩/٢٣.

٢- الآلوسي، روح المعاني، ١٠٢/١٣.

٣- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ٨٦/١٣.

٤- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٤١/١٤.

ينطبع على الحسّ البشري بألف حال وحال، يبقى هذا كله واحداً من عطاء الله الذي ما له من نفاذ»^(١).

(٢) مجال حركة (الماء):

أغلب السياقات التي ورد فيها ذُكر الماء في القرآن الكريم - ذُكر الماء في القرآن الكريم (٦٣) مرة^(٢) - تدلّ على: الخلق والحياة والحركة، ولاسيّما في مداخلة الحديث عن: الأرض، وعن النبات والخشب والنماء.. وعن الثمار مختلفة الطعوم والألوان^(٣)؛ وذلك بدءاً بالحديث عن السحاب، وانتهاءً بالحديث عن العيون والينابيع والسيول والأنهار^(٤)، كما أن العيون والأنهار هي من عناصر مشاهد الجنة في الآخرة.. على أن الماء يُذكر أيضاً في سياقات مغايرة مثل: «طوفان نوح» ومثل «سيل العرم»^(٥) الذي اجتاح أرض «سبأ» بعد انهيار «سد مأرب».. وكما وُصف ماء الجنة بـ«الزنجبيل» المتدقّق من عين «السلسبيل»^(٦) الراقق، كذلك وُصف ماء النار والجحيم بكونه ماءً «صديداً»، و«حميماً وغساقاً»، يقطع أمعاء الكفار^(٧). وتهديد العصاة بنضوب الماء يرد في أكثر من آية^(٨)؛ تأكيداً على قيمة الماء وأهمّيته بالنسبة للإنسان. إن الماء أساس الحياة، وإن الحركة هي إحدى مظاهر الحياة؛ الأمر الذي يوضّح العلاقة بين الماء والحركة..

١- د. عماد الدين خليل، رحلة مع اللون في كتاب الله، مجلّة الأمة، ع/٤، س/١، أيلول، ١٩٩٧م، ص٤٦ و٦٥، عمّان.

٢- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٦٨٤.

٣- تنظر على التوالي: (النازعات، ٣١، الملك، ٣٠، الكهف، ٤١)، (الحج: ٦٢، ق: ٩)، (فاطر: ٢٧).

٤- تنظر على التوالي: (الروم: ٤٨، البقرة: ١٦٤، الأعراف: ٥٧، الرعد: ١٢، النور: ٤٠، ٤٣، التمل: ٨٨،

فاطر: ٩، غافر: ٧١، الطور: ٤٤، القمر: ٤٨)، (الغاشية: ٥، ١٢، الكهف: ٨٦)، (الزمر: ٢١)، (البقرة: ٧٤، ٢٦٦، آل عمران: ١٥، إبراهيم: ٣٢، محمد: ١٥).

٥- تنظر: (هود: ٤٢، ٤٣)، (سبأ: ١٦).

٦- تنظر: (الإنسان: ١٧، ١٨).

٧- تنظر على التوالي: (إبراهيم: ١٦، ١٧)، (التبا: ٢٤، ٢٥، ص: ٥٧)، (محمد: ١٥).

٨- تنظر: الملك: ٣٠، الكهف: ٤١.

وعن علاقة الحياة بالماء يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٠). قيل: «كانت السموات رتقا لا تمطر، ومثلها الأرض لا تثبت، فضتق السماء بالمطر والأرض بالنبات... وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ليدل على كمال قدرته وعلى البعث والجزاء. أي: أنه خلق كل شيء من الماء، وحفظ حياة كل شيء بالماء.. وقيل: (الكل) قد يُذكر بمعنى (البعض) كقوله (وأوتيت من كل شيء)»^(١).

ويمدنا القرآن الكريم بمزيد من النماذج التصويرية في لوحات الطبيعة والكون، من ذلك:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
 ٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 (البقرة: ٢١-٢٢). فالنقابل حاصل بين «الأرض/ والسماء» وبين «الفراش/ والبناء»؛ وهما تشابهان متداخلتان، وتداخلهما مظهر من مظاهر الحبكة اللغوية التي تعين على تركيب اللوحة من صورتين: صورة «الأرض الفرّاش» وصورة «السماء البناء».

إنّ هذا التشابك عمق الجانب الفنّي، وأبعده عن التسطّيح؛ ممّا منح اللوحة أبعاداً جماليّة إضافية. ولا بدّ أن تنعكس عناصر الشكل على المعنى المضموني للآية الكريمة.

ومن صور الماء ما جاء في القرآن الكريم حول عدم جدوى دعاء المشركين للأصنام:

﴿لَهُمْ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَيْهِ
 إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد: ١٤).

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٨٤/١١.

الإّ كباسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه) «استثناء من المصدر؛ أي: من الاستجابة التي دلّ عليها (لا يستجيبون)؛ لأنّ الفعل بحروفه يدلّ على المصدر، وبصيفته على الزمان، وبالضرورة على المكان والحال. فجاز استثناء كلّ منها من الفعل... أي: كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يلبغ فاه الماء؛ جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه. وكذلك ما يدعونه (من الأصنام) جماد لا يحسّ بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم ولا يقدر على نفعهم»^(١). «والتشبيه على هذا من المركب التمثيليّ في الأصل أبرز في معرض التهكم.. وقد يراد من بسط الكفين إلى الماء بسطهما؛ أي: نشر أصابعهما ومدّها لشربه.. وعليه فوجه الشبه يتملّ في عدم الجدوى.. والتشبيه على هذا من المفرد المتقيد^(٢). فالعلاقة تشبهيّة/ تمثيليّة بين الكفّار (الطرف المُشَبَّه)، وبين الباسط كفيه إلى الماء (الطرف المُشَبَّه به). إنّ الصورة في الطرف الثاني تجسّد الحالة النفسيّة العصيبة للعطشان القريب جدّاً منه الماء لكنّه لا يستطيع إيصاله إلى فمه حيث تقصر الحركة عن أداء وظيفتها. هذه الحالة أسقطها النصّ على الوضع الفكريّ للكافرين. بذلك وضّحت اللوحة حالة التمرّق التي يعاني منها الكفّار.

ومن الصور التي وضّحت أعمال الكفّار وما ينجم عنها من تازم فكريّ ونفسيّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعٍ يَحْسَبُهُ الْظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۗ﴾ (النور: ٢٩). حيث شبّه أعمال الكفّار بصورة السراب على سبيل التمثيل، وقد امتدّت صورة السراب إلى تشخيص الوضع النفسيّ الذي يعتلج الظمان في الصحراء، والذي يسعى جاهداً لبلوغ غايته من الماء ولكن دونما جدوى. ويُستخلص من الطرف الثاني من التشبيه أنّه يصدق على أعمال الكفّار في الطرف الأوّل.

١- النسفي، تفسيره: ٢١٣/٢.

٢- ينظر: الألوسي، روح المعاني، ١٢/١٢٤.١٢٥.

النقطة الإيجازية:

النقطة هي نوع من أنواع الحركة كما هو معلوم، ونقصد بالنقطة في هذا السياق التحوّل بالمُشاهد من حدث إلى آخر. ويعنيها هنا جانبَي التكثيف والتسريع بتعاقب المشاهد والأحداث.

وستنقف مع حادثة الطوفان نموذجاً للنقطة الإيجازية.. قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ مَحْمَلِكُمْ فِي الْبَارِيَةِ﴾ (الحاقة: ١١). المقصود: حملنا آباءكم في سفينة نوح عليه السلام لنجعل نجاة المؤمنين وإغراق الكافرين لكم عظة^(١).

لقد عرضت كتب البلاغة العربية القديمة لموضوع الإيجاز في القرآن الكريم. يمكن أن نلاحظ في نماذجه العديد ممّا يمكن الاصطلاح عليه «بالنقطة»؛ أي: الانتقال السريع بالأحداث الجزئية لتكثيف حادثة كبيرة، من خلال التعبير عن معانٍ كثيرة بألفاظ قليلة.

من المشاهد القرآنية التي يبرز فيها أثر التراجع بسرعة وبوضوح ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَبَسْمَاءَ أَقْلَبِي وَغِيصَ الْمَاءُ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (هود: ٤٤). هذا التوالي في الأحداث تصوّره سلسلة من الأفعال المتعاقبة، وتختصر حادثة الطوفان العظيمة على عهد نبيّ الله نوح عليه السلام في ستّ جُمَل (أو أربع إذا استثنينا جملتي التقرير الاستنتاجي: «وقضي الأمر»، و«وقيل بعداً»). في الآية «أمر فيها، ونهى، وأخبر، ونادى، ونعت، وسمى، وأهلك، وأبقى، وأسعد، وأشقى، وقصّ من الأنبياء ما لو شرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام. وقد أفردت بلاغة هذه الآية بالتأليف. (وقيل): أجمع المعاندون على أن طوق البشر قاصر عن الإتيان بمثل هذه الآية بعد أن فتشوا جميع كلام العرب والعجم فلم يجدوا مثلها في فخامة ألفاظها وحسن نظمها وجودة معانيها في تصوير الحال مع

١- ينظر: النسفي، المصدر السابق، ٤/٢٧٤.

الإيجاز من غير إخلال»^(١).

إنَّ جماليَّات هذا المشهد تتمثل أولاً باختزال زمن الأحداث الجارية في المكان. وثانياً تتمثل في التضايف بين النقلات غير المخلة بالأحداث، وبين الزمن الملحوظ من خلال تسارعه، وبين الأماكن المحددة بأعيانها: (الأرض.. السماء.. الجبل):

(١) فابتلاع الأرض للماء = حركة عائدة/ هابطة.

(٢) وإقلاع السماء (انحباس المطر) = توقُّف عن الحركة.

(٣) غَيْضُ الماء في الأرض = حركة عائدة/ هابطة.

(٤) استواء الفلك على الجبل = انقطاع حركتها (بالتوقف عن

الجريان).

إنَّ التعاقب بين الحركة والسكون على التوالي أوجد في عموم المشهد جدليَّة أبرزت قيمة تكرار الحركة بمجاورة السكون لها ^(٢). وعن هذا التناسق تمخَّضت قيم جماليَّة «سأقت كثيراً من أهل البلاغة إلى السجود لله تبارك وتعالى لروعة بلاغتها»^(٣).

(٣) مجال حركة الريح الصَّرَّصَر: (مشهد هلاك قوم عاد)

إنَّ كلمة «رياح» -بصيغة الجمع- ترد غالباً في القرآن الكريم في سياقات التبشير بالخير، على العكس من كلمة «ريح» -بصيغة المفرد- التي ترد فيه

١- السيوطي، الإتيان: ١٤٨/٢.

٢- مجاورة الحركة للسكون هي أشبه بتجاور اللونين الأسود والأبيض؛ لإبراز درجة دكنة السواد، ودرجة نضاعة البياض «وبأضدادها تعرف الأشياء».

٣- سعيد النُّورسي/ حجة القرآن الكريم على الشيطان وحزبه، ترجمة إحسان قاسم الصالحي،

غالبًا بدلالة تدميريَّة^(١). وقد جاء في المأثور: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيَّاحًا وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا»^(٢). الرياح يرسلها الله بشري بين يدي رحمته^(٣)، ويُصَرِّفُهَا حسب نواميس منضبطة، فتثير سحابًا فيبسّطه الله في السماء ويجعله كسفًا^(٤) أو ركامًا^(٥). فتسوق الرياح السحاب بحركة دَفْع إلى البلد الميَّت، فتحبِّيه بحركة استحالة. وهذه ظاهرة طبيعيَّة يألّفها الإنسان في كلِّ زمانٍ ومكان.. يستدلُّ القرآن الكريم بهذه الحقيقة المرثيَّة، متَّخذًا منها وسيلة وبرهانًا لإقناع الناس بجانب مهمٍّ من جوانب عالم الغيب المتمثِّل في حقيقة البعث والنشور يوم القيامة^(٦). وتحقيق هذا الهدف الإيماني هو إنجاز له أهميَّته البالغة في الفكر الإسلامي؛ إذ إنَّ المسلم يتَّخذ من الإيمان بمسائل الحساب يوم القيامة وما يترتّب عليها من ثواب أو عقاب مقياسًا يزن به عمله في الحياة الدنيا، ويحدّد -على ضوئه- سلوكه في الحياة اليوميَّة، ويبني عليه مجمل أخلاقه في علاقته مع نفسه أولًا ومع الله جل جلاله في طاعته والاستجابة لأوامره ثانيًا.. ومع أفراد مجتمعه في التعايش معهم في ظلال التعاطف والتراحم ثالثًا. إنَّ لفظه (تصريف) الرياح تحمل من الدلالات ما يضيق السرد عن استدراجه، فهي تعني القوانين المعقّدة التي تتحكّم بتوزيع الرياح وتحركاتها على سطح الكرة الأرضيَّة، ولذلك كانت من آيات الله تبارك وتعالى، وحثّ العقلاء على التأمل فيها: ﴿وَتَصْرِيفِ

١- في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ يَأْتِيَنَّكَ الرِّيحُ﴾ (الشورى: ٢٢-٢٣) «قال (ابن عاشور): «قرأ (نافع) «الرياح» بلفظ الجمع، وقراه الباقر «الريح» بلفظ المفرد. وفي قراءة الجمهور ما يدلُّ على أنَّ الرياح قد تُطلق بصيغة الإفراد على ريح الخير، وما قيل: إنَّ الرياح للخير والريح للعذاب في القرآن هو غالب لا مُطرّد. وقد قرئ في آيات أخرى «الرياح» و«الريح» في سياق الخير دون العذاب»، تفسير التحرير والتنوير، ١٠٦/٢٥.

٢- الزبيدي، تاج العروس (٢/ ٩١): اعتبَرَه حديثًا ولم أعثر عليه في كتب الصحاح ولا في كتب السنن.

٣- تنظر: الأعراف: ٥٧.

٤- تنظر: الروم: ٤٨.

٥- تنظر: النور: ٤٣.

٦- تنظر: فاطر: ٩، وانظر: الأعراف: ٥٧.

الرَّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيِّتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿ البقرة: ١٦٤ ﴾ .

أما الريح التي ترد في القرآن الكريم عادة في معرض الغضب والعذاب فهي على أنواع ولها أوصافها. قيل في قوله تعالى: «(جاءتها ريح عاصف) الضمير في جاءتها للسفينة وقيل للريح الطيبة». و«العاصف»: الشديدة، يقال: عصفت الريح، و«عاصف» بالتذكير لأن لفظ الريح مذكّر، وهي: «القاصف» أيضًا. و«الطيبة»: غير عاصف ولا بطيئة.. وقيل: «إنَّ «القاصف»: المهلكة في البرّ، و«العاصف»: المفرقة في البحر».. وقيل: «(أو يرسل عليكم حاصبًا): يعني ريحًا شديدة، وهي التي ترمي بالحصباء؛ يعني حجارة من السماء تحصبهم كما فعل بقوم (لوط)، ويقال للريح التي تحمل التراب والحصباء. و«القاصف»: الريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه: أي: كسره بشدة». و«القصف»: الكسر، يقال: قصف الريح السفينة»^(١). وقيل: «بريح صرصر: باردة. وعاتية: شديدة الهبوب، عتت عليهم بغير رحمة»^(٢).

وورد ذكّر «قوم عاد» في القرآن الكريم عشرين مرّة، وذكّر نبيهم هود عليه السلام سبع مرّات^(٣). «ولم تذكر الكتب المقدّسة «قوم عاد» سوى القرآن الكريم»^(٤).. «الأحقاف» منطقة قوم عاد في الجزيرة العربيّة (بين الريح الخالي شمالًا وحضرموت جنوبًا)، وهم الذين أرسل الله جل جلاله إليهم هودًا عليه السلام ليبليغهم رسالته، فعصوه، فاستحقّوا الدمار الشامل. وقيل: «كانوا

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٢٥/٨، ٢٩٣/١٠، ٢٩٢/١٠.

٢- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٤١٣/٤.

٣- الأعراف: ٦٥، هود: ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٦٠، ٨٩، الشعراء: ١٢٤. ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم («عاد» ص ٤٩٢، «هود» ص ٧٣٩)

٤- عبد الوهّاب النجّار: قصص الأنبياء، ص ٤٩.

يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت»^(١). وقيل: «بين عُمان ومهرة»^(٢).

في سورة «الأحقاف»: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقِيلًا أَوْدَيْنِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّخْتَرِنًا بَلْ هُوَ مَا أَسْعَجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأحقاف: ٢٤). تصور هذه الآية حركة الريح المقبلة باتجاه مضارب قوم عاد، حيث تبدأ الآية بفعل الرؤية: رؤية القوم للريح القادمة^(٣).. وما تلبث الريح أن تدرك الديار. فالفاء في «فلما» لتفريع القصة^(٤) التي بدأت السورة عرضها في الآيات الثلاث السابقة (٢٢.٢١).

ويبدأ مشهد هلاك قوم عاد في سورة «الأحقاف» بألفاظ تصوّر عنفاً حركياً مجاوزاً للحدّ، حيث الريح العاتية تواجه القوم الذين يعجزون عن الحدّ من شدّتها ومن عنف الأعاصير التدميريّة المتوالية على مدى أسبوع. كان هود عليه السلام قد امتاز بدمائة الخلق، وتحلّى بسعة الصدر، وتجلّج بوعادة الطبع. هذا الوقار وتلك الرزانة ميّزت أسلوبه في الدعوة إلى الله جل جلاله، ومع هذا فقد قوبل بحركة صدود وتكبر. ويقدر ما كانت الدعوة الحكيمة ليّنة والموعظة الحسنة رقيقةً كان ردّ الفعل الحركي شديداً متمرداً، فكان العقاب متوافقاً في عنف حركته مع موقف الكفار.. وهذا يعني تقابلاً بين منظومة من الثنائيات التي تكشف عن مفارقة لا يخلو الانتباه إليها والتأمل فيها من دلالات تعين على استيعاب جانب من جوانب جماليّات الخطاب القرآنيّ وتذوّقه، من حيث عرضه للحدث، وما يتسبّب التضادّ من انعكاسات تتجلّى في حركيّة الصراع الذي يمنح الحدث قدرة على شدّ المتلقّي وتشويق له لتابعته؛ وذلك بتصوير مقدّمة لمشهد مرئيّ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾، حيث تتجسّد في هذا المشهد حركةً مقبلةً، فيخال

١- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/٢٢٦.

٢- الزمخشري، الكشاف، ٤/٣٠٦.

٣- الضمير في «رأوه» راجع إلى «ما تعدنا»، أو أن يكون مبهماً قد وضع أمره بقوله «عارضاً». ينظر: الزمخشري، الكشاف: ٤/٣٠٧.

٤- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ٢٦/٥٠.

القوم أنّها تبشّر بخير عميم: ﴿قَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾؛ ممّا يدلّ على شدّة حاجة القوم إلى المطر. وما يلبث المشهد أن ينكشف عن حقيقة الحدث ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾. حيث الإعصار التدميريّ المقبل الذي يتسم بالسرعة والحركة العنيفة ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾. وهذا الفعل التدميريّ إنّما هو عقاب عادل لإعراض «قوم عاد» عن الإيمان بالله، والصدّ عن الهدى الذي دعاهم إليه نبيهم هود عليه السلام، فكان أن سخر الله عليهم تلك الريح الشديدة. وجعل العذاب مطروفاً في الريح مبالغة في التسبّب؛ لأنّ الظرفيّة أشدّ ملاسبة بين الطرف والمظروف من ملاسبة السبب والمسبّب^(١).

وقوله تعالى: ﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٥). فعل الرؤية في قوله: (فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم) «لمن تتأتى منه الرؤية حينئذ إتمام لاستحضار حالة دمارهم العجيبة حتى كأن الآية نزلت في وقت حدوث هذه الحادثة»^(٢). وقيل: (لا ترى) «الخطاب للرائي كائنًا من كان»^(٣).

ونتابع الأحداث من خلال سورة «الحاقة»: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ مُّخْلِ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦-٧). يبدأ مشهد هلاك قوم عاد في سورة «الأحقاف» بلقطة تصوّر عنفاً حركياً مجاوزاً للحدّ. (عاتية) تواجه القوم الذين يعجزون عن تسكين الريح أو الحدّ من شدتها ومن عنف الأعاصير التدميرية المتوالية على مدى أسبوع. وإذا كانت الريح هي الفاعلة لفعل التدمير، فإنّ فعلها

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ٥٠/٢٦.

٢- ابن عاشور، المرجع السابق، ٥١/٢٦. «يرى» بياء تحتية مبنياً للمفعول؛ و«برفع» مساكنتهم» على الفاعلية؛ قرأه (عاصم) و(حمزة) و(خلف) .. وقرأ الجمهور «ترى» بالمشأة النوقية المفتوحة مبنياً للفاعل وينصب «مساكنتهم» على المفعولية.. وانظر: الزمخشري، الكشاف، ٣٠٧/٤.

٣- الزمخشري، المصدر السابق، ٣٠٧/٤.

هذا إنّما هو استجابة للمشيئة الإلهية (سخرها)، أي: سلّطها، وذلك بتهيئة الأسباب للانتقام من هذا الجمع الكافر.. إنّ وصف الريح بـ (صَرَصَر) يستوقفنا بإيقاعه الدلالي؛ الذي يعيننا على استيضاح متوقّع لحركة الريح، وقد ورد هذا الوصف للريح ثلاث مرّات^(١) في القرآن، بينما وُصفت الريح بأنّ (فيها صِرّ) مرّة واحدة^(٢). إنّ لفظه (صَرَصَر) تتكوّن من مقطعين أو بالأحرى من مقطع واحد مكرّر. ومعناها المعجمي: «باردة. وقيل: مُحْرِقة، وقيل: مُصَوّتة».

في معرض حديث (الخليل بن أحمد الفراهيدي) عن التماثل الحاصل بين الألفاظ والمعاني على أساس «المضاهاة» بين أجراس الحروف وأصوات الأفعال التي تعبّر تلك الأجراس عنها، يقول: «صَرَ الجندب صريراً، وصَرَصَرَ الأخطب صَرَصَرَةً، كأنّهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدّاً، وتوهّموا في صوت الأخطب ترجيعاً». وينطلق (الخليل) من فكرة «المضاهاة» إلى ما يسمّى بـ «إمساس الألفاظ أشباه المعاني»، أو «سوق الحروف على سمّت المعنى المقصود». أي: «مساوقة الصيغ للمعاني». ليصل بذلك إلى مبدأ «التعديل والاحتذاء»^(٣).

يقال «صَرَ الجندب صريراً، وصَرَصَرَ الأخطب صَرَصَرَةً، كأنّهم قدّروا في صوت الجندب المدّ، وفي صوت الأخطب الترجيع؛ فحكوه على ذلك»^(٤).. وهذا تخريج صوتي لطيف فيه التفتاة ذكيّة تعيننا على تخريج معنى «ريح صَرَصَر» أي: متدافعة أو متقطّعة. هذا التدافع هو مظهر من مظاهر القدرة الحركيّة للإعصار؛ من حيث فعله التدميريّ. ولعلّ تخريج «الصَرَصَر» بمعنى «القرع» أكثر دقّة؛ إذ إنّ القرع أو (الطرق) أقوى من الدفع. ومن

١- تنظر: فصلت: ٦، القمر: ١٩، الحاقة: ٦.

٢- تنظر: آل عمران: ١١٧.

٣- ينظر: ابن جني، الخصائص، على التوالي: ١/ ٦٥، ١٥٢، ١٦٢، ١٥٥، ١٥٧.

٤- الرازي، مختار الصحاح، ص ٣٦١.

هنا جاء إيقاع لفظة «صَرَّصَر» معبراً عن المعنى الوصفيّ الدقيق المناسب لتصوير فعل القرع التدميريّ..

وفي قوله تعالى عن قوم عاد: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٨). وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ (الحاقة: ٧) الفعل «ترى» يحيل الحدث مشهداً مرئياً أمام المخاطب (المتلقّي)، وزمن الفعل هو الحاضر المستمرّ، أي أنّ المشهد منفتح للعرض، والمتلقّي مستمرّ في متابعة مشاهدته (حال التلقّي لا حال وقوع الحدث حقيقة). وتتفاير الدلالة بين: زمن الحدث أو زمن القصّ (الماضي البعيد)، وبين زمن التلقّي (الحاضر المستمرّ). وبذلك يكتسب النصّ وما يحمل من قصّ أو يعبر عنه من أحداث صفة الديمومة الفاعليّة. وفي هذا دلالة على إسقاط الماضي على الحاضر، وبذلك يتحقّق للخطاب القرآنيّ هدفه المتمثّل في العظة والعبرة والتوجيه السليم. وبذلك أيضاً يُستثمر التاريخ؛ تاريخ الأمم الغابرة، ليكون درساً للحاضر/ اللاحق؛ كي يتجاوز مزالقات الماضي/ السابق.

وتتجلّى حركة انتشاريّة عنيفة من خلال بعثرة الريح لما على أرض عاد ولما في ديارهم من بشرٍ ومَتَاع، وهم يصطرخون فيها، إلى أن قضِيَ الأمر. وتبقى الجثث صرعى والأشلاء مبعثرة تتقاذفها الريح العاتية.. وهنا ترد صورة تشبيهيّة منتزعة من البيئة العربيّة، حيث أشجار النخيل الباسقة في الواحات التي ألفها إنسان الجزيرة العربيّة منذ حقب بعيدة. لم يبق من مثل ذلك النخيل في ديار عاد إلاّ أعجازه الخاوية؛ لتتشكّل طرفاً ثانياً من التشبيه (مشبّهاً به) في لوحة الخراب والدمار؛ وتوضّح مصير الكفر ونهاية كلِّ جمّعٍ كافرٍ لا سيّما لعرب الجزيرة على عهد رسول الله ﷺ.

(٤) مجال حركة (الجبال):

الجبال مظهر من مظاهر عَظَمَةِ اللَّهِ جل جلاله وقدرته.. وهي أحد عناصر الطبيعة الصامتة، ورد ذِكْرُهَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (٣٩ مرّة)، (٦) منها بصيغة الإفراد «جبل»، و(٣٣) بصيغة الجمع «جبال». ووُصِفَتْ بـ«الرواسي» فِي (٩ آيات) ^(١).

وقد ذُكِرَتْ الْجِبَالُ بَعْدَ السَّمَاءِ وَقَبْلَ الْأَرْضِ ^(٢)، ولهذه العلاقة اللفظية دلالة عميقة فِي النِّظَامِ الْفَلَكيِّ؛ لَا سِوَمَا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْقَوَانِينِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي تَوَازُنِ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ. وَنَحْنُ نَتَلَقَّى حَقِيقَةَ الْجِبَالِ مِنَ الْقُرْآنِ، وَنَدْرِكُ مِنْهَا أَنَّهَا تَتَبَّتْ الْأَرْضَ وَتَحْفَظُ تَوَازِنَهَا.. قَدْ يَكُونُ لِأَنَّهَا تَعَادِلُ بَيْنَ التَّقَلُّصَاتِ الْجَوْفِيَّةِ لِلْأَرْضِ وَالتَّقَلُّصَاتِ السُّطْحِيَّةِ، وَقَدْ يَكُونُ لِأَنَّهَا تَثْقُلُ الْأَرْضَ فِي نَقْطٍ مَعِيْنَةٍ فَلَا تَمِيدُ بِفِعْلِ الزَّلَازِلِ وَالبَرَاكِينِ وَالاَهْتِزَازَاتِ الْجَوْفِيَّةِ.. وَقَدْ يَكُونُ لِسَبَبٍ آخَرَ لَمْ يُكشَفْ بَعْدُ.. وَكَمْ مِنْ قَوَانِينِ وَحَقَائِقَ مَجْهُولَةٍ أَشَارَ إِلَيْهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، ثُمَّ عَرَفَ الْبِشْرُ طَرَفًا مِنْهَا بَعْدَ مِائَاتِ السِّنِينَ ^(٣).

مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، تَقِيْمُ الْجِبَالُ مَعَ السَّمَاءِ عِلَاقَةً تَوَافُقِيَّةً (ارْتِفَاعٍ / ارْتِفَاعٍ).. وَتَقِيْمُ مَعَ الْأَرْضِ الْمُنْبَسِطَةَ عِلَاقَةً تَقَابُلِيَّةً (ارْتِفَاعٍ / انْبَسَاطٍ)، كَمَا أَنَّ الْجِبَالُ تُشَكِّلُ مَعَ الْوُدْيَانِ عِلَاقَةً ضَدِيَّةً (ارْتِفَاعٍ / انخِفاضٍ).

وَمِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ «أَنَّه قَلَّمَا ذَكَرَ الْقُرْآنُ الْجِبَالَ إِلَّا ذَكَرَ مَعَهَا الْمَاءَ أَوْ الْأَنْهَارَ وَالنَّبَاتَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ إِلَّا إِشَارَةً لِمَا قَلَنَاهُ مِنْ أَنَّ الْجِبَالَ الثَّابِتَاتِ الشَّامِخَاتِ تَتَجَمَّعُ عَلَى قِمَمِهَا السَّحْبُ، وَتَتَحَدَّرُ عَنْهَا مَسَاقِطُ الْمَاءِ الْعَذْبِ» ^(٤).

١- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ١٦٣، ١٦٤..
وص: ٢٢٠.

٢- تنظر: الغاشية: ٢٠-١٧.

٣- سيّد قطب، فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ: ٤٢٩/٨.

٤- د. حامد صادق قتيبي، المشاهد فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص ٧٩.

«إنّ هذه المشاهد لتوحي إلى القلب أشياءً بمجرّد النظر والتأمّل الواعي للمشهد الكلّي الذي يضمّ السماء المرفوعة والأرض المبسوطة، وفي هذا المدى المتطاوّل تبرز الجبال (منصوبة) السنان لا راسية ولا ملقاة.. خطّان أفقيّان وخطّان رأسيّان في المشهد الهائل في المساحة الشاسعة ولكنها لوحة متناسقة الأبعاد والاتّجاهات على طريقة القرآن الكريم في عرض المشاهد وفي التعبير بالتصوير على وجه الإجمال»^(١).

. ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ (الغاشية: ٢١، ١٨).

وفضلاً عمّا في مشاهد الجبال من جماليّات في لوحات ملوّنة خلاّبة، فإنّها في الوقت نفسه تمثّل نموذجاً للجلال^(٢). ومع إحساس الإنسان بتصاغره إزاءها^(٣)، فإنّه تحمّل مسؤوليّة الأمانة^(٤) التي أبت الجبال أن تحملها^(٥)، و«الأمانة مجاز عن الطاعة، وعرضها على السموات وإباؤها وإشفاقها مجاز»^(٦). ومع هذا فإنّ الله جل جلاله قد سخّر الجبال للإنسان، ففيها له متاع^(٧).

إنّ مظاهر الجلال والجمال التي تبدو في الجبال هي مدعاة للتأمّل والتفكير والتدبّر، وحافز لتنشيط مكامن الخشوع والتضرّع لله جل جلاله، لا سيّما وأنّ «الجبال» تسجد مع عناصر الطبيعة الأخرى للعظمة الإلهية^(٨)

١- سيد قطب، التصوير الفنّي في القرآن، ص ١٠٣.

٢- تنظر: الغاشية: ١٩.

٣- تنظر: الإسراء: ٢٧.

٤- تعدّدت الآراء في وجه الأمانة وعرضها. ينظر الرازي، التفسير الكبير: ٢٥/٢٢٤، ٢٣٥.

٥- تنظر: الأحزاب: ٧٢.

٦- الزمخشري، الكشاف: ٢/٢٧٧.

٧- تنظر: النازعات: ٣٢، ٣٣.

٨- تنظر: الحج: ١٨.

وبطريقتها الخاصّة بها. وهي كذلك تسبّح باسم الله القدير^(١)، وتخضع لجلال سلطانه^(٢)، وكان اعتذارها عن عجزها عن حمل الأمانة^(٣). فالتشخيص البيانيّ للجبال في استعارة مكنيّة يضي على مظاهرها الجامدة صفة الحياة المدركة الواعية المتعبّدة لله جل جلاله، والخاضعة لإرادته ومشيئته. ومن هنا انطلقت الرؤية الإسلاميّة في إقامة العلاقة بشكلٍ ودّي بين الإنسان والجبل بوصفه مظهرًا من مظاهر الطبيعة، فقد أثار عن رسول الله ﷺ: «أحدُ جبلٍ يحبُّنا ونحبُّه»^(٤).

المظهر الحركي للجبال:

وإذا ما رصدنا الحركة في مشهد الجبال، وجدناها على أنواع ثلاثة: ما يتعلّق بتثبيت الأرض (كالمسامير) واتزانها، وما يتعلّق بخضوعها للإرادة الإلهيّة والمظاهر العباديّة، وما يتّصل بالتغيّرات الكونيّة الحاصلة يوم القيامة.

مشهد تستحضره المخيلة فيمثّل لها حاضرًا مرتين: ﴿وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صَنَّ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٨٨).

عن مشهد تسيير الجبال قيل: الجامدة: من جمد في مكانه إذا لم يبرحها.. «وهكذا الأجرام العظام المتكاثرة العدد إذا تحرّكت لا تكاد تتبين حركتها»^(٥)؛ «يعني أنه جمود مجازي، كثر استعمال هذا المجاز حتى ساوى

١- تنظر: سبأ: ١١، الأنبياء: ٧٩.

٢- تنظر: الحشر: ٢١.

٣- تنظر: الأحزاب: ٧٢.

٤- البخاري: الصحيح، جهاد ١٠٥٨/٢ رقم ٢٧٢٢، زكاة ٥٣٩/٢ رقم ١٤١١، أنبياء ١٢٢٢/٣ رقم ٢٨٥٦.

٥- الزمخشري، الكشاف: ٢/٢٨٧.

الحقيقة»^(١). وقيل: «الوجه في حسابها أنها جامدة، فلأن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد في السمّت والكيفيّة ظلّ الناظر إليها أنها واقفة، مع أنها تمرّ مرّاً حيثاً»^(٢). ونسبّيّة الحركة هذه أكدها رواد الفضاء الذين شاهدوا عياناً وعن كثب حركة الجبال وهي تدور مع دوران الكرة الأرضيّة.

قوله: (وترى الجبال) المقتضي أنّ الرائي يراها في هيئة الساكنة، وقوله: (تحسبها جامدة) إذ هذا التأويل بمعنى الجامدة هو الذي يناسب حالة الجبال.. وجعلوا الخطاب في قوله «ترى» لغير مُعَيَّن ليَعْلَم كل من يرى. وجعلوا معنى هذه الآية في معنى قوله تعالى (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ)^(٣).. وردت الآية السابقة من سورة النمل بعد الآية التي تذكر اليوم الذي يُنْفَخ فيه الصور. (يوم القيامة/ يوم الفزع الأكبر)، وهو العلامة الثابتة ليوم القيامة (بعد العلامة الأولى المتمثّلة في خروج دابّة الأرض التي تكلم الناس).

وكما أنّ هناك ما يُعرَف بـ«وَهْم الحركة»، فهناك - في المقابل - ما يُعرَف بـ«وَهْم السكون». إنّ العين تلتقط أعداداً لا حصر لها من اللقطات الآنيّة الساكنة المتعاقبة.. وهي تقوم بدور شبيه بما تقوم به عدسة الكاميرا السينمائية التي تَنْتَظِم في سلك الصيرورة مجموعة من الصور الفوتوغرافيّة (الواقعيّة) المتعاقبة، ومن خلال تعاقب الأوضاع الساكنة تتجسّد الحركة في المشهد. كذلك عين الرائي التي ترصد المشهد المرئيّ في مقطع متحرّك، ومن خلال المقطع تنتمي اللقطة إلى الزمان بعد أن كانت منتمية إلى المكان. إنّ المنظور داخل الزمان يعبر عن الزمن نفسه، وللزمن قدرة على الانكماش، كما أنّ للحركة قدرة على الإبطاء. وحين نضع في الاعتبار مسألة نسبيّة الحجم إلى المكان/المسافة، فإنّ حركة الجسم الكبير جدّاً بالنسبة للحيز

١- ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٥٠/٢٠.

٢- الرازيّ، التفسير الكبير: ٢٤/٢٢٠.

٣- ينظر: ابن عاشور، المرجع السابق، ٤٧/٢٠، ٥٠.

الذي يتحوّل فيه الجسم الصغير جداً يصعب رصده، فيخيل إلى الصغير
سكون الكبير وتجمّد حركته. وهذا ما يحدث فعلاً في مراقبتنا للجبال التي
نراها فنحسبها جامدة وهي تتحرّك في مسار واتّجاه محدّدين.. واكتشاف
حركة الجبال أو تصوّرها هو واحد من جماليّات الطبيعة الجليّة والخلابة
الساحرة. إنّ ما تغدقه المشاهدة المباشرة الواعية المتأمّلة على الرائي من
مُتّع اللذّة الحسيّة، وما يفيض على مواجده من سعادة معنويّة وسرور وجدائيّ
يؤكد روعة هذه الجماليّة الرائعة التي تدلّ على عظّمة الإبداع الإلهيّ.

هيئة الجبال يوم القيامة:

يوم القيامة تتغيّر الأرض والسماوات.. والتغيّر واحد من مظاهر الحركة،
وفي مرحلة من مراحل التغيّر تكون الجبال على الهيئة التي صورها القرآن
الكريم في الآيات الآتية:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ (المزمل: ١٤).

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة: ٥). شبه
الجبال بالعِهْن، وهو الصوف المصبوغ الوانا؛ لأنّ الجبال ألوان بيض وحممر
مختلف ألوانها، ووصف العِهْن بالمنفوش لتفرّق أجزائه^(١). وتشبيه حال
الجبال حين تُسَيَّر بحال السحاب في تخلخل الأجزاء وانتفاشها، فيكون
من معنى قوله: (كالعهن المنفوش).. وجعلوا معنى هذه الآية في معنى قوله
تعالى: (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالِ)^(٢).

﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ (الواقعة: ٦٠٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (الحاقة: ١٤).
وقيل: إنّ أوّل الصفات ارتجاعها، ثمّ صيرورتها كالعهن المنفوش، ثمّ
كالهباء بأن تتقطع بعد أن كانت كالعهن، ثمّ نسفها بإرسال الرياح عليها،

١- ينظر: النسفي، تفسيره: ٤/٢٥٤.

٢- ينظر: ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ٢٠/٤٧.

ثمّ تطيرها بالريح في الجوّ كأنّها غبار، ثمّ كونها سراباً^(١).

صورة من صور مشاهد يوم القيامة، فيها ما فيها من العنف الحركي. الحركة هنا غاية في الشدّة والعنف. فالفعل: «حُمِلَتْ»: ماض مبني للمجهول، يصوّر حركة مستقبلية (صاعدة)، ورد بصيغة الماضي تأكيداً لِحتمية وقوع الحركة. (والفاعل الحقيقي هو الله جل جلاله/ مفهوم من السياق). كذلك الفعل: «دُكَّ»: ماضي مبني للمجهول يصوّر حركة مستقبلية (هابطة)، ورد بصيغة الماضي تأكيداً لِحتمية وقوع الحركة أيضاً. وقد أكد الفعل بالمصدر تأكيداً فـ «الدُّكُّ»: يصوّر حركة موضعية.. واقعية.. مركبة/ تقابلية (صاعدة/ هابطة). وتلاحظ محاكاة جرس اللفظ لعناه. فتكرار صوت الكاف وتشديده يترجم صوت عملية الدُّكِّ ويحاكي شدّته وانفجاره.

(٥) مجال حركة (البحر):

البحر: معروف، وسمّي بذلك لاتّساعه^(٢).. ومن ذلك قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في فرس (لأبي طلحة): «وإنّ وجدناه لبَحراً»^(٣).

لم يكن البحر غريباً عن العرب في جزيرتهم، فتسمية «قريش» لها صلة بالبحر^(٤). ونشير هنا إلى ما جاء في قول (سعد بن معاذ / أو ابن عبادة) لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في «بيعة العقبة» قبيل «معركة بدر»: «... فوالذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك»^(٥)؛ وهو ما يدلّ على أنّ ركوب البحر لم يكن يسيراً.

وقد ورد ذكر البحر في القرآن الكريم بصيغة الإفراد (٣٢ مرّة)، وبصيغة

١- ينظر: الآلوسي، روح المعاني: ٢٠/٣٥.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٨٨.

٣- البخاري، الصحيح، ٥/٢٢٩٤ رقم ٥٨٥٨.. ومسلم، الصحيح، ٤/١٨٠٢ رقم ٢٣٠٧.

٤- «قريش»: ولد النضر بن كنانة، سموه بتصغير القرش وهو سمكة عظيمة في البحر تعبت بالسفن ولا تطلق إلا بالنار، والتصغير للتعظيم، فسموه بذلك لشدّتهم ومنعتهم تشبيهاً بها. ينظر: النسفي، تفسيره، ٤/٣٥٨.

٥- القرطبي، المصدر السابق: ٧/٢٧٤.

التثنية (٥ مرّات)، وبصيغة الجمع: (البحار ٢ مرّتين) و«أبْحَر» مرّة واحدة)، فيكون المجموع (٤١ مرّة) ^(١).

ومشاهد البحر في القرآن الكريم تعجّ بالحركة العنيفة الصاخبة حيناً والهادئة الرزينة أخرى، وفي كلتا الحالتين هي تفيض بالحياة.. وصور ما يرتبط بالبحر عديدة تغلب عليها السّمة الواقعيّة، وترد في سياقات متنوّعة، غالباً ما تُذكر بقدرة الله جل جلاله وعظّمة إبداعه، أو بنعمه وأفضاله، وكلّها آيات ^(٢).

فمن مشاهد البحر الصاخب:

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ مُّظْلِمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِنُهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ (الأنعام: ٦٣) أي: شدائدهما. والعرب تقول: يوم مظلم إذا كان شديداً. وجمع الظلمات على أنّه يعني ظلمة البرّ.. وظلمة البحر.. وظلمة الليل.. وظلمة الغيم. أي: «إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك دعوتموه. لئن أنجيتنا من هذه: أي من هذه الشدائد لنكوننّ من الشاكرين. فويّخهم الله في دعائهم إياه عند الشدائد وهم يدعون معه في حالة الرخاء غيره» ^(٣).

ومن مشاهد البحر الهادئ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (الروم: ٤٦).

١- ينظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ١١٤.

٢- تنظر: لقمان: ٢١، الشورى: ٣٣.

٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٨/٧.

وتستوقمنا لوحات قرآنية توظف عالم البحار لهدف تحذيري؛ كل لوحة تصور قصة مكثفة، وتحكي أحداثاً ضخمة لتجربة تعيشها نماذج بشرية، وتختزل الزمن بشكل فني رائع، لتصل إلى الذروة، ثم إلى الخاتمة التي تعبر عن مغزى؛ هو الهدف التوجيهي المقصود من رسم جانب من أخلاقية السير للوصول إلى الهدى والرشاد من خلال مرتكزات ودعائم ترسخ الاقتناع الإيمانية. أما الحركة في هذه اللوحات فتبدأ مع اللقطة الأولى: هادئة.. رزينة.. وأمنة.. مطمئنة. ما تلبث أن تشتد حتى تبلغ ذروة سامقة من الصخب والعنف؛ مسaire بذلك تطوّر الحدث.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ بِهِم بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ وَقَرَحُوا بِهَا جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ بِأَيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٢-٢٣)^(١). ويلاحظ أن كل لوحة من اللوحات المعنية تبدأ بمقدمة تمهد لاستعراض الأحداث المكثفة، بنقلات إيجازية، ثم تنتهي كل لوحة بنهاية تحذيرية أو توجيهية هادفة.. ويحذر القرآن الكريم المارقين والمرتدين بعد أن أنجاهم الله تعالى من الفرق:

﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَن يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكَيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ (الإسراء: ٦٩). «جانب البر»: ناحية الأرض، وسماه جانباً لأنه يصير بعد الخسف جانباً، وأيضاً فإن البحر جانب البر جانب. وقيل: إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر،

١- تظنر أيضاً: الإسراء: ٦٦، ٦٩، ولقمان: ٢٢، ٢١.

فحدّثهم ما آمنوه من البرّ، كما حدّثهم ما خافوه من البحر»^(١). وهذه صورة مرعبة ترتعد منها الفرائص، فخشف جانب البرّ يعني زلزالاً مدمّراً يأتي على الناس والعمران، وقد وقفنا عند الحركة الزلزالية في محور الحركة الاهتزازية..

أمّا قوله تعالى: (أن يعيدكم فيه) «فيعني: يعيدكم إلى البحر، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح، والقاصف: الريح الشديدة التي تكسر بشدة.. وقيل (القاصف): المهلكة في البرّ، و(العاصف) المغرقة في البحر». وقوله تعالى: (بما كفرتم): أي: بسبب كفركم؛ وذلك من باب إقامة الحجّة بربط الأسباب بالمسببات؛ ذلك أنّ النتائج التي ينتهي إليها الناس إنّما هي مرهونة بالمقدّمات التي يمارسونها ويتّخذون من خلالها مواقفهم العقديّة وسلوكهم الحياتيّ.

وإذا كانت الحركة في حالة عنفها التدميريّ مظهرًا للعقاب؛ فإنّ السكون بدوره أيضًا قد يعبر عن تهديد بالعقاب!. ذلك أنّ آليّة الحركة في البحر تتمثّل في الريح وتصريف الله جل جلاله لها. وعليه، فإنّ هذه الآليّة المحرّكة على ثلاثة أنواع: ١/ ريح طيبة، ٢/ ريح عاصف أو قاصف، ٣/ ريح راكدة.. فالريح الطيبة مطلوبة لدفع الأشرعة وتسيير السفن.. أمّا الريح العاصف فتستثير الموج العاتي الذي يحيط بالسفينة ويلتهمها، فهي إذن ليست مطلوبة.. وأمّا الريح الراكدة فلا فاعليّة لها بسبب إقلاعها عن الهبوب وبالتالي إمساكها عن الدفع والتحرك؛ وهي أيضًا ليست مطلوبة.. وهذه الأخيرة وردت في قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنَّ يَسَاءَ مَسْكِنِ الرِّيحِ فَيُظَلِّلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (الشورى: ٣٢-٣٣).

لقد سخر الله البحر بما فيه لمنفعة الإنسان وقضاء مصالحه وحوادثه،

١- القرطبي، المصدر السابق، ١٠/٢٩٢.

تعزيراً لدوره في الإعمار والاستثمار، وتحقيقاً لرسالته التي استخلفه الله سبحانه وتعالى في الأرض من أجلها.. وقد يرد ذكر البحر - كما مرّ آنفاً - في معرض الإنذار والتحذير، أو الغضب والعذاب، أو الانتقام من الكفار والطغاة. ومن خلال مَشاهد البحر الصاحب يؤوب الإنسان - ولا سيما المارق - إلى التوبة، ولا يلجأ إلا إلى الله جل جلاله^(١). فطبيعة الإنسان أن لا يرى ملجأ إلا إليه سبحانه في ساعة العسرة عندما تضيق عليه فسحة المكان بما رحبت، وعندما تضيق عليه نفسه. وهذا ما حكته الآيات المتقدمة (من يونس والإسراء ولقمان). غير أن الله أعلم بالسرائر، ومن هنا كان للتوبة أصول واعتبارات^(٢). وللبحر مَشاهد تزخر بالجلال والرهبة، وبالجمال والوداعة في أن، وبخاصة مَشاهد السفن التي يزجي الله جل جلاله أشرعتها الملوّنة بالريح الطيب^(٣).

زمانية حركة السفن:

«الْفُلْكَ»: السفن وإفراده وجمعه بلفظ واحد ويذكر ويؤنث. في «الْفُلْكَ المشحون» جاء مذكراً، و«الْفُلْكَ التي تجري» جاء مؤنثاً، ويحتمل واحداً وجمعاً... ووجه الآية في الفلك تسخير الله إياها حتى تجري على وجه الماء ووقوفها فوقه مع تظلمها. (يقال) أول من عملها (نوح) عليه السلام^(٤). ويمكن أن نرقب حركة السفن من خلال الأفعال التي اقتربت بها، ففعل جريان الْفُلْكَ ذُكِرَ في القرآن الكريم (٦) مرّات بصيغة المضارع (تجري)^(٥)؛ وهو

١- ينظر: الأنعام: ٦٣، الإسراء: ٦٧.

٢- ينظر: النساء: ١٨١٧.

٣- حول الْفُلْكَ تنظر أيضاً: البقرة: ١٦٤، الأعراف: ٦٤، هود: ٣٧، ٢٨، إبراهيم: ٣٢، النحل: ١٤، المؤمنون: ٢٧، ٢٨، الشعراء: ١١٩، العنكبوت: ٦٥، الروم: ٤٦، فاطر: ١٢، يس: ٤١، الصافات: ١٤٠، غافر: ٨٠، الزخرف: ١٢.

٤- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٢/١٩٤.

٥- البقرة: ١٦٤، إبراهيم: ٣٢، الحج: ٦٥، الروم: ٤٦، لقمان: ٢١، الجاثية: ١٢.

ما يَصَوِّرُ استمراريّة الحركة. وقد ذُكِرَ مرّةً بصيغة الماضي (جَرَيْنَ) ^(١).
 وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ
 وَالْقُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ (البقرة: ١٦٤) ^(٢).

ورد الفعل (تجري) وصفاً للفلك.. حيث اكتسب الوصف إطلاقاً زمن
 الجريان بالرغم من أن الفعل مضارع يدلّ على الحال والاستقبال.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ
 وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ
 كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُجِيبْنَا مِنْ
 هَذِهِ لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (يونس: ٢٢). زمن هذه الحركة لا يخلو من
 التعقيد؛ إذ ورد في سياق قد تبدو مفرداته متقاطعة؛ فـ«حَتَّىٰ» تفيد الغاية،
 و«إِذَا» ظرف لما يستقبل من الزمان، و«جَرَيْنَ» فعل في صيغة الماضي.. فكأنَّ
 الحدث يجري -إِذَا صَحَّ التعبير- في (ماضي المستقبل). فالماضي للدلالة
 على حتمية الوقوع، والظرف إشارة إلى وقوع الحدث في المستقبل.. أي أنّ
 المعنى: إذا انتهيتم إلى السفينة التي لا بدّ أنّها ستسير، وهذه حكاية عن
 الوضع النفسيّ لمثل هذه النماذج البشريّة التي تلتجئ إلى الله جل جلاله
 في ساعة العسرة، وتتخلّى عن التزاماتها ساعة الرخاء!.. ويكاد يكون المشهد
 في الآية قصّة كاملة لكنّها مكبوسة بعناصرها الأساسيّة، لا سيّما بعقدتها
 وما فيها من انفعالات نفسيّة وعواطف بشريّة. ويبدأ المشهد بتقرير القدرة
 المهيمنة على الحركة والسكون: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
 آيَاتِهِ﴾ (لقمان: ٣١). الفعل (تجري) مضارع يدلّ على الحال والاستقبال،
 واقترانه بالفعل (أَلَمْ تَرَ) السابق عليه يحيله -من جهة- إلى الماضي؛ لأنّ

١- تنظر: يونس: ٢٢.

٢- تنظر: الحج: ٦٥.

«لم» حرف قلب يحيل زمن المضارع إلى الماضي.. واقتارانه بالفعل (لِيُرِيَكُمْ) اللاحق يحيله إلى المستقبل.. وهنا يكمن تعقيد زمن الحركة ما بين الماضي والمستقبل مع إبقاء الفعل (تجري) -الواقع بين الفعلين- في زمن الحاضر.

وفي سياق آخر يرد فعل الجريان مرهوناً بتسخير الله جل جلاله^(١)، بإرساله الرياح المبشرات: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الروم: ٤٦). ومن الأفعال التي تشخص حركة سير السفين الفعل (يُزْجِي) أي: يدفع ويحرك، وفي إيقاع هذا الفعل جمالية صوتية حيث يتدقق النغم من صوت الزاء الأسلية الساكنة؛ وهي تجهر بالصفير مع رخاوة وانفتاح، لا سيما وأنها تلتقي بصوت الجيم الشجري المجهور مع الشدة والقلقلة:

. ﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلُكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (الإسراء: ٦٦).

إن إيقاع الفعل يُصَوِّرُ معناه؛ إذ إن امتداد الصفير بالصوت يحاكي حركة الاندفاع إلى أمام. وهناك مجموعة من الأفعال التي تقترن بذكر السفن تعين على تصوّر جانب من جوانب حركتها: «اصنع الفلك، ويصنع الفلك».. «أبق إلى الفلك».. «ركبوا، تركبون».. «تحملون/ حَمَلْنَا».. «أنجينا». ويتضافر مع هذه المنظومة من الأفعال عدد من المشتقات الدالة على أوصاف حركة السفن: «مواخر».. «المشحون»، «الجارية، والجواري». ويسبق بعض الآيات بفعل الرؤية: «وترى» و«الم تر»^(٢).. فالأول يدل على الحال، والثاني على الماضي. وفي كلا الحالتين يستحضر هذا الفعل مشهد الفلك مرثياً أمام

١- تنظر: النحل: ١٤، إبراهيم: ٢٢.

٢- تنظر على التوالي: (هود: ٢٧، ٢٨، المؤمنون: ٢٧)، (الصافات: ١٢٩-١٤٠)، (العنكبوت: ٦٥، الزخرف: ١٢)، (يونس: ٢٢)، (يس: ٤١، غافر: ٨٠)، (المؤمنون: ٢٨)، (يونس: ٧٣، الشعراء: ١١٩)، (النحل: ١٤، فاطر: ١٢)، (يس: ٤١، الصافات: ١٤٠)، (الحاقة: ١١، الشورى: ٣٢، الرحمن: ٢٤)، (الحاقة: ١١، الشورى: ٣٢، الرحمن: ٢٤)، (لقمان: ٢١)، (الحج: ٦٥).

العين التي ترصد حركة السفن..

وتجدر الإشارة إلى الفعل «جَرَيْنَ» في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَكُمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس: ٢٢). الذي يخبر عن «الْفُلِكِ»؛ حيث أُسند الفعل إلى نون النسوة، كما في (يُظَلَّلْنَ) في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظَلَّلَنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ (الشورى: ٢٢). وهذا يعني تشخيص الفلك وأنسنتها (حيث يهبها النصُّ الحياة ويمنحها الحركة، فضلا عن وسمها بالوعي والإدراك) من خلال استعارة مكنية، وقف عندها بعض كتب البلاغة.. ومن خلال «الانفتاح» الحاصل في الضمائر (من الخطاب في «كنتم» إلى الغيبة في «بهم»); وفي هذا من جمال التعبير ما يدهش المتأمل ويسره؛ وذلك بانزياح لغوي يفاغى المتلقي. ثم إن ضمير الخطاب في «كنتم» يدل على قرب، بينما ضمير الغيبة «بهم» (ويقصد المخاطبين أنفسهم) يوحي بالبعد؛ وهو ما يصور عملية ابتعاد الفلك بالذين كان الخطاب موجهاً إليهم قبل ثلاث مفردات: (في الفلك، وَجَرَيْنَ).. وفي هذا القطع التولييفي بين لقطتين متعاقبتين اختزال كبير لزم النصّة وأحداثها، ونقلة سريعة جداً في الحيز من «القريب» إلى «البعيد». لقد سخر الله سبحانه وتعالى البحر للإنسان، ليستفيد من منافعه وليتمتع بجماليّاته. فمن المنافع: ركوب البحر للتنقل والسفر، ومنها ما يُستخرج منه من الموارد الغذائية المتمثلة في لحوم الأسماك.. أمّا جماليّات البحر فمنها مشاهد السفن والحلّية المستخرجة من أعماقه.

. ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٤).

. ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَتَبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر: ١٢). فمن المنافع:

ما جاء في قوله تعالى (وهو الذي سَخَّرَ البحر) .. تسخير البحر: هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب وغيره. وهذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقتنا.

وفي قوله تعالى (ولقد كَرَّمْنَا بني آدم) الآية، بين تبارك وتعالى النعمة على بني آدم، فكَرَّمْنَا بالتضعيف أي: شرفاً وفضلاً، وهذا هو كرم نفي النقصان. وحملهم في البر والبحر وبما خصَّهم به من المطاعم والمشارب والملابس. والآية تدل على ركوب البحر مطلقاً^(١)، ومن السنة حديث أبي هريرة، وفيه: «أنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء» الحديث^(٢). وحديث (أنس) في قصة (أم حرام) يدل على جواز ركوبه في الغزو^(٣).

أما الجوانب الجمالية من البحر؛ فمنها مرأى السفن الماخرة عباب البحر.. ومنها مشهدان ملونان لم يصرح الخطاب القرآني بألوانهما، وإنما عبّر عن اللون من خلال صورة تشبيهية رائعة للتدليل على بعض من آيات الله جل جلاله والتذكير بنعمه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الشورى: ٣٣-٣٢).

﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (الرحمن: ٢٤).

فالأعلام هي الرايات^(٤)، وعادة تكون ذات ألوان مختلفة، وتتصف

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١٠/٨٥، ٢٩٣.

٢- مالك، الموطأ: ٢٢/١ رقم ٤٠١. أبو داود، السنن ١/٢١ رقم ٨٣. النسائي، السنن: ١/٥٠ رقم ٥٩.

الترمذي، السنن: ١/١٠٠ رقم ٦٩.

٣- مالك، الموطأ: ٢/٤٦٤ رقم ٩٩٩٤٠. البخاري، الصحيح: ٣/١٠٢٧ رقم ٢٦٣٦. مسلم، الصحيح،

٣/١٥١٨ رقم ١٩١٢. الترمذي، السنن: ٤/١٧٨ رقم ١٦٤٥. النسائي، السنن: ٦/٤٠ رقم ٣١٧١.

٤- يرجح (الرازي) دلالة الأعلام على الجبال وليس على معنى الرايات. إذ يقول: «فالأعلام جمع العَلَم الذي هو الجبل. وأما الشراع المرفوع كالعَلَم الذي هو معروف فلا عجب فيه، وليس العجب فيه كالعجب في جري الجبال في الماء... إذ السفن كالجبال، والجبال لا تجري إلا بقدرته الله تعالى». ينظر التفسير الكبير: ٢٩/١٠٣، ١٠٤. وانظر ٢٧/١٧٤ تفسيره لآية الشورى: ٢٢. ونحن نرجح الدلالة على الراية لأن الجبال «تحسبها ساكنة، وهذا الحسبان لا يتوافق مع معنى السفن الجوارية؛ أي التي حركتها تكون بشكل منظور أو ملحوظ.

بالحركة الخفاقة في مهبّ الريح. وكذلك أشرعة السفن المواخر في البحر..
وفي المشهد الملوّن على أرضية زرقاء من الروعة ما يخلب الألباب ويسحر
العيون، لا سيّما وأن السفن متحرّكة، وحركتها مركّبة:

- فالحركة الأفقيّة تتمثّل في سير السفينة على سطح الماء باتجاه معيّن،
(وهذا مفهوم من «الجواري» أي: السفن الجاريات؛ أسماً كان أم صفة
أقيمت مقام الموصوف)، وهذه الصفة مشتقة من «الجري» الذي يتضمّن
معنى الحركة السريعة.

- الحركة العموديّة مفهومة من وصف السفن بـ«المنشآت»؛ أي: المرفوعات،
وتتمثّل بشموخ السارية وما يتعلّق أو يرتبط بها من أشرعة.. والحركة
الاهتزازيّة تتمثّل بترنّج السفينة مع أشرعتها عبر عباب الموج وكأنّها
إنسانة/ جارية من جواري القصور تسيرو وتتبختر متمائلة في مشيتها. وعلى
هذا يمكن أن نجد في لفظة «الجواري» تورية بلاغيّة، فقد يخرج معناها أولاً
على أنّها وصفٌ (من الجري). وثانياً على أنّها استعارة قائمة على علاقة
تشبيهيّة (بين السفن/ والنساء الحسان).

وتتمثّل الحركة الاهتزازيّة أيضاً في خفقان الأشرعة (وبالمثل خفق
الرايات) عبر مهبّ الرياح. وكم هو الفرق بين جمال الأعلام وهي ترفرف أو
الرايات وهي تخفق عبر مهبّ الرياح، وبين انحسار معالم ذاك الجمال حين
تنكمش تلك الأعلام خلف أعمدتها أو تلتفّ تلك الرايات حول سواريتها.

ويلاحظ أنّ الآيتين ذكرتا «الجواري» بصيغة الجمع، والبحر بصيغة
المفرد؛ الأمر الذي يوحي -من جهة- بتراحم السفن أو انتشارها في مكان
ما بعينه؛ وهو ما يضيف على المشهد روعة جماليّة ساحرة، كما يوحي -من
جهة أخرى- بسعة البحر وامتداده. ولوقال: «في البحار» لربّما فهم منه أنّ
لكلّ بحر سفينة مثلاً، وبذلك تنتفي جماليّة المرئي وروعة المنظور.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ شَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلَلَنَّ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (الشورى: ٣٢).

الفعل «يظللن» مضارع تابع لسياق شَرْطِيّ، فيه فعل الشرط وجزاؤه مضارعان أيضاً، فالأفعال الثلاثة تدلّ على الحال والاستقبال في إطار الاستمرار، غير أنّ لصيغة «رواكذ» المشتقّة (صفة مشبّهة منقولة عن اسم فاعل) دلالة معجميّة تصوّر سكونيّة السفن، الموصوفة بالحركة (الجواري/ من الجري) .. وبين «الجواري» و«رواكذ» دلالة ضدّيّة؛ فالأولى «الجواري» وتمثّل حركة سريعة لا تخلو من القوّة والعنف، بينما وصف السفن بـ «الرواكذ» يجمّد حركتها، وفي هذا من التقابل والتضادّ ما يحاكي الجمال ونفبه. والفعل «يظللن» يمنح الهيئة الراكدة امتداداً زمانياً، وهذا الامتداد الزمانيّ نقل الوصف (المشتقّ) من (اسم فاعل) إلى (صفة مشبّهة) لأنّ اسم الوصف بالثبوتيّة.. وقد سبق التنويه إلى أنّ نون النسوة المتّصلة بالفعل «يظللن» تشخّص «السفن الجواري» وتمنحها صفة الحياة الإنسانيّة على سبيل الاستعارة والمجاز؛ (فهي مثل نون (جَرَيْنَ) السابق ذكرها).

ومن الطريف الذي يتّصل بأوصاف السفن مقولة ابن الأعرابيّ من أنّ «السفينة طائر مقلوب والماء في أسفلها نظير الهواء في أعلاها»^(١).

ولم يقتصر جمال البحر على ظاهره، ففي أعماقه ما هو أجمل وأغرب! في باطنه مناجم اللؤلؤ والمرجان، لقوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان)، وربّما غير اللؤلؤ والمرجان أيضاً لقوله تعالى: ﴿وَكَسَتْ خِرْجُونَ حِلِيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ (فاطر: ١٢)^(٢). والحليّة ما يُتَحَلَّى أو يُحَلَّى به من أدوات الزينة. أي: أنّ أعماق البحر ترفد الإنسان بالمزيد من عناصر الجمال ومعطيات الجماليّة.

١- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ١٩٤/٢.

٢- ينظر: القرطبي، المصدر نفسه: ٨٦/١٠. وانظر: النحل: ١٤.

المبحث الثالث الحركة التعبديّة وجماليّتها

١ - جماليّة الحركة التعبديّة :

مفهوم (التعبُد) يعني ، باختصار ، أنّ الإنسان المسلم يعبد الله تعالى في شتى (فَعَالِيَّاتِهِ الحياتيّة) ، وبضمنها الأداء الفنّيّ، وكلّما ازدادت إحدى فاعليّاته عمقاً وكثافة وتركيزاً من ناحية؛ وشمولاً لطافاته ومكوّناته النفسيّة من: عقل.. وقلب.. وروح.. وأعصاب.. وجسد.. وحواسّ من جهة أخرى.. كانت أكثر قدرة على تحقيق هذا التعبُد بشكله الشامل.. إنّ العبادة في الإسلام هي التجربة الكبرى القائمة على توازنٍ فذّ عجيب بين الأخذ والعطاء.. والإنسان يبلغ قَمّة إنسانيّته عندما يصل تلك النقطة التي يحقّق فيها ذلك التوازن؛ حيث نجده يبلغ أقصى درجات الانسجام.. والتوحد الباطنيّ.. والحيويّة الحسيّة.. والنشاط الروحيّ.. والنتفُح العقليّ.. والحركات الجسديّة^(١). وهكذا يظهر أنّ العبادة في الإسلام إنّما هي حركات تعبيرية عن التأمّل.. وتتجلّى العبادة في الإسلام بجماليّات متميّزة، فهي تتمي التربيّة الحركيّة؛ بالتوازي مع التربيّة الإيمانيّة.. العبادة حركات مكنتزة بمحتواها ومفعمة بمضامينها. فالشكل يتجسّد بالفعل، والمحتوى بالنيّة، وبذلك تكتسب الحركة / (الشكل) سمات الروحيّة من المضمون، وبالعكس يكتسب الإيمان / (المضمون) السمات الحركيّة من / الشكل.. ولا تنحصر العبادة في الإسلام بحدود الحيز المكانيّ أو المدى الزمانيّ. فكلّ مكان طاهر مسجد.. وكلّ آناء الليل والنهار مَسْعَاتٌ لذّكر والتسبيح والعبادة. بل إنّ العبادة لتغلغل في كلّ مفصل من مفاصل الحياة اليوميّة التي تتمثّل في (الجهاد الأكبر).. فرقابة الله سبحانه وتعالى لا تحجبها ظلمة أو يُسدّل دونها ستار. والرقابة على الذات كما هي في المسجد والجامع هي في

١ - د. عماد الدين خليل، الطبيعة في الفنّ الغربيّ والإسلامي، ص ٧٢٧١.

السوق والبيت.. في الشارع والمدرسة.. في الثكنة وميادين المواجهة الحربيّة.. في المزارع والمصانع.. في الخلوة والزحام.. وفي كلِّ هذا لا يغيب عن ذهن المسلم أنّ الأفعال تُدوّن في أضيّابِ للحفظ، ثمّ تُفتَح يوم المساءِلة العظمى يوم القيامة.. وهذا هو عصب العبادة في الإسلام؛ إنّ على صعيد المعاملات أم على صعيد الفروض والواجبات.. ففي باب المراقبة يَعْلَم المسلم في كلِّ حركاته وسكناته بأنَّ هناك رقابة ربّانيّة عليه؛ بل وحتى في النية والقصد وما توسوس به النفس، والآيات في الباب كثيرة معلومة.. في الحياة الدنيّا تُدوّن النيات والأعمال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مِمَّا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَفَّى الصُّفُوفَ وَعِنَ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ (ق/١٦-١٨).

معنى (ونعلم ما توسوس به نفسه) نعلم ما « يُحدِّث به قلبه، فلا يخفى علينا سرائره وضمائره، (ونحن أقرب إليه) أعلم به، (من حبل الوريد) لأنَّ أبعاضه وأجزائه يحجب بعضها بعضاً ولا يحجب علم الله شيء. (حبل الوريد) عرق العُنُق.. يتفرق في سائر البدن»^(١). وقيل: (الوسوسة) «الصوت الخفي ومنه وسواس الحليّ.. (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد).. عبر عن قرب العلم بقرب الذات تجوّزاً؛ لأنَّه موجب له، (حبل الوريد) مَثَلٌ في قَرَطِ القرب.. وإضافته بيانيّة.. وسمي وريداً لأنَّ الروح تردده»^(٢). ذلك أنّ الله تبارك وتعالى «علمه بالسرائر والعلانية واحد فقال عزَّ وجلَّ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر/١٩)»^(٣). عن (أبي هريرة) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٤). فالى قلوبكم وأعمالكم تعني إلى

١- البغوي، معالم التنزيل، ٢٢٢/٤.

٢- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ١٢٨/٨.

٣- الشافعي، أحكام القرآن، ٣٠٠/١.

٤- ينظر: النووي، رياض الصالحين، باب المراقبة، ٣٠/١.

نِيَاتِكُمْ وما يصدر عنها من تحرّك وتصرف. وهذا أحد أهمّ الفروق بين الرقابة الدينيّة والرقابة الدنيويّة.. بين محاسبة الضمير المؤمن ومساءلة القانون.. بين سلطة الوعي من الداخل ومكافحة الإجرام من الخارج. إنّ التحرّك في سبيل الإنجاز يُفترَض فيه أن يخضع لتخطيط قبل الشروع، والمبادرة الفعلية تصدر عن قصد ضمن ضوابط ووفق تخطيط. ومن هنا كانت النوايا هي المعوّل عليها. ففي العبادة تتمخّض المواقف الإيجابية في حالة الصراع بين المتضادات: «الخير/ والشر»:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَفَدَّخَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس/ ٧-١٠).

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة/ ٧-٨).

قيل عن هذه الآية إنّها «أخوف آية في القرآن»^(١). ويُذكر أن إعادة قوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة» ليس بتكرار؛ لأنّ الأوّل متّصل بقوله «خيراً يره»؛ والثاني متّصل بقوله «شراً يره»^(٢). فالعمل حاصل في المختار من العملين، فالتحرّك في هذا السياق مسؤول، وصادر عن وعي هادف.. وفي الآية حضّ على الصدقة بكلّ ما أمكن من قليل الأشياء وكثيرها.. وأوضح الدلائل على ذلك ما يروى عن رسول الله ﷺ: «اتّقوا النار ولو بشقّ تمر»^(٣). فالله عزّ وجلّ يُربي الصدقات ويأخذ الصدقة بيمينه فيُربيها^(٤). هذه الزيادة في الأجر وتناميها تُفسّر على أنّها حركة في الكمّ.

والعبادة. من جهة أخرى. تنظيم الموازنة بين المتقابلات المتوافقة:

١- السيوطي، الدر المنثور، ٧/٢.

٢- الكرمانلي، أسرار التكرار في القرآن، ١/٢٢٣.

٣- البخاري، الصحيح، ٢/٥١٤ رقم الحديث ١٣٥١.

٤- ينظر: الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ٤/٢٦٧.

﴿ وَأَنْتَعَجِبِمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص / ٧٧).

والتوازن والاتزان من عناصر الجمال وسماته. في قوله تعالى: (ولا تنس نصيبك من الدنيا) أقوال؛ منها: قيل: «أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِآخِرَتِكَ».. وقيل «العمل بطاعة الله نصيبه من الدنيا؛ الذي يثاب عليه في الآخرة».. وقيل: «أَنْ تَأْخُذَ مِنَ الدُّنْيَا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ فَإِنَّ لَكَ فِيهِ غِنًى وَكِفَايَةً»^(١). وقيل: «لَا تَنْسَ الْعَمَلَ فِيهَا بِطَاعَتِي»^(٢).

العبادة في الإسلام حركة وحياة.. فلا رَهْبَانِيَّةٌ متثاقلة.. ولا كَسْلًا سكونيًّا. الشخصية المسلمة. كما أراد لها الإسلام. شخصية متماسكة متوحدّة وغير مزدوجة؛ فلا انفصام بين العبادة والحياة، ولا انشطار بين الذات والموضوع. هذا التوازن والانسجام في الشخصية العُقَدِيَّة بين: «الداخل / والخارج».. بين «الباطن / والظاهر».. أو «المُخْفِي / والمُعْلَن». هو واحد من أهم الأسرار الكامنة في جماليّات العبادة في الإسلام، إذ يُشكّل الجملة العصبية التي تنقل كل أحاسيس السرور وجميع مشاعر البهجة من القلب إلى العقل، ومن العقل إلى الجسم، ومن القدرة إلى الفعل بشكلٍ إيجابيٍّ مُطرد.

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (آل عمران / ١٩١). أي: يذكرونه دائماً على الحالات كلّها: قائمين وقاعدين ومضطجعين... وقيل معناه يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم.. (ويبتكرون في خلق السموات والأرض) استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات.. والمعنى: خلقتَه لحكمٍ عظيمة من جملتها أن يكون مبدأ لوجود الإنسان وسبباً لمعاشه ودليلاً يدلّه على معرفتك؛ ويحثه على طاعتك.. وهو

١- ينظر: السيوطي، المصدر السابق، ٤٣٩/٦.

٢- مجاهد، تفسيره، ٤٩٠/٢.

اعتراض.. (فقد أخزيتَه) تهويل المستعاض منه تشبيهاً على شدة خوفهم وطلبهم^(١)..وقيل: (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره فكانها تحصر زمانه^(٢). و(قياماً وقعوداً) نُصِبَ على الحال. (وعلى جنوبهم) في موضع الحال أي: ومضطجعين^(٣).

تلك هي الحركات التعبيرية: (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) .. وذلك هو التأمل العقلي: (يتفكرون). وربط تلك بهذا (الحركة بالتأمل) يؤدي إلى الغاية من الخلق (ما خلقت هذا باطلاً).. و«الباطل»: هو «القبح»، ويقابله «الحق»: الذي هو «الجمال».. ولذا فإن الله عز وجل هو الأجدر بالتنزيه والعبادة والتسبيح. فكم هذه الحقائق مفعمة بالجمال!؛ وكم هي غنية بالجلال!.

العبادة سلوكٍ جماليٍّ خيّر:

بما أن «الخير» مفهوم نسبيٌّ يخضع لمقاييس عرفية متباينة في المجتمعات الإنسانية على اختلاف بُناها مكانياً وزمانياً، فإن القرآن الكريم يحدد القيمة الجمالية لمفهوم «الخير» بالمنظور الإسلامي، ومقياسه الأول والأساس هو تقوى الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات/١٣). قوله تعالى (والله أعلم بإيمانكم) جملة معترضة جئ بها.. لبيان أن منَاط التفاضل ومدار التفاخر هو الإيمان دون الأحساب والأنساب^(٤). ويتجلى المؤثر السلوكي على تحصن المؤمن القوي بتعظيمه لشعائر الله.

١- البيضاوي، تفسيره، ١٣١/٢، ١٣٠.

٢- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣١٠/٤.

٣- البيضاوي، المصدر السابق، ٣١١/٤.

٤- أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، ١٦٧/٢.

﴿ ذَاكَ وَمَنْ يُعْظِمَ شَعْبِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج/٣٢).
 «الشعائر جمع شعيرة، وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم؛ ومنه
 شعار القوم في الحرب أي: علامتهم التي يتعارفون بها.. فشعائر الله أعلام
 دينه لاسيما ما يتعلق بالمناسك»^(١).

«وإنما ذُكرت القلوب لأنها مراكز التقوى»^(٢). إنَّ أوَّل المظاهر السلوكية
 الخيرة تتجسّد في العبادات: الصلاة.. الصوم.. الحجّ.. الزكاة «التي
 بموجب تطبيقها يتحقّق الإيمان الإيجابي الذي يحقّق قيمة الخير بإطار
 جماليّ خلاق؛ يهدف إلى صنع إنسان جماليّ جديد»^(٣).

٢- جماليّات الوُضوء :

تبدأ مظاهر الجماليّة في الإسلام بالطهارة^(٤). والطهارة مظهر جماليّ،
 منها الحسيّة ومنها المعنويّة:

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرِّجْلَ فَاهْجُرْ ﴾ (المدثر/٤-٥). قوله تعالى (وثيابك
 فطهّر) فيه أقوال.. وعملك فأصلح.. وقلبك فطهّر؛ فكُنّي بالثياب عن
 القلب.. وقوله تعالى (والرّجّز فاهجّر) (والرّجّز بكسر الراء وضمها
 ومعناها واحد؛ وتفسيره الأوثان؛ وسُمّيت الأوثان رجّزاً لأنها سبب الرجّز
 الذي هو العذاب^(٥). وفي رواية أنّه « كان أوّل ما قيل لمحمد ﷺ: (قم
 فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهّر، والرّجّز فاهجّر) والله أعلم^(٦) .

تنظافة الملبس من الطهارة الحسيّة.. وهجران الرّجّز من الطهارة

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٥٦/١٢.

٢- النسفي، تفسيره، ١٠٤/٣.

٣- ورفاء يحيى قاسم المعاضدي، القيم الجماليّة في السور المكيّة، ص ١١٩.

٤- طهارة الجسد والأعضاء؛ والملبّس؛ والمكان؛ من شرائط الصلاة.. ينظر: أبو شجاع الأصفهاني،
 متن الغاية والتقريب، ص ٨.

٥- الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ٤٣٤/١.

٦- البخاري، الصحيح ٢٣٠٧/٥ رقم ٥٨٩٧. و٦٢٩٠/٦ رقم ٢٤٥٥. ومسلم، الصحيح ٢٩٨/١ رقم

المعنوية؛ لأنها تُطهِّر القلب والعقل من حُبِّ الانحراف العقائديِّ وقذارته؛ ومن نزع شياطين الإنس والجنِّ، وتُبَعِد المتطهِّر عن عذاب الله تعالى وغضبه. إنَّ الوضوء هو بَوَابَةُ التَّوَجُّهِ إِلَى الصَّلَاةِ:

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ ...
﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾
(المائدة/٦).

ومن وصايا النبي ﷺ «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاسْبِغِ الْوَضُوءَ»^(١).
«والطهارة نوعان: حقيقيَّة وهي إزالة النجاسة الحقيقيَّة. وحكميَّة وهي الوضوء والغسل»^(٢). .. لقد أكد الإسلام على الطهارة. والنظافة بضمها^(٣). فالإسلام نظيف والنظافة من الإيمان.. ولها مردود جماليٌّ يبدو من خلال المظهر؛ ويدخل في مفهوم «الزينة» و«الحُسْن». وعن رسول الله ﷺ «تبلغ الحليَّة من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»^(٤). .. وللطهارة مردود صحتيٌّ يبدو من خلال الجوهر؛ ويدخل في مفهوم «الحيويَّة» و«النشاط».. ولكلٍّ من النظافة والطهارة انعكاسات حركيَّة تشيطيَّة تمدُّ المسلم بطاقات إضافيَّة لمزاولة أفعاله العباديَّة بخاصَّة والحياتيَّة بعامة، «فالمؤمن القويُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»^(٥). كما أنَّ لهما مردوداتهما الإيجابيَّة في العلاقات العامَّة وفي إطار البنية الاجتماعيَّة.

١- البخاري، الصحيح ٢٣٠٧/٥ رقم ٥٨٩٧. و ٦٢٩٠/٦ رقم ٢٤٥٥. ومسلم، الصحيح ٢٩٨/١ رقم

٢٩٧. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١/١٧١، ١٧٠.

٢- القونوي؛ قاسم بن عبد الله، أنيس الفقهاء، ص ٤٧.

٣- النظافة: نقاء منظور، والطهارة: نقاء منظور وغير منظور. أي أنَّ كلَّ طاهر نظيف، وليس كلَّ نظيف طاهر.

٤- الإمام مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، ١/ ٢١٩، رقم الحديث: ٢٥٠.

٥- مسلم، المصدر السابق، ٤/٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤.

٣ - جمالية الحركة في الصلاة :

من جماليات الصلاة أخذ المصلين زينتهم عند كل مسجد:

- ﴿يَبْنِيْءَ اٰدَمَ حُذُوًا زَيْنَتُكَرْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف/٣١) . « (الزينة): الثياب الساترة. و(عند كل مسجد) أي: عند كل موضع سجود»^(١) . « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس في العيدين بردي حبرة»^(٢) . والزينة أولاً: هي الجمال الحسي أو الشكلي الظاهر. وثانياً: هي الجمال المعنوي الباطن؛ ويتجلى فيما ينعكس من سلامة الاعتقاد على التفكير والسلوك، وعلى الخلجات والمشاعر. ولا بد من أن تُقترن الزينة بالنظافة التي هي من شرائط الصلاة فيما يتعلق بالجسد والملبس والمكان لاعتبارات صحيّة ونفسية واجتماعية.

- ما يتعلق بنظافة الجسد، يبدأ بإزالة الحدين: الأكبر^(٣) والأصغر. وكلاهما يُزال بالتيّمم في حالة فقد الماء الطاهر أو شحته^(٤)، وللتيمّم اعتبارات معنوية أيضاً تؤكد وجوب الطهارة للصلاة.. وما يتعلق بنظافة الملبس فلها سبقٌ يقترن مع بدء الدعوة بمخاطبة رسوله ﷺ: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾ .. وأما ما يتعلق بنظافة المكان، فقد اعتبر كل مكانٍ طهورٍ من الأرض مسجداً^(٥) . غير أن ارتياد المساجد والجوامع وبيوت الله لها أفضلية ومزيد من الأجر لما لصلاة الجماعة من توثيق الأواصر^(٦) .

١- الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ١٣/٢

٢- السيوطي، الدر المنثور، ٤٤٢/٣.

٣- الحدث الأكبر: (الجنابة) يزول بالاعتسالة أو الاستحمام مع النيّة. تنظر المائدة/٦، النساء/٤٣

٤- الحدث الأصغر: يزول بالوضوء. تنظر المائدة/٦، النساء/٤٣.

٥- ينظر: البخاري، الصحيح، ١٢٨/١، حديث رقم ٣٢٧. ورقم ٣٢٨.

٦- روي أنّ صلاة الجماعة تفضل الصلاة على انفراد بسبع وعشرين درجة، وروي بخمس وعشرين.

ينظر: مالك، الموطأ، ١٢٩/١، حديث رقم ٢٨٨. ورقم ٢٨٩.. البخاري/ الصحيح، ١/٢٣٧ حديث

رقم ٦١٩.. مسلم، الصحيح، ٤٤٩/١، حديث رقم ٦٤٩.

انطلاقاً من تجاوب المآذن وتصادي نداءاتها تتشكّل حافات ودوائر شعاعية حول كلّ مسجد وجامع على سطح البسيطة، يرسمها تحرك المصلّين؛ استجابةً لنداء السماء يومياً؛ في كلّ وقت من أوقات الصلوات الخمس.. إنّها حركة هادفة وواعية، تتجلّى في التوجّه إلى المساجد والإقبال على الصلاة، لاسيّما في صلاة الجمعة؛ حيث تتجسّد الجمالية في دوائر شعاعية تلتئم وتتجمّع بتقاطر المصلّين إقبالاً على المركز الذي يمثله المسجد. وما تلبث هذه الدوائر - بعد انقضاء الصلاة - أن تتفرّق وتتباعد بحركة انتشارية/ مدبرة.

ويصوّر القرآن الكريم حركة سعي المصلّين إلى ذكر الله جل جلاله في حركة مقبلة؛ استجابة لنداء المؤذن يوم الجمعة. ثم حركة انتشارهم المدبرة بعد انقضاء الصلاة^(١).

التوجّه نحو القبلة في الصلاة: إنّ أنواع الصلوات^(٢) لا تصحّ أصلاً إلاّ بتوجّه المصلّي نحو «الكعبة» الشريفة، أينما كان المصلّي، وفي أي بقعة من بقاع الأرض، وهذا أمر شرعيّ قطعي^(٣). والمحاريب في المساجد توجّه المصلّي باتجاه القبلة، وكذلك الأهلة فوق المنائر.

لتوجّه المصلّين في العالم كافة نحو «الكعبة» الشريفة دلالات؛ منها تأكيد وحدة الهدف ووحدة جماعة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ لاسيّما في الجانب الفكري والعقائديّ متمثلاً في توحيدهم لله عز وجل.

﴿ قَدْ رَزَى نَفْلُكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

١- تنظر: الجمعة/٩، ١٠.

٢- الصلوات الخمس المكتوبة (الفرائض).. وصلاة الجمعة.. والسنن (الرواتب).. والعيدين.. والجنائز.. والشكر.. والخوف.. والاستسقاء.. والخسوف.. والكسوف.. والاستخارة.. وصلاة الضحى.. وتحية المسجد.

٣- (إلا في حالات استثنائية ذكرتها كتب الحديث والفقه، كحالة المسافر الراكب، والمريض المقعد). ينظر: ابن حبان، الصحيح، كتاب الصلاة، ٦/٢٦١ وما بعدها.

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴿١٤٤﴾
(البقرة/ ١٤٤).

«معنى (تقلّب وجهك) تحوّل وجهك إلى السماء.. وخصّ السماء إذ هي مختصة بتعظيم ما أضيف إليها ويعود منها»^(١). واستقبال القبلة (حركة متّجهة)، وهو «واحد من شرائط الصلاة»^(٢).

تعدُّ «الكعبة» المشرّفة مركزاً لما لا يُحصى من الدوائر المحيطيّة التي تتحدّ بمركزها تشكّلها صفوف المصلّين في العالم؛ في كلّ لحظة على سطح الكرة الأرضيّة.

تضيق هذه الدوائر (كما هو عليه الحال داخل «الحرم المكيّ» وما حوله)، وتتسع لتشمل العالم كلّهُ. وسواءً صلّى المسلمون جماعات أم فرادى فإنّهم يشكّلون دوائر محيطيّة؛ هي أشبه (بهالات الإيمان والذكر والتسبيح) التي تطوّق «الكعبة» الشريفة.

ويشكّل ملايين المسلمين في أقاصي الأرض دوائر محيطيّة كبيرة تتصاغر في حلقاتها كلّما اقتربنا نحو «الكعبة».. وعليه فإنّ أنصاف أقطار تلك الدوائر الكبيرة تتّجه نحو المركز (الكعبة).. أمّا محيطاتها المتحلّقة داخل بعض؛ فتتشكّل بهيئة؛ يمكن أن نشبّها بالموجات الدائريّة المتولّدة على سطح الماء نتيجة سقوط قطرات من الماء فيه لكنّها باتّجاه معاكس (من المحيط نحو المركز).. بحركة دوران الأرض حول محورها يتعاقب الليل والنهار على خطوط الطول فوق سطح الكرة الأرضيّة.. وحركة الأرض تُعرّف بـ «الحركة الدورانيّة»، وما على الأرض يدور معها؛ إنّ في كلّ لحظة هناك على سطح الأرض بقعة يكون عندها شروق.. وأخرى تتعامد أشعة الشمس عليها.. وأخرى يكون عندها غروب.. ومع الحركة الدورانيّة للأرض من الغرب إلى

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٥٨/٢.

٢- ينظر: أبو شجاع الأصفهاني، متن الغاية والتقريب، ص ٨٧.

الشرق تتعاقب البقاع التي يكون فيها شروق.. وكذلك التي تتعامد عليها أشعة الشمس.. وكذلك التي يكون فيها غروب:

﴿ فَلَا أَقِيمُ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَلْدِرُونَ ﴾ (المعارج / ٤٠). و (ربّ المشارق والمغارب) يعني مشارق الصيف والشتاء ومغاربها، وإنما جمع لاختلاف مشرق كل يوم ومغربه ^(١). « جُمِعَت المشارق في القرآن كالمغارب؛ إذ كثيراً ما يرتكب أمر لنكتة في مقام ولا يرتكب لها في مقام آخر وآخر أيضاً؛ وهو أنه لما كان اليمين عبارة عن جهة المشرق وهو مبدأ الظلّ وحده ^(٢). ففي كل لحظة تقام إحدى الصلوات الخمس في بقعة ما من سطح الأرض. وهذا يعني أنّ كل لحظة هناك وقت لصلاة الفجر في بقعة معينة.. وفي أخرى لصلاة الظهر.. وفي أخرى لصلاة العصر.. وفي أخرى لصلاة المغرب.. وفي أخرى لصلاة العشاء.. وهكذا تتزامن الصلوات الخمس بشكل مستمر؛ وتتوالى الأماكن التي تقام فيها كل صلاة منها بشكل دوريّ متناوب.. وعلى ذلك تتراكب منظومة الدوائر حول «الكعبة» مع دوران الأرض حول نفسها.. إنّ الصورة المتخيّلة لتداخل هاتين الحركتين (الدائريّة والدورانيّة) بشكل منتظم هي غاية في التناسق، بل هي مظهر من مظاهر جماليّة الصلاة التي تتسم بالجلال، لاسيّما إذا نُظِرَ إليها من حيث علاقتها بـ«الآن» / (الزمان) وبـ«الحيز» / (المكان) والتبادل الحاصل في وظائفهما، حيث يستحيل الزمان مكاناً؛ والمكان زماناً، والتحوّلات المتعاقبة بشكلٍ مطردٍ بالنسبة لدوران كلٍّ منهما.

الجانب المنظور من الصلاة:

حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا قمتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضوء، ثم استقبل القبلة، ثم كبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئنّ ركعاً، ثم ارفع، حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى

١- الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ٤٣٦/١.

٢- الآلوسي، روح المعاني، ١٥٦/١٤.

تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، ثم افعل ذلك في صلاتك كلها^(١). والصلاة في مظهرها الخارجي منظورٌ زمني، وهيئاتها تُحكَم بتغيير متعاقب على التدرج؛ ما بين القيام.. والركوع.. والسجود.. والجلوس؛ وللشاهد.. وتكمن جماليتها في اتزان حركاتها الموقّعة؛ وفي دلالة كل حركة منها. مع المفارقة المتمثلة في التقابل الحركي بين القيام والجلوس؛ وبين الركوع والسجود.. ويبدو ذلك جلياً لاسيما في صلاة الجماعة.. الحركة في الصلاة حركة «موضعية» و«وضعية» في الوقت نفسه. فأما كونها «موضعية»: فمن حيث أنها تجري في مكان محدد لا يحيد الجسم عنه.. وأما كونها «وضعية»: فلأنها تسمح بتغيير الأوضاع على التدرج بتحريك الأعضاء عندما يستقر الجسم بثبات في الحيّز.. والانتفات في الصلاة منهي عنه.. وتبطل الصلاة بالحركة الأينية (الانتقالية) - إلا في حدود المسموح به - لأنها تحوّل دون الخشوع. إن الصلاة صلة بين العبد وربّه، والحركة الخارجة عما تتطلبه الصلاة تقطع ذلك التواصل!

جمالية الصفوف المرصوفة :

من جماليات حضور المساجد وصلاة الجماعة رص الصفوف في صلاة الجماعة؛ كل صف على استقامة واحدة؛ هو من تمام الصلاة^(٢). وبالرغم من المظهر السكوني البادي على الصف؛ حيث السكينة والخشوع، فإن المصلين يشعرون من خلال الصف بالمساواة الاجتماعية؛ وبأن للصلاة امتدادات خارج المسجد؛ تتمثل في الاستقامة الخلقية في المعاملات والسلوك.. وفي العدالة.. والتكافل الاجتماعي وتوحيد الكلمة وهي من قيم الفضيلة.. وبالمقابل فإن الصلاة تنهى عن الرذيلة (الفحشاء والمنكر والبغى)^(٣). وللصف الأول ميزة وأفضلية لما له من معاني الحرص وتعلق

١- البخاري، الصحيح ٢٣٠٧/٥ رقم ٥٨٩٧. و ٦٢٩٠/٦ رقم ٢٤٥٥. ومسلم، الصحيح ٢٩٨/١ رقم

٣٩٧. وانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١/١٧١، ١٧٠.

٢- في وجوب تسوية الصفوف ينظر: أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، ١/١٧٨، رقم ٦٦٢.

٣- تنظر: العنكبوت/٤٥.

القلب بالمساجد: (رأى رسول الله ﷺ في الصف المُقَدَّم رَفَّةً؛ فقال: إِنَّ اللَّهَ وملائكته يصلون على الصفوف الأول. فازدحم الناس) (١).

إنَّ لمشهد صفوف المصلين المترابطة جماليَّة لها خصوصيَّتها في جماليَّات العبادة في الإسلام. هذه الجماليَّة لا تقتصر على الوضع السكوني في هيئات الصلاة فحسب.. بل تبدو جماليَّته أيضاً، وبشكل مباشر، في التناسق الحركي الجماعي من وُضِع إلى آخر؛ ومن هيئة إلى أخرى؛ أي: من قيام إلى ركوع.. ومن ركوع إلى اعتدال.. ومن اعتدال إلى سجود.. ومن سجود إلى جلوس.. إنَّ لمجموع هذه الحركات الجماعيَّة إيقاعات منسجمة ومتناسقة؛ يُلاحظ جمالها المُشاهد عن كثب.. وأبدعها منظرًا الصلاة في الحرم المكي؛ حيث تستدير مئات الصفوف المتتالية حول «الكعبة» المُشرَّفة، ممَّا يبعث في النفس السرور والانشراح لما تعكس حركات المُؤتمين من قيم الجمال والجلال.. فضلاً عمَّا يبعثه المُشهد في القلب من رهبة وجمال!

تكبيرة الإحرام :

تشكَّل تكبيرة الإحرام حركة صاعدة تنهض بها اليدين برفعهما حدَّو المنكبين (٢)، ولعلَّ في ذلك إشارة اعترافيَّة بسموِّ الله جل جلاله العليُّ الأعلى (٣). ومع لفظ التكبيرة (الله أكبر) تتصاغر في مخيِّلة المصلي كلِّ الكائنات؛ وهو بضمنها، فالله جل جلاله الكبير المتعالي والعظيم صاحب العظمة المتفرد بها (٤).. بدخول المصلي إلى الصلاة؛ يشعر بانقطاعه عن العالم الخارجي. ومع هبوط اليدين بحركة نازلة يشعر المصلي بخضوعه لله جل جلاله.. إنَّ حركة البدء (تكبيرة الإحرام) تفيض بالحويَّة والطمأنينة..

١- السيوطي، أسباب ورود الحديث، باب الصلاة، ١/١٠٨.

٢- ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، كتاب: صلاة، باب رفع اليدين في التكبيرة الأولى، ١/٢٥٧.

٣- تنظر: الأعلى، ١/الليل، ٢٠، لقمان، ٣٠، البقرة، ٢٥٥/الحج، ٦٢، (سبأ)، ٢٢، الرعد، ٩.

الإسراء، ٤٣، وانظر: طه، ١١٤، النمل، ٦٣.

٤- تنظر: الحديد، ٣، البقرة، ٢٥٥.

وبالجلال والجمال؛ وبذلك تضي على عموم هيئة الصلاة جمالية حركية ونفسية (وبخاصة في صلاة الجماعة)، حيث ترتفع كل الأيدي مرة واحدة ينسق الصفوف المرصوفة بعد الإمام؛ مما يؤكد على المظهر القيادي للإمام في الأمام؛ والضبط المنتظم لاستجابة المؤتمين وراءه. وتتوالى الحركات الجماعية.. وهنا تعكس جماليات الحركة قيماً عديدة؛ منها: الانسجام والتوحد والقوة، وفي ذلك ملامح من الجمال متضافرة بأخرى من الجلال تضافر السداة مع اللحمة في نسيج هيئات الصلاة وحركاتها؛ ومن هنا كان التأكيد على صلاة الجماعة بصفقتها سنة مؤكدة وبمضاعفة أجرها سبعة وعشرين ضعفاً (وفي رواية: خمسة وعشرين) ^(١).. وانتقال المصلي من حالة الاعتدال من الركوع إلى حالة السجود بحركة هابطة تمتاز بالتسارع؛ وفي ذلك دلالة متميزة على استجابة المصلي في خضوعه لله جل جلاله ^(٢).

وما بين تكبيرة الإحرام والتسليم يتوالى القيام والركوع والسجود والجلوس للشهد.

وكما أن الصلاة تبدأ بتكبيرة الإحرام مع الاطمئنان؛ فإنها تنتهي بالتسليم مع السكينة ^(٣). ويمتد الخشوع بين ما منه البدء (تكبيرة الإحرام) وما إليه المنتهى (التسليم) ^(٤).. يشكل التسليم حركة وضعية على الاستدارة الجانبية متمثلة بالنفاتة الرأس إلى اليمين على سبيل التدرج، تعقبها ثانية مثلها إلى الشمال، وهما ثرتان بالجمال والجلال في أن.. إن التسليم الجماعي بلغت الوجوه إلى اليمين فالشمال عند ختام الصلاة والخروج منها ملمح جمالي رائع بتزامن الإيقاعي وانسجامه الحركي، حيث تستدير كل الرؤوس برقة ورفق في نسق إيقاعي متوحد يشعر الجماعة بوحدتها وتالفها.

١- ينظر: مالك بن أنس، الموطأ، كتاب صلاة الجماعة، ١/ ١٢٩، رقم الحديث: ٢٨٨ و ٢٨٩.

٢- تنظر: الإسراء/ ١٠٧، مريم/ ٥٨.

٣- تنظر: النساء/ ١٠٣.

٤- تنظر: المؤمنون/ ٢٠١.

حركة السجود لله جل جلاله :

الفعل «سَجَدَ» بمعنى خضع، ومنه سجود الصلاة، وهو وضع الجبهة على الأرض. والاسم منه: السَّجْدَةُ.. وسورة « السجدة » « بفتح السين المشددة.. والمسجد والسجادة معروفان^(١).. وقد وردت مادة «س ج د» في القرآن الكريم (٩٤) مرّة^(٢).

وتتجلى حركة السجود في حالتَي: الفعل «سَجَدَ» / والوصف المشتق «ساجد»، غير أنها في الفعل أقوى وأوضح منها في المشتقات، لأن الفعل يدل على حدث (حركة)، بينما الوصف المشتق هو اسم (أي: صورة) متّصف بالحدث.. ونجد الحديث عن السجود في المجموعة الفعلية: سجود المخلوقات للخالق جل جلاله^(٣).. سجود الملائكة لآدم^(٤).. سجود البشر للشمس والقمر^(٥).. والملاحظ على آيات السجود أنها تحمل خطاباً مباشراً يغلب عليه الأسلوب الخبري.. ثم الأمر.. والسجود في الصلاة حياة تؤكّد على خضوع العبد لله جل جلاله؛ بأن يهوي المصلي من وضع القيام والاعتدال إلى الأرض، بحركة هابطة تترجم معاني التضائل البشري في حضرة العظمة الإلهية، وهو إقرار بالتصاغر المقترن بلفظ التكبير (الله أكبر).. ووضع السجود مع التكبير يشكّل تضاداً يشي باليون الشاسع بين الربوبية والعبودية بالرغم من التقارب الشديد بين العبد وربّه في هذه الحالة.

١- ينظر: الرازي، مختار الصحاح، مادة (س ج د) ص ٢٨٦.

٢- منها (٣٥) مرّة بصيغة فعلية. والبقية وردت: اسم مكان.. ومصدرًا.. واسم فاعل.

- ينظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ٣٤٤، ٣٤٥.

٣- تنظر: الفرقان / ٦٠، الرعد / ١٥، النحل / ٤٩، الحج / ١٨، الرحمن / ٦، النمل / ٢٥، آل عمران / ٤٣، ١٢.

الأعراف / ٢٠٦، الانشقاق / ٢١، الإنسان / ٢٦، العلق / ١٩، فصلت / ٢٧، النجم / ٦٢.

٤- تنظر: الحجر / ٣٢، ص / ٧٣، البقرة / ٢٤، النساء / ١٠٢، الأعراف / ١٢، الإسراء / ٦١، الكهف / ٥٠، طه / ١١٦، ص / ٧٥.

٥- تنظر: النمل / ٢٤، فصلت / ٢٧.

لوحة سجود الضلال:

من مشاهد القرآن الكريم التي تجمع بين الحركة والجمال قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوُا ظِلُّهُ، عَنِ الِّمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ (النحل/٤٨). « وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة، (وظلالهم بالغدو والآصال) أي: ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تبيّن في هذين الوقتين، وتميل من ناحية وذلك تصريح الله إيّاها على ما يشاء.. وفي الصورة تشخيص للظلال وأنسنتها، إذ جعل لها عقولاً تسجد بها وتخضع بها.. مع أنّ الظلال آثار وأعراض ولا يتصور تقدير الحياة لها. وسجود الضلال ميلها من جانب إلى جانب»^(١).

تقلب الرسول ﷺ في الساجدين :

التقلب مظهر آخر من المظاهر التي توحى بالحركة الجانبية. ونشير هنا إلى تقلب رسول الله ﷺ في الساجدين:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنَكَ مِن تَحْتِ الْقَوْمِ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبَكَ فِي السَّجِدِينَ ﴾ (الشعراء/ ٢١٧، ٢١٩). وذلك راجع إلى إتقان العبادة واستحضار عظمة الله وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار، وهو المراد بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)^(٢).. ولعل النبي ﷺ أشار إلى هذه الحالة بقوله (وجعلت قرة عيني في الصلاة)^(٣).

(وتقلبك في الساجدين) «قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه»^(٤). أي: أن الله تعالى يراك حين تقوم بين المصلين في حالة الوقوف كما يراك في

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٣٠٢/٩.

٢- البخاري، الصحيح ٢٧/١، رقم الحديث ٥٠.. ومسلم، الصحيح، ٢٦/١، رقم الحديث ٨. وانظر: القرطبي، المصدر السابق، ١٦٧/١٠.

٣- النسائي، السنن ٦١/٧، رقم ٣٩٣٩ و٣٩٤٠.. والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٦٧/١٠.

٤- السيوطي، الدر المنثور، ٢٣٠/٦.

حالتى الركوع والسجود فضلاً عن حالة الجلوس. وهذا من باب الإيجاز البلاغي؛ حيث عبّر بـ «التقلب» عن عدد من الحركات والهيئات والأوضاع الحركية التي تقتضيها الصلاة في الإسلام.

إنّ صفة العلوّ بصيغة «أفعل / أعلى» المعرفة المقترنة بتسييح الله تعالى في السجود «سبحان ربّي الأعلى» بتزامنها مع هيئة سجود المصلي تشكل ثنائية (العالي / الداني) .. وصفة «العلو» بالنسبة لله تعالى يجب أن تفهم وفق التصور الإسلامي السليم. ولقد ترجمت البلاغة القرآنية هذا التقارب بين: (الله / والإنسان)، بين (المتعالي / والمتداني) بالتعبير الموجز والمباشر من خلال فعل السجود دونما تصوير مجازي أو زخرفة تاطيرية. وفي هذا الإيجاز يتجلّى جانب من جوانب جماليات النصّ القرآني .. وعليه .. فحينما يدرك الساجد ضالة حجمه؛ يدرك عظّمة الخالق جل جلاله.

وهكذا تتمخّض حركة هبوط المصلي المنتهية بوضع السجود في الصلاة عن خضوع الذات لخالقها، وهو ممارسة لتأكيد عبودية الإنسان لله جل جلاله عملياً .. اختزال المسافة بين العبد وربّه، ممّا يحفز العبد على مزيد من الدعاء لهيئة أسباب الاستجابة .. مفهوم المسافة في السجود مفهوم «معنوي / عقائدي» لا يخضع للمقاييس الماديّة / المكانيّة . فيقدّر ما يعترف العبد بعلوّ قدر الله جل جلاله (الأعلى / الأكثر علوّاً من جميع المخلوقات)؛ تتقارب المسافة المعنوية بينهما:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ ﴾
(البقرة / ١٨٦).

لا بدّ أن ينعكس هذا الإحساس السجودي في الصلاة إلى سلوك خارجها؛ في دائرة الحياة اليومية، وعنه تنبثق أخلاقيّة المسلم في تعامله مع النفس في المساءلات والمحاسبات .. ومع الآخرين في العلاقات والمعاملات .. ومع الله جل جلاله في الطاعات والعبادات.

في الصلاة نكتب اسم الله بأجسامنا:

تتشكّل الركعة في الصلاة من مقاطع حركيّة جزئيّة في منظومة؛ يمكن أن نخرّجها على أنّها في مجملها تشكّل تجرديّ يوحي برسم لفظ الجلالة «الله».

فحالة القيام ترسم شكل الألف.. وحالة الركوع ترسم شكل اللامين.. وحالة السجود ترسم شكل الهاء.. فإن صحّ هذا التخريج؛ أو إن امتلك من الإقناع ما تطمئنّ له المخيِّلة (مع مراعاة التجريد). فإنّ هذا التصرُّو لحركات الصلاة يضيف تفسيراً جديداً إلى تعبيرية الصلاة وجماليّاتها ربّما كان غائباً عن الأذهان.

٤ - جمالية الحركة في الحجّ

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٦) فِيهِ
ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا قَامَ إِبْرَاهِيمٌ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ
اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿ (آل عمران / ٩٦ - ٩٧).

الحجّ أحد أركان الإسلام الخمسة، وهو أن يقصد المسلم «مكة» لأداء المناسك والشعائر^(١) استجابة لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته^(٢). ومن شروط وجوب الحجّ البلوغ والاستطاعة، ويفهم من الاستطاعة صحّة البدن والقدرة على تحمّل مشاقّ السفر، وتوفيرّ الزاد والراحلة؛ سواءً في البرّ أم البحر أم الجو. وذلك لأنّ الحجّ عبادة تتطلّب السفر الشاقّ وقطع المسافات الطويلة: ﴿ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحجّ/ ٢٧). وإنّما أكّدنا على الاستطاعة والقدرة لأنّ الجانب الحركيّ في أداء مناسك الحجّ يتطلّبهما. وبما أنّ للحجّ موسماً معروفاً (المواقيت الزمانيّة)^(٣)، ومكاناً مقصوداً (مكة

١- ينظر: البيضاوي، تفسيره، ٢٩٠/٢.

٢- ينظر: السيّد سابق، فقه السنّة، ١/٦٢٥.

٣- أشهر الحجّ: شوال، ذوالقعدة، ذوالحجة (أو عشر منه). تنظر: البقرة/١٩٧، ١٨٩.

المكرّمة) التي يُحرّم الحجيج إليها من (المواقيت المكانية) ^(١)، فإنّ المنظومة الحركية المنفّذة لأفعال الحجّ وأداء مناسكه تملك من المقومات القصدية.. والزمانية ما يهبها صفة التكامل الفعّال في ترسيخ الاقتناع بالانتماء إلى العقيدة السمحاء؛ التي يشكّل الحجّ أحد أركانها.

فإذا أضفنا هذه القيم الاعتبارية إلى التشكيل الحركي لإقبال الحجيج (من كلّ فج عميق).. فإننا سنقف أمام لوحة بشرية تشكّل كتلة هائلة فيها من جماليّات الحركة ما تؤكّده أخلاقيّات المناسك، حيث ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة/١٩٧)، ممّا يخفّف من عناء الزحمة؛ وينظّم تحرّكات الكثافة البشرية الهائلة..

القدم:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (الحج/٢٧).

يشكّل توجّه الحجيج إلى مكة المكرمة من كلّ أطراف المعمورة مسارات شعاعية متّجهة نحو مكة، وهي بذلك تتخلّق في دوائر تستوعب محيط الكرة الأرضية، وتتصاغر حلقاتها لتتمركز حول الكعبة المشرفة محيطة بها. وهذا التحرك الضخم على سطح الكرة الأرضية يتكرّر كلّ سنة بشكل منتظم فيسم الإسلام بجمالية حركية لا نظير لها، وعلى مدى الأزمان!.

قوله تعالى (يأتوك رجالاً) جمع راجل، وفي جمع راجل..وقدم الرجال على الركبان في الذكر لزيادة تعبه في المشي. وقوله تعالى (وعلى كل ضامر يأتين) الضامر البعير المهزول الذي أتعبه السفر، فوصفها الله تعالى بالمال الذي انتهت عليه إلى مكة، وذكر سبب الضمور، أي: أثر فيها طول السفر. وردّ الضمير إلى الإبل (يأتين) تكرمة لها لقصدتها الحجّ مع أربابها ^(٢).

١- الأماكن التي يُحرّم منها الحجيج والمُتمرون، ولا يجوز لأحدهما أن يتجاوزهما دونما إحرام.

٢- ينظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٢٩/١٢.

الطواف:

الطواف حول الكعبة أنواع: طواف القدوم.. وطواف الإفاضة.. وطواف الوداع.. وطواف التطوع. وللطواف تشكيله الحركي الدوراني، وله جماليته الحسيّة؛ والمرثية منها بالذات، وله جماليته الروحية وهي الأروع.. فأما كيفية الطواف فيبدأ الطائف مُحاذياً الحجر الأسود مُستلماً أو مُشيراً جاعلاً البيت على يساره، ويدور بعكس عقرب الساعة مُرملاً إن أمكنه الرمل، ويُتمّ في طوافه سبعة أشواط. ثمّ يصلي ركعتين عند المقام^(١). إذا كان (طواف القدوم) يشكّل الحلقة الأولى من مسارات الحجّج.. فإنّ (طواف الإفاضة) أي: طواف الزيارة يوم النحر (وهو ركن من أركان الحجّ) يشكّل الحلقة الوسطية التي تربط الحلقتين الأولى والثالثة. ونقصد بالحلقة الثالثة (طواف الوداع) وهو من واجبات الحجّ. وأمّا الجوانب الجمالية في الطواف؛ فتبدو في مشهد الجموع الوفيرة من الحجّج رجالاً وهم يرتدون ثياب الإحرام البيضاء، والنساء يظفن معهم من حول الكعبة. ويلتقي الجمال بالتشكيل الحركي في تطهير المسجد للطائفين والعاكفين والركع السجود، وينبثق جمال المسجد الحرام من الآيات التي فيه لتشكل جمالية روحية متيّزة، حيث الخشوع والتقرّب إلى الله تبارك وتعالى.

وفي الوقت الذي تأخذ الحركة في الطواف شكلاً دائرياً؛ فإنّ حركة السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط أيضاً تأخذ شكلاً مستقيماً ذهاباً وإياباً، مع تسارع حيناً وتباطؤ حيناً آخر.

الوقوف بعرفة:

يمكن أن يُحتسب الوقوف بعرفة في مقابل المظهر الحركي. ومع ذلك فإنّ تجمهر الحجّج فوق «جبل الرحمة» ومن حوله في الامتدادات الواسعة متشحة ببياض ثياب الإحرام يشكّل مشهداً رائعاً في تقويم جمالية المرثيات

١- ينظر: السيد سابق، فقه السنّة، ١/٦٩٢، ٦٩٦.

المكانية الواسعة.. إن الإفاضة^(١) برفق وسكينة مع التلبية والتهليل والتكبير من «عرفة» بعد غروب الشمس إلى «المزدلفة»^(٢) للمبيت فيها تشكل تحركاً لكل بشرية غاية في الجلال والجمال:

الإفاضة:

﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ ﴾ (البقرة/ ١٩٨).

ويتوالى الرمي، ثم الذبح والحلق أو التقصير، ثم الطواف بالبيت فالتحلل.. والمبيت بمنى.

وقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (الحج/ ٢٩).

« قوله تعالى (ثم ليقضوا تفثهم) أي: ثم ليقضوا بعد نحر الضحايا والهدايا ما بقي عليهم من أمر الحج كالحلق ورمي الجمار وإزالة شعث ونحوه.. وقيل التفت مناسك الحج كلها^(٣). وقيل: « التفت: نتف الشعر وقص الأظفار وتكّب كل ما يحرم على المحرم وكأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال»^(٤). وقوله تعالى (وليطّوفوا بالبيت العتيق) الطواف المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج^(٥).

١- أفضتم: دفعتم بكثرة أو نقرتم «ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٤/٤١٥.

٢- «المشعر الحرام» هو: مزدلفة.. والمشعر: العَلَم المتعبد من متعبداته وجمعه مشاعر، ينظر: الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ١/١٢٤.

٣- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ١٢/٤٩.

٤- ابن منظور، لسان العرب ٢/١٢٠.

٥- القرطبي، المصدر السابق، ١٢/٥٠.

وبعد طواف الوداع، ينطلق الحجاج إلى كلِّ وجهٍ مودِّعينٍ مغادرين إلى ديارهم، لترسم لوحة الوداع. فالانصراف يتمُّ في كلِّ وجهٍ على هيئة خطوط شعاعيَّةٍ إلى أنحاء المعمورة برّاً وبحراً وجوّاً.

الخاتمة

ونحن ندرك خاتمة مطاف هذه الرسالة بحمد الله تعالى وتوفيقه،
نستطيع استعراض النتائج التي توصل إليها البحث، وأهمّها:

- القرآن ليس كتاب علم محض؛ لكنّ فيه إشارات علميّة معجزة. كما
أنّ القرآن ليس كتاب أدب محض، ومع هذا كان أسلوبه المعجز سبباً لوجود
علوم كثيرة، كالنحو والبلاغة، ومع هذا فالقرآن الكريم هو كتاب هداية
ودعوة إلى الإيمان الحقّ.

- تشخيص العديد من الظواهر والمظاهر الطبيعيّة من خلال الاستعارة
البيانيّة ومنحها سمة الحياة لتدبّ فيها الحركة، والتعدّيّة منها بخاصّة..
فالنجم والشجر يسجدان لله تبارك وتعالى، وإن كلّ شيء من مخلوقات الله
يسبّح بحمد الله تعالى. إنّ منح العناصر غير الحية صفة الحياة والإدراك
والحركة يجعلها قريبة من الإنسان ليُحسن التعامل والتعاطف معها.

- قد تكون الحركة مصرحاً بها بشكل مباشر، وقد يعبر عنها بشكل غير
مباشر كمُدّ الظلّ المُعبّر عن حركة الشمس وتعاقب لحظات الزمان. وتظهر
ملامح هذه الظاهرة من خلال الكناية البيانيّة أو التعريض أو المجاز؛
لا سيّما في السياقات التي تتطلّب الإيجاز.

- وقفت الدراسة على العديد من أنواع الحركة ومجالاتها في الخطاب
القرآني، منها: الحركة الصاعدة والحركة الهابطة، والحركة المقبلة
والحركة المدبرة، والحركة الجانبية والحركة الانتشارية والحركة الموجية،
والحركة المتكررة والحركة الانسيابية، والحركة السمعية والحركة
البصرية، وغيرها...

- تتجسّد الحركة بأنواعها وأتجاهاتها من خلال الأفعال اللغويّة بصورة
مباشرة. في حين يرسم الاسم صورة لكائن أو معنى، فإذا اقترن هذا بذاك

تشكّلت لدينا صور توحى بالحركة.

- يمكننا أن نطمئن إلى مقولة: إنّ الجمال يعني الحياة، والحياة تعني الحركة، وبالتالي يصحّ أن نستنتج أنّ الجمال كامنٌ في الحركة؛ إن لم نقل إنّ الجمال هو الحركة ذاتها.

- يُستدلّ من الآية التي تصوّر أفعال الناس أنّ الرزق، وإن كان محتومًا، فإنّ الله تعالى قد وكلّ ابن آدم إلى السعي والمشى في مناكب الأرض للحصول على الرزق، وهذا يعني أنّ الإسلام دين حركة وعمل.

- تلاحظ الحركة، لا سيّما ذات الإيقاع السريع، بشكل أوضح في السور المكيّة؛ لأنها في الغالب تتميز بعبارات قصيرة منتهية بفواصل ذات وقع ورنين.

- تتعدى صور الحركة العالم الحسيّ / المادّي إلى آفاق العالم الروحيّ، وتتجاوز عالم الشهادة إلى عالم الغيب. وكما أنّ للحركة أوجهها الجماليّة في مشاهد الجنّة، فإنّ لها أوجهًا تصوّر قبح العذاب في مشاهد الجحيم.

- إن الحركة في القرآن الكريم أكدت على اقتران الإيمان بالعمل الصالح؛ فهي أخلاقية هادفة، ملتزمة ومسؤولة.

- للعبادة في الإسلام أبعاد حركيّة بادية من خلال الأركان الخمسة: في الصلاة وفي الحجّ بشكل مباشر.

- دراسة الحركة توجه الإنسان إلى أن يكون واقعيًا، يحسب للزمان حساباته؛ لأنّ العمر مكتوب، والأعمال تُحصى على الإنسان.

- ففي الزمان والحركة: تنظيم لحياة المسلم، فللصلاة أوقاتها التي تنظّم اليوم.. وللشعائر مواسمها ومواقيتها الدورية كالحجّ والصيام؛ وهو ما يوجب على المسلم أن يعي غاية وجوده.

- الحركة الكونيّة منحت المسلم رؤية شموليّة، ليس فقط في رصده

لظواهر الكونيّة، وإنّما في كل سلوكه تجاه البيئّة والمجتمع.

- الإنسان العربيّ قبل الإسلام كان يعيش حياة رتيبة متكرّرة يخيم عليها ظلُّ السكون، وتفجّرت حركيته مع انبعاث الرسالة المحمّديّة؛ حيث توسّعت أفاق تفكيره في الحياة والموت، في الكون والوجود، فأصبحت للحياة غاية مهمّة وسامية، تتمحور حول عقيدة التوحيد. وما الفتوح الإسلاميّة إلا مظهر عمليّ على تحرّك الإنسان العربيّ لاجتثاث الشر والباطل والقبح، وغرس قيم الإيمان والفضيلة خارج الجزيرة.

- في إطار الجماليّة الإسلاميّة نجد توحّد المجتمعات في ظلّ التوحيد الإلهيّ، فقد غدا المسلمون أمة واحدة توحّد الله تبارك وتعالى، وتتوجّه في الصلاة إلى قبلة واحدة أينما كانوا وحيثما أقاموا.

- الحركة دائبة في الدرّة كما هي دائبة في المجرّة. وقد بين البحث أنّ الحركة، عموماً، هادفة لا مكان للصدفة في هذا التنظيم الحركيّ الدقيق الذي يخضع للمشيئة الإلهيّة والتقدير الربّانيّ أولاً وآخراً.

- الحياة في المنظور الإنسانيّ وسيلة محدّدة لغاية دائمة؛ فهي طريق للأخرة، ومن هنا وجب على الإنسان المسلم أن يعتني بهذا الطريق ليصل إلى غايته بسلامة وأمان.

- الحركة نعمة من نعم الله؛ لأن النظام الكوني لو كان ساكناً لما وجدت الحياة على الأرض، ولو كان هذا النظام مختلاً، ولو بأقلّ القليل، لتغيّرت طبيعة الحياة على سطح الأرض.

- أظهر البحث مسألة القوامة، فلا إفراط ولا تقريط في علاقة الإنسان بالإنسان، وبالطبيعة من حوله. فلم يجعل المسلم منها آلهة، ولا ناصبها العداة.. فالجميع يسبح باسم الله تعالى ويدين بالولاء لله تبارك وتعالى.

- أشار البحث إلى أنّ قيام الساعة ليس لغاية انتقاميّة، وإنّما للحدّ من

حركية الكون والوجود، حسب ما قدر الله تعالى؛ لأنَّ تحرَّكه ليس أبدياً، وكذلك فإنَّ للحياة في هذا الكون أجلاً مسمّى، لأجل إجراء الحساب والجزاء. فالقيامة ليست انتقاماً من الكائنات، ولا عقاباً للبشر؛ وإنما هي استجابة لمشيئة غائية وقصدية عادلة.

- بما أنَّ في الوجود حركة كليّة، فإنَّ حركة أجزائه وعناصره لا تكون بمعزل عن عموم حركة الكون، وعن حركة بعضها بالنسبة للبعض الآخر؛ في منظومة متكاملة.

- وجد البحث أنَّ العلم الحديث قد اكتشف كثيراً ممَّا أثبتته القرآن الكريم.. وكان للقرآن قصب السبق في الإعلان عن تلك الحقائق العلمية.. غير أنَّ الأجيال السابقة لم تتقف على ما قد أشار إليه القرآن الكريم في تلك المجالات؛ وهو ما يدلُّ على استمرار عطاء القرآن للأجيال المتعاقبة على مدى الزمان، كلَّ جيل حسب قدراته الاستيعابية، فهو دائماً يقدم الجديد.

- ظاهرة التوازن في المنظور القرآنيّ تعكس العدل الإلهي، فكلُّ شيء موزون منذ أن رفع الله سبحانه السماء ووضع الميزان؛ الميزان الذي هو رمز للأمام الحركية المنتظمة والمتناسقة في الحياة.. والله قد خلق كلَّ شيء بقدر، وسنَّ لكلَّ شيء طريقته الوظيفية في الوجود والحياة.

- تقرُّ علوم التشريح والفلسفة والطب الرياضي والتربية الحركية أنَّ الأذن الداخلية تحتوي على مراكز التوازن الحركي للإنسان، فالأصمُّ أقلُّ قدرة في السيطرة على توازنه من الأعمى، والأعمى أقلُّ قدرة على الاحتفاظ بتوازنه ممَّن يتمتع بنعمتي السمع والبصر، وهذا يفسِّر لنا مسألتين:

- المسألة الأولى: مفادها أنَّ القرآن الكريم نقل مفهوم التوازن الحركي من حقل الدلالة الجسدية (الفلسفية) إلى حقل الدلالة الفكرية (العقدية) عن طريق المجاز اللغوي (البلاغي)، وبذلك جرد الكفار والمشركين من آية التوازن حينما وصفهم بالصُّمِّ والبُعْمى؛ فهم لا يمتلكون القدرة على مجاوزة

المهابط أو تجنّب السقوط.

-المسألة الثانية: مفادها أنّ الحقيقة العلميّة المذكورة أنّها توضح لنا سبب تقدّم السمع على البصر حيثما اقترن فعلاهما في القرآن الكريم.. والله تعالى أعلم.

- القاعدة الفيزيائية تقرُّ بأنّ الجسم يؤوّل إلى السقوط إذا خرج مركز ثقله عن قاعدته.. والتربية الحركيّة تؤكّد على أنّ مركز ثقل الإنسان في أخصّ قدميه.. والقرآن الكريم في عدد من الآيات يصف حالة الكفّار وهيئة المرتدّين بالنكوص والارتداد أو الانقلاب على الأعقاب. أي: أنّ القرآن الكريم يحيل هذه الحقيقة العلميّة -وله السبق في الإشارة إليها- بمجاز ينقل الدلالة من حقلها (المادّي/ الجسماني) إلى حقل (فكريّ/ عقديّ). وبذلك يقيم الحجّة، بمنطق علميّ دقيق وإطار جماليّ بليغ، على أنّ الكافر والمرتدّ يؤوّلان إلى السقوط (المعنويّ) بفقد التوازن والانقلاب على الأعقاب.

هذا ما يسّر الله لنا أن نوردّه في هذه الخلاصة، وعلى الله قصد السبيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.



- ١- الشهود الحضاري للأمة الوسط في عصر العولمة.
د. عبد العزيز برغوث. _____
- ٢- عينان مطفأتان وقلب بصير (رواية).
د. عبد الله الطنطاوي. _____
- ٣- دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية.
د. محمد إقبال عروي. _____
- ٤- إشكالية المنهج في استثمار السنة النبوية.
د. الطيب برغوث. _____
- ٥- ظلال وارفة (مجموعة قصصية) .
د. سعاد الناصر (أم سلمى). _____
- ٦- قراءات معرفية في الفكر الأصولي.
د. مصطفى قطب سانو. _____
- ٧- من قضايا الإسلام والإعلام بالغرب.
د. عبد الكريم بوفرة. _____
- ٨- الخط العربي وحدود المصطلح الفني.
د. إدهام محمد حنش. _____
- ٩- الاختيار الفقهي وإشكالية تجديد الفقه الإسلامي.
د. محمود النجيري. _____

- ١٠- ملامح تطبيقية في منهج الإسلام الحضاري.
- د. محمد كمال حسن.
- ١١- العمران والبنيان في منظور الإسلام.
- د. يحيى وزيري.
- ١٢- تأمل واعتبار: قراءة في حكايات أندلسية.
- د. عبد الرحمن الحجى.
- ١٣- ومنها تتفجر الأنهار (ديوان شعر).
- الشاعرة أمينة المريني.
- ١٤- الطريق... من هنا.
- الشيخ محمد الغزالي
- ١٥- خطاب الحداثة: قراءة نقدية.
- د. حميد سمير
- ١٦- العودة إلى الصفصاف (مجموعة قصصية لليافعين).
- فريد محمد معوض
- ١٧- ارتسامات في بناء الذات.
- د. محمد بن إبراهيم الحمد
- ١٨- هو وهي: قصة الرجل والمرأة في القرآن الكريم.
- د. عودة خليل أبو عودة

١٩- التصرفات المالية للمرأة في الفقه الإسلامي.

_____ د. ثرية أقصري

٢٠- إشكالية تأصيل الرؤية الإسلامية في النقد والإبداع.

_____ د. عمر أحمد بوقرورة

٢١- ملامح الرؤية الوسطية في المنهج الفقهي.

_____ د. أبو أمامة نوار بن الشلي

٢٢- أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة.

_____ د. حلمي محمد القاعود

٢٣- جسور التواصل الحضاري بين العالم الإسلامي واليابان.

_____ أ. د. سمير عبد الحميد نوح

٢٤- الكليات الأساسية للشريعة الإسلامية.

_____ د. أحمد الريسوني

٢٥- المرتكزات البيانية في فهم النصوص الشرعية.

_____ د. نجم الدين قادر كريم الزنكي

٢٦- معالم منهجية في تأصيل مفهوم الأدب الإسلامي.

_____ د. حسن الأمراني

_____ د. محمد إقبال عروي

٢٧- إمام الحكمة (رواية).

_____ الروائي/ عبد الباقي يوسف

٢٨- بناء اقتصاديات الأسرة على قيم الاقتصاد الإسلامي.

أ.د. عبد الحميد محمود البعلي _____

٢٩- إنما أنت... بلسم (ديوان شعر).

الشاعر محمود مفلح _____

٣٠- نظرية العقد في الشريعة الإسلامية.

د. محمد الحبيب التجكاني _____

٣١- محمد ﷺ ملهم الشعراء

أ. طلال العامر _____

٣٢- نحو تربية مالية أسرية راشدة.

د. أشرف محمد دوابه _____

٣٣- جماليات تصوير الحركة في القرآن الكريم.

د. حكمت صالح

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

... وهناك حركة الكون، والآيات التي تتحدث عن الحركة الكونية كثيرة في القرآن الكريم، سباحة الأجرام السماوية في أفلاكها، كما تبدو للعيان من خلال الكون المنظور، فيها من عناصر الجمال والتنسيق والاتزان ما تتجلى فيه قدرة الباري. لقد تبين لنا أن الوجود منضبط بحركة فاعلة.. ومتفاعلة.. متطورة.. ومتجددة.. ومتجهة... ولحركة الحياة محرّكها، وأسبابها، وغايتها، فهي ليست حركة عابثة ولا عشوائية ولا فوضوية. إنها منضبطة بقوانين: سواء على المستوى الحسيّ - المادّي (المنظور والمسموع): أم المعنويّ - الاعتباريّ (العقلي، والنفسي، والروحي).

وقد سعينا في هذا الكتاب إلى أن نبرز مظاهر الحركة في العديد من العوالم وأنواعها وتجلياتها، مع عقد مباحث للحديث عن الحركة التعبديّة وأبعادها الجمالية . وهو بحث طريف يخدم المنهج البياني والفني في إدراك جماليات الخطاب القرآني، مع الاستناد إلى جهود المفسرين في الموضوع، وهو ما يجعله لبنة في ذلك البناء المتكامل...



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

إدارة الثقافة الإسلامية

www.islam.gov.kw/thaqafa